سلـمى لاجرلوف

مغامرات نلز العجيب

7.8.2017

روايـات جـائزة نـوبل

14

ترجمة شـوقي جـلال

الدار المصرية اللبنانية



Nils HolgerssonS ADVENTURES

سلمى لاجرلوف

نوبل / 1909

ترجمة شوقي جلال

روايات جائزة نوبل

Nils HolgerssonS

ADVENTURES



روايــــات جائــزة نوبــــل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنـانية

المــديــر العـــام : **محمد رشــاد**

رئيس التحـريــــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحى**

---

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ١٣٣١٤ / ٩٨

الترقيم الدولى : 1 - 484 - 270 - 977

الطبعة الأولى : شوال ١٤١٩ هـ ـــ فبراير ١٩٩٩م.



الفصل الأول

1

ذات يوم كان هناك ولد صغير عمره نحو ١٤ سنة ، وكان طويلاً عريضًا، ورأسه كبيرًا . . (من النوع الذى يطلق عليه (أبو رأسين) . . لم يكن هذا الولد يصلح لأى شىء . . سعادته الكبرى فى أن يأكل وينام ، وأحب شىء له بعد ذلك أن يسبب كارثةً ، أو يؤذى أحدًا .

وفى صباح يوم أَحَد ، كان أبواه يستعدان للذهاب إلى الكنيسة ، وجلس نلز ـ وهذا هو اسم الولد ـ على طرف المائدة يفكر ويقول لنفسه : «ياالحظ أبى وأمى . . إنهما سيخرجان ، وشاطىء البحر رائق جميل . . حسنًا . . أستطيع الآن أن أحمل بندقية أبى ، وأطلق طلقة ، دون أن يتدخل ، أو يمنعنى أى إنسان» .

يبدو أن الأب قرأ أفكار نلز ، وعرف مادار فى رأسه ، لأنه ما إن وطأ بقدمه عتبة الباب ، وهمّ بالخروج إلى الطريق ، حتى توقف ، والتفت إلى نلز ، وقال له : « إذا لم تكن تنوى الذهاب معنا إلى الكنيسة ، فلا أقل من أن تصلى هنا فى البيت . . هل تعدنى بذلك ؟ » .

أجاب نلز على الفور:

«طبعًا هذه مسألة سهلة جدّا » . .

لم يكن نلز صادقًا ، لأنه لا يحب القراءة .

لم ير الولد أمه فى يوم من الأيام نشطة سريعة الحركة مثلما هى الآن . . فهى فى لحظة واحدة أحضرت كتاب الصلوات من على الرف ، ووضعته على المائدة مقابل النافذة ، وفتحت الكتاب على صفحة صلاة اليوم ، ثم جذبت كرسيًا بمسندين ، اشترياه من مزاد علنى منذ عام مضى ، ولم يكن مسموحًا لأحد بالجلوس عليه غير الأب وحده .

جلس نلز يفكر فيما تفعله أمه ، ولماذا تتعب نفسها كل هذا التعب ، وهو لا ينوى قراءة أكثر من صفحة واحدة ، ولكن ـ للمرة الثانية ـ كان الأب قد قرأ مايدور فى رأسه ، إذ سار ناحيته ، وقال له بصوت صارم قاس: «تذكر يانلز أنه يلزم أن تقرأ الصلاة بدقة وعناية ، لأننى سأسألك فيها تفصيلاً بعد عودتى ، وليس من مصلحتك أن تترك صفحة واحدة» .

يبدو أن الأم أرادت أن تزيد من أسباب تعاسته ، فقالت : « الصلاة فى أربع عشرة صفحة ونصف الصفحة ، وعليك أن تجلس وتبدأ قراءتها الآن وفورًا ، إذا شئت أن تقرأها كلها» .

خرج الأب والأم بعد هذه التعليمات ، فى حين وقف نلز عند مدخل البيت يرقبهما ، ويشعر بينه وبين نفسه أنه وقع فى مصيدة . وقال فى نفسه : «ها هما قد خرجا . . ولعلهما يشعران بالسعادة ، ويهنئان بعضهما بعضا ، لأنهما عرفا كيف يجبرانى على الجلوس . . لأظل أرتل الصلاة حتى يعودا إلى البيت » .

لم يكن الأب والأم يهنئان بعضهما بشىء من هذا أبدا ، بل على العكس

. . كانا حزينين أشد الحزن . . فهما فلاحان فقيران ، ولم تكن أرضهما سوى حديقة صغيرة ، وما كانت ـ يوم أن امتلكاها ـ تكفى لتطعم خروفًا ، وزوجًا من الدجاج ، ولكنهما كَدًّا وكدحا ، حتى أصبحا يملكان الآن أبقارًا وإوزًّا. وابتسمت الحياة لهما ، وأصبح فى إمكانهما أن يخرجا إلى الصلاة فى هذا الصباح راضيين سعيدين ، لولا هذا الابن الشقى الذى يشغل بالهما . . فقد كان الأب دائم الشكوى من غبائه وكسله ، ولأنه لم يحاول أن يتعلم شيئًا فى المدرسة ، وأصبح لا يصلح لشىء غير رعاية الإوز. وكانت الأم أكبر حزنًا، لأنه ابن طائش شرير وقاسٍ مع الحيوانات ، وسيىء الطباع مع الناس ، وكثيرا ما تدعو قائلة : « اللهم حنن قلبه وأصلح حاله، وإلاّ فإنه سيكون كارثة على نفسه وعلينا » .

وقف (نلز) يفكر طويلاً . . هل يؤدى الصلاة ، أم لا ؟ وأخيرًا حسم رأيه، وانتهى إلى أن من الأفضل له هذه المرة أن يكون إنسانًا مطيعًا . جلس فى المقعد المريح ، وبدأ يقرأ . وبعد أن ظل يتمتم بصوت خفيض لفترة من الوقت ، بدأت هذه الغمغمة تشيع فى نفسه هدوءًا وراحة ؛ وثقل رأسه من أثر النعاس .

كان الجو جميلاً رائعًا فى الخارج ، فقد كان ذلك فى العشرين من مارس، والربيع فى ذروته . . الخضرة لم تكتمل حقًا ، ولكن النضرة تكسو الطبيعة ، والأزهار تفتحت ، وفاضت الجداول بالمياه ، وأينعت الحشائش ، ونمت الأعشاب . وبدت سيقان الأشجار على البعد وكأنها قد امتلأت ، وتزداد امتلاء لحظة بعد أخرى . وتراءت السماء عالية صافية زرقاء . وكان باب الكوخ مفتوحًا ، وتناهى إلى سمعه تغريد عصفور . . وكان الدجاج والإوز يعدو بخطى سريعة خفيفة فى الفناء . أمّا البقر الذى شم رائحة

الربيع فى حظيرته ، فبدأ يخور بين حين وآخر ، معبرًا عن رضائه .

ظل نلز يقرأ ورأسه مطرق ، ولكنه يحاول مغالبة النعاس . .

وقال فى نفسه :

«لا . . لن يغلبنى النوم ، وإلاّ فلن أنتهى من هذه المهمة هذا الصباح».

ولكن . . نام نلز !

إنه لا يدرى ، هل نام فترة طويلة أم قصيرة ، ولكنه استيقظ على صوت ضوضاء خافتة وراءه .

كانت على عتبة النافذة المقابلة له مرآة ، تنعكس عليها صورة الحجرة كلها تقريبًا . لم يكد نلز يرفع رأسه ، حتى التقت عيناه بالمرآة ، ورأى غطاء الصندوق الخاص بأمه مفتوحًا .

كانت أمه تمتلك صندوقًا كبيرًا ثقيلاً من خشب البلوط المصفح الجديد، ولم تكن تسمح لأحد غيرها بفتحه . . ففى هذا الصندوق تحتفظ بكل نفائسها ـ التى ورثتها عن أمها ـ التى تحرص عليها كل الحرص ، وتعتنى بها عناية فائقة . ويضم هذا الصندوق بداخله ثوبين قديمين من ملابس الفلاحات ، وهما مصنوعان من قماش أحمر ، مغزول يدويًا فى البيت وصديريات قصيرة وتنورات ، وجيبات ذات ثنيات ، وفساتين مطرزة باللآلىء . لم يعد الناس يعبأون فى هذه الأيام عند الخروج بارتداء مثل هذه الملابس ، حتى إن أمه كثيرًا مافكرت فى التخلص من هذه الأشياء القديمة ، ولكن لسبب أو لآخر . . لم يطاوعها قلبها على ذلك .

تأكد نلز الآن أن غطاء الصندوق مفتوح . . إنه لا يعرف كيف حدث هذا ، لأن أمه أغلقت الصندوق قبل أن تخرج ، ومن المستحيلات أن تترك هذا الصندوق النفيس مفتوحًا ، وهو فى البيت وحده .

انقبضت نفسه ، وأحس بالخوف . . لقد خشى أن يكون هناك لص تسلل إلى الكوخ . ولم يجرؤ نلز على الحركة ، وظل ساكنًا فى مكانه ، يحملق فى المرآة .

وبينما هو جالس ينتظر . . لعل اللص يظهر له ، بدأ يتعجب من ذلك الظل الأسود الساقط على حافة الصندوق . . أخذ ينظر وينظر ويمعن النظر ، وهو لايريد أن يصدق عينيه . . ولكن الشىء الذى بدا له وكأنه ظل ـ أول الأمر ـ بدأ يتضح له شيئًا فشيئًا ، ثم سرعان ما أدرك أنه حقيقى . . إنه لم يكن سوى قزم صغير ، يجلس منفرج الساقين فوق الصندوق .

سمع نلز الكثير من القصص والحكايات عن الأقزام ، ولكنه لم يتخيل أنها مخلوقات صغيرة جدًا إلى هذا الحد . لم يكن هذا القزم ـ الجالس على حافة الصندوق ـ يزيد فى طوله على عشرة سنتيمترات ، وله وجه عجوز ملىء بالتجاعيد ، أجرد ، لا لحية له ، ويرتدى عباءة سوداء ، وعلى رأسه قبعة ذات حواف عريضة . . بدا أنيقًا غاية الأناقة بالرباط الأبيض حول عنقه ، والإزار الأبيض حول وسطه ، وبحذائه المحكم بالرباط . وكان قد أخرج من الصندوق قميصًا مطرزًا ، وجلس يتأمل تطريزه اليدوى فى مهابة ووقار، دون أن يلحظ أن الصبى قد استيقظ .

كان نلز مذهولاً بعض الشىء ، لأنه رأى قزمًا ، ولكنه من ناحية أخرى . . لم يكن خائفًا ، إذ من غير المعقول أن يخشى كائنًا صغيرًا جدًا

كهذا ، كما أن القزم كان يعيش فى خياله ، مع أنه لم يسبق له أن رآه ، أو سمع به . وقد تصور أنها ستكون لعبة مسلية وممتعة للغاية ، لو أنه تحايل عليه وخدعه . . كأن يدفعه إلى داخل الصندوق ، ويضع الغطاء من فوقه ويحبسه ، أو أن يقوم بأى شىء من هذا القبيل .

ولكن نلز لم يكن شجاعًا إلى الحد الذى يجرؤ فيه على لمس القزم بيديه . وبدلاً من ذلك . . جال بنظره فى الحجرة ، يبحث عن شىء يلتقطه به وترك نظراته المحدقة تتجول فى الحجرة ، وتنتقل من الحشية إلى المنضدة ، ومن المنضدة إلى المدفئة . ونظر إلى غلاية الشاى ، ثم إلى إبريق القهوة الموجود قرب المدفئة ، وانتقل بصره إلى دلو الماء قرب الباب ، ثم الملاعق والسكاكين والأشواك والأطباق الموجودة فى الدولاب ؛ ووقع نظره على بندقية أبيه المعلقة على الجدار بجانب صورة الأسرة المالكة والأزهار المتفتحة بجوار النافذة .

لم تكد عيناه تقع على شبكة صيد الفراش ـ التى كانت معلقة بإطار الشباك ـ حتى هب واقفًا ، وجذبها ، وقفز مطوحًا بها على حافة الصندوق . ويا لدهشته . . إنه لا يدرى كيف حركها وتحكم فيها ؟! ولكن كل مايدريه هو أنه قد اصطاد القزم . ورقد الصغير البائس ، ورأسه إلى أسفل فى قاع الشبكة ، وهو عاجز عن أن يحرر نفسه .

لم يدر نلز ماذا يفعل بهذا القزم الذى اصطاده . كل مافى الأمر أنه كان حريصًا على أن يطوح بالشبكة يمينًا وشمالاً ، ليمنع القزم من الوقوف على قدميه ، والتسلق إلى أعلى .

بدأ القزم يتكلم ويرجو ويتوسل ويطالب بحريته . وياله من حديث يثير الشفقة والرثاء . . فقد جلب لهم الحظ طوال السنوات الماضية ، ولهذا . . فإنه يستحق معاملة طيبة .

وقال أيضًا للصبى : « إذا أطلقت سراحى ؛ سأهديك قطعة نقود قديمة، وملعقة فضية ، وقطعة ذهبية فى حجم صندوق ساعة أبيك الفضية».

لم يتصور الصبى أن هذه هدايا جديرة بالقبول ، ولكن الذى حدث أنه بعد أن أمسك بالقزم ، بدأ يشعر بالخوف . أحس أنه أسير شىء غريب خارق للطبيعة ، لا ينتمى إلى عالمه ، ولكنه كان راغبًا فى أن يتخلص من هذا الشىء الرهيب .

لهذا . . وافق على العرض المقدم له ، وثبت الشبكة ، حتى يتمكن القزم من الزحف والخروج منها .

وحين أوشك القزم على الخروج من الشبكة ، طرأت فى ذهن نلز فكرة ، وتصور أن من الأفضل له لو ساوم للحصول على أشياء أكثر وأحسن . وقال فى نفسه :

« ما أغبانى إن أطلقت سراحه » .

وبدأ يهز الشبكة بعنف ، حتى سقط القزم ثانية . . لكنه فى اللحظة التى فعل فيها هذا ، تلقى لطمة حادة على أذنه ، حتى خيل إليه أن رأسه يوشك أن يتناثر قطعًا فى الهواء . . وارتطم بالحائط ، ثم اندفع ليرتطم بالحائط المقابل ، وتهاوى إلى الأرض ساكنًا فاقد الوعى .

وحينما استيقظ وجد نفسه وحيدًا فى الكوخ . . ولم يجد أثرًا للقزم . وكان غطاء الصندوق فى مكانه مقفلاً ، وشبكة صيد الفراش معلقة فى مكانها المعتاد ، وقرب النافذة . ولولا أنه يحس بخده الأيمن وقد التهبت من

أثر اللطمة على أذنه ؛ لظن أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلمًا تراءى له . قال فى نفسه :

على أية حال . . فإن أبى وأمى سيؤكدان عن يقين أن الأمر ليس شيئًا آخر غير ما حدث . . ومن الأفضل لى أن أعود إلى القراءة .

وبينما كان يخطو ناحية المائدة لحظ شيئًا لافتًا للنظر . . فليس من الممكن أن يكون الكوخ قد كبر واتسع . . ولكن ما الذى جعله يخطو خطوات عديدَة أكثر من المعتاد ليصل إلى المنضدة ؟ وماذا عن المقعد ؟ إنه لا يبدو أكبر مما كان منذ لحظة ، ولكن لماذا يجب عليه أن يرقى أرجله ودعامته السفلى ، ويتسلق المقعد ، ويصعد فوقه ؟ ! . وهو نفس الشيء مع المنضدة ، ثم إنه لا يستطيع أن يرى سطحها إلاّ إذا طلع فوق ذراع الكرسى؟ !

وتساءل نلز بينه وبين نفسه : « ياإلهى ، ما الذى حدث فى الدنيا ؟ لقد سحر القزم المقعد والمنضدة ، بل والكوخ كله ! .

لايزال كتاب الصلوات فى مكانه فوق المنضدة كما هو دون تغيير ، ولكن لابد أن شيئًا غريبًا وشاذًا قد حدث . . ذلك لأنه لا يستطيع قراءة كلمة واحدة ، دون الوقوف مباشرة فوق الكتاب ذاته ! .

قرأ سطرين ، ثم تطلع مصادفة إلى أعلى ؛ فوقع بصره فجأة على المرآة ، وصرخ قائلاً : « هاهو قزم آخر هناك » .

لقد رأى فى المرآة صورة قزم صغير جدًا جدًا ، يرتدى قلنسوة على رأسه ، وبنطلونًا من الجلد .

ضرب نلز كفًا بكف فى دهشةٍ واستغراب ، وتساءل : « ولكن لماذا

يرتدى هذا القزم ملابس مثل ملابسى تمامًا ؟ !» . . ولكنه لحظ أن الكائن الموجود فى المرآة يفعل نفس الشىء الذى يفعله . هنا بدأ يشد شعره، ويقرص ذراعيه ، ويجرى حول نفسه ، وإذا بالقزم الآخر يفعل نفس الشىءفى المرآة .

جرى نلز حول المرآة عدة مرات ، لعله يجد قزمًا يختفى وراءها ، ولكنه لم يجد شيئًا . . وبدأ يرتجف خوفًا ، وأدرك الآن أن القزم قد سحره ، وأن المخلوق الذى تبدو صورته فى المرآة إنما هو نفسه !

لم يصدق نلز أنه تحول إلى قزم ، وقال لنفسه : « لا ، هذا حلم ليس إلاّ ، ولكنه حلم غريب وشاذ . . على أية حال . . لو أننى انتظرت بضع دقائق ، فسوف أعود إلى ما كنت عليه بشرًا سويًا » .

وقف أمام المرآة ، وأغمض عينيه ، ثم فتحها ثانية بعد دقيقتين ، متوقعًا أن يجد كل شىء قد انتهى إلى ما كان عليه وأن الأمور عادت إلى سيرتها الأولى ، ولكن ذلك لم يحدث . لقد ظل صغيرًا قزمًا ، الشعر الذهبى ، والنمش حول الأنف ، والخطوط المرسومة على بنطلونه والرتق الموجود فى جوربه . . كل شىء لا يزال كما هو وكما تعوده ، ولكن باستثناء شىء واحد أن هذه الأشياء أصبحت كلها صغيرة جدًا .

أدرك أنه ليس من الخير أن يظل ساكنًا ينتظر . . لابد أن يحاول شيئًا آخر . ورأى أن أفضل وأحكم شىء أن يجدّ فى البحث عن القزم ، ويعقد سلامًا معه ، ويتصالحا .

وبينما كان يبحث عنه ، ظل يبكى ويدعو ويصلى ، ويعد بأن ينفذ له كل ما يطلبه . إنه لن يخلّ بوعده أبدًا بعد ذلك ، ولن يكون مشاكسًا . .

ولن ينام أو يغفو أبدًا وهو يقرأ كتابه المقدس ، أو يصلى .

أخذ يعد بأنه لو عاد بشرًا سويًا ، فسوف يكون ولدًا طيبًا مطيعًا . . ولكن وعوده هذه لم تأت بنتيجة .

وتذكر فجأة أنه سمع أمه ذات يوم تقول : « إن الكائنات الصغيرة تسكن حظيرة البقر » وقرر على الفور أن يذهب إلى هناك ، لعله يجد القزم، ومن حسن حظه أنْ كان باب الكوخ مفتوحًا ، وإلاّ لما عرف كيف يصل إلى المفتاح .

وعندما تلفت حوله باحثًا عن حذائه؛ تعجب . . لم يدر كيف يمكنه بوضعه هذا أن يرتدى حذاءه الكبير ، ولكن بصره وقع على حذاءين صغيرين جدًا عند عتبة الباب . . وأدرك أن القزم كان عاقلاً حكيمًا تمامًا إذ سحر له حذاءه أيضًا . . وبدا واضحًا أن هذه الحالة سوف تستمر طويلاً .

رأى عصفورًا رماديًا يثب فوق الممر الخشبى أمام الكوخ . . ولم يكد العصفور يرى الصبى ، حتى صاح :

« تى تى ! تحاتى ! انظر إلى نلز الولد الغبى ! . .

هاهو عقلة الإصبع . انظر إلى نلز عقلة الإصبع» .

التفت نحوه على الفور فى نفس اللحظة الإوز والدجاج ، صائحين فى الصبى بصوت مفزع . وصاح الديك :« كوكو كوكو ... هذا جزاؤه العادل . . هذا ما يستحقه . . كوكو كوكو . لقد نتف ريشى» .

وصاح الدجاج : « كا ـ كا ، لقد لقى جزاءه » .

أما الإوز ، فقد تجمع فى حلقة متماسكة ، وضم رؤوسه معًا ، وتساءل :

« من فعل هذا ؟ من الذى استطاع أن يفعل هذا ؟ » .

لكن الأغرب من هذا كله ... أن نلز فهم ماقالوه !

وظل ـ لشدة دهشته ـ واقفًا عند عتبة الباب ينصت لصياحهم وكلامهم، وقال لنفسه : « لابد أنهم يقولون ذلك لأننى تحولت إلى قزم ، ولعل هذا هو السبب فى أننى أفهم حديث الطير » .

وأدرك أنه أمر غير محتمل إذا لم يتوقف الدجاج عن الشماتة فيه ، وعن قوله بأن هذا هو مايستحقه . . وقذف الدجاج بحجر ، وصاح فيه :

« اخرسوا . اخرجوا كلكم » .

كانت دهشته حين أدرك أنه ـ ولأول مرة فى حياته ـ أصبح لايخيف الدجاج . لقد اندفعت كل طيور الحظيرة نحوه ، والتفّت حوله ، وصاحت جميعها بصوت واحد : « كا ، كا ، كا دا ... إنت تستحق ما حصل لك ، هذا جزاؤك ! كا ، كا كا دا » .

حاول نلز الهرب ، ولكن الدجاج جرى خلفه وهو يصيح ويصرخ ، حتى ظن أنه فقد سمعه ، ولعله لم يكن لينجو منه ، لولا أن قط البيت أقبل فى تلك اللحظة . . وما إن رأى الدجاج القط ، حتى صمت وتظاهر بأنه لايقصد شيئًا غير نبش الأرض بحثًا عن الديدان .

جرى الولد على الفور ناحية القط ، وقال له :

«بوسى حبيبى . . لابد أنك تعرف كل أركان ومخابىء المكان هنا . دلنى ياقطى الظريف أين أجد القزم ؟ » .

لم يجب القط على الفور وإنما جلس على قدميه الخلفيتين ، ولف ذيله فى دائرة رشيقة حول قدميه وحدق فى نلز . كان قطًا أسود كبيرًا ، له رقشة بيضاء واحدة على صدره ، وفراؤه أملس يلمع فى ضوء الشمس . وقف القط هادئًا وديعًا ، وقال فى صوت رقيق :

« أنا أعرف أين يعيش القزم ، ولكن ليس معنى هذا أننى سأدلك عليه».

قال نلز :

« عزيزى بوسى . . لابد أن تقول لى أين يعيش القزم . ألا ترى كيف سحرنى ؟» .

فتح القط عينيه قليلاً حتى لمع الخبث فيهما . . ودار حول نفسه ، ثم أصدر صوتًا يعبر عن الرضى ، قبل أن يقول :

« هل تظن أننى سأساعدك ، مع أنك كثيرًا ما كنت تشدنى من ذيلى؟» .

اشتعل نلز غضبًا ، ونسى أنه صغير ضعيف قليل الحيلة ، وجرى ناحية القط وهو يقول :

« آه . . أستطيع أن أشد ذيلك الآن أيضًا » .

وفجأة تغير القط ، حتى إن الصبي لم يصدق أنه هو الحيوان الذى يتحدث إليه ، وقفت كل شعرة من فرائه ، وانتصبت نافرة إلى آخرها ، وتقوس ظهره ، وطالت أقدامه ، وبرزت مخالبه ، وتضخم ذيله وقصر ، وتراجعت أذناه إلى الوراء ، وأزبد فمه ، واتسعت عيناه ، وبرقتا كأنها شرارات لهيب .

لم يشأ نلز أن يفزع من قط . . فتقدم خطوة إلى الأمام نحوه . . لكن القط فى قفزة واحدة استقر على ظهره ، وطرحه أرضًا ، ووقف فوقه ، ونشب مخالبه فى صدره ، وكان فكاه مفتوحين قرب رقبته .

أحس الصبى بمخالب القط الحادة مغروزة فى قميصه وجلده ، وأسنانه القاطعة تلمس رقبته ، وصرخ بأعلى صوته يطلب النجدة ، ولكن أحدًا لم يأت لنجدته ، وأيقن أن هذه هى لحظته الأخيرة . . لكن القط سحب مخالبه ، وتراجع عن رقبته ، ثم قال له :

« اسمع . . سأتركك لحال سبيلك هذه المرة . . وذلك لأجل خاطر سيدتى . . أردت فقط أن تعرف : من الأقوى الآن ؟» .

ابتعد القط ، وبدا مثلما كان فى أول مرة هادئًا وديعًا . . وأحس نلز بالخزى والخجل ، حتى إنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة ، وكل مافعله أنه هرع إلى حظيرة البقر ليبحث عن القزم .

لم يكن هناك أكثر من ثلاث بقرات ، وما إن دخل نلز المكان ، حتى امتلأ بكم هائل من الخوار والرفسات ، حتى ليخيل للسامع أن هناك بالحظيرة مالا يقل عن ثلاثين بقرة .

خارت بقرة قائلة : « مو ، مو ، مو . . جميلٌ أن يكون فى العالم شيء اسمه العدالة » .

وخارت البقرات الثلاث معًا فى صوت واحد :

« مو ، مو ، مو » . . ولم يسمع نلز ماقالته البقرات بوضوح ، لأن كلاًّ منها حاولت أن يكون خوارها أعلى من غيرها .

حاول نلز أن يسأل عن القزم ، ولكن صوته ضاع وسط الضجيج . واستمرت البقرات فى الخوار مثلما اعتادت عندما كان نلز يطلق كلبًا غريبا ، وظلت ترفس بأرجلها الخلفية وتضرب بها الأرض . . وتهز كل منها رقبتها ، وتمد رأسها وتهدده بقرونها .

قالت بقرة : « تعالَ هنا لتلقى رفسة لن تنساها » .

وقالت الثانية : « تعالَ هنا لترقص فوق قرنى » .

وقالت الثالثة : « تعالَ لتجرب ما كنت أحس به حين تقذفنى بحذائك الخشبى » .

وعادت الثانية لتقول له : « تعالَ لتتلقى منى جزاء النحلة التى أطلقتها داخل أذنى ! » .

كانت البقرة الأولى أكبر البقرات سنًا ، وأحكمها عقلاً ، وأكثرها غضبًا ، فصاحت به :

« تعالَ حتى أرد إليك مافعلته بأمك مرات عديدة ، حين كنت تلقى دلو اللبن بعيدًا وتخفيه عنها ، وحين كنت تنصب الشراك فى طريقها وهى قادمة تحمل اللبن . . تعالَ لتدفع جزاء الدموع التى سكبتها وهى واقفة هنا تبكى » .

أراد نلز أن يعبر للبقرات عن أسفه الشديد ، لأنه كان قاسيًا عليها ، ويعلن أنه لن يكون بعد الآن إلاَّ إنسانًا طيبًا ، ويسألهم أن يرشدوه فقط إلى مكان القزم .

أثارت البقرات جلبة وضوضاء شديدة ، حتى خشى أن تفلت إحداها من قيدها ، ورأى أنه من الأفضل له أن يخرج بهدوء من حظيرة البقر .

أحس بعد خروجه بخيبة أمل كاملة . . وأدرك أنه لا يوجد من يريد مساعدته للعثور على القزم . . ولعله لا يجد خيرًا كثيرًا ، حتى لو عثر على القزم !

تسلق الجدار الحجرى المحيط بالمزرعة ، الذى يغطيه نبات العليق ، وجلس يفكر فى مصيره لو لم يعد إلى ما كان عليه .

إن مفاجأة مذهلة تنتظر أباه وأمه بعد عودتهما من الخارج ، بل إنها لمفاجأة مذهلةللعالم كله . . وسوف تتوافد الحشود من كل مكان . . سيأتى الناس ليحدقوا فيه ، ويتأملوه ، ويتعجبوا منه . . بل ربما يأخذه أبوه وأمه ليعرضاه فى سوق البلد !

لا . لا . هذه أمور مروعة ، لا يجوز التفكير فيها . . الأفضل ألاّ يراه إنسان .

إن تعاسته رهيبة تفوق كل حد . . ليسْ على الأرض من هو أتعس منه . . إنه لم يعد بشرًا ، بل أصبح مخلوقًا غريبًا ، يحسن عرضه فى سيرك .

بدأ يدرك رويدًا معنى أنه لن يكون بشرًا بعد الآن . . لقد انقطعت صلته بكل شىء الآن . لم يعد يستطيع اللعب مع الصبية الآخرين ،ولن يستطيع تولى مسئولية المزرعة بعد أن يكبر أبواه . . والشىء المؤكد أنه لا توجد فتاة ترضى بالتفكير فى الزواج منه .

جلس يتطلع إلى بيته . . إنه كوخ خشبى صغير ، والبيوت الأخرى صغيرة أيضًا ، والطرق ضيقة جدًا ، حتى لا يستطيع حصان أن يستدير فيها . . ولكن على الرغم من بؤس المكان ، إلاّ أنه كان يبدو له الآن جميلاً طيبًا للغاية . إنه لا يطمع فى مكان له أفضل من جحر تحت أرض الحظيرة .

كان الطقس جميلاً إلى حد يثير الدهشة . . تفتحت الأزهار من حوله . . وتردد خرير الماء ، وحفيف الأشجار ، وشدو الطيور . . ولكنه جلس مثقل القلب حزين النفس ، إنه لن يعرف معنى السعادة بعد اليوم .

إنه لم ير أبدًا السماء زرقاء مثلما هى الآن . عادت الطيور المهاجرة من أسفارها . . وفدت من أراضٍ بعيدة غريبة ، وحلقت فوق البحر الشرقى ، وهاهى الآن فى طريقها إلى الشمال . . وهى أنواع كثيرة مختلفة ، ولكنه يألف فقط الإوز البرى ، الذى أقبل محلّقًا فى صفين يلتقيان عند رأس مثلث .

توافدت أسراب الإوز البرى . . وحلقت عالية جدًا فى السماء ، ولكنه لا يزال يسمعها تنادى بعضها قائلة : « الآن نحن فى طريقنا إلى التلال » .

وعندما أبصر الإوز البرى الإوز الداجن المستأنس يسير فى المزرعة ؛ هبط قريبًا من الأرض ، وناداه قائلا :

« هيا بنا ، تعال معنا ، هيا تعال معنا ، نحن فى طريقنا إلى التلال » .

لم يستطع الإوز الداجن مقاومة الإغراء ؛ فرفع رأسه ، ومد رقبته ، وأنصت للنداء ، ولكنه رد قائلا :

« نحن سعداء ، حيث نحن هنا . . نحن راضون بمكاننا هنا » .

كان يومًا جميلاً رائعًا على غير العادة ـ كما قلنا ـ والطقس يشيع بهجة تحبب الطيران والتحليق فى السماء ، وكلما مر سرب من الإوز البرى ، أحس الإوز الداجن بالقلق . . ورفّ بجناحيه ، كأن نفسه تحدثه بالطيران ، وكلما فعل ذلك ، تحدثت إليه إوزةعجوز قائلة :

« لا تكونوا أغبياء . . هذه المخلوقات ستعانى الجوع والبرد » .

كان هناك ذكر إوز أثار الإوز البرى فى نفسه لهيب الحب للمغامرة ، قال فى نفسه : « ولو مر سرب آخر من هنا ، فإنى سوف أتبعه » .

ووفد سربٌ جديد ، نادى كما نادى غيره من قبل ، وأجاب ذكر الإوز: « انتظرنى دقيقة واحدة ، دقيقة واحدة ، و سألحق بك » .

وبسط جناحيه ورفع نفسه فى الهواء ، ولكنه لم يألف الطيران من قبل ؛ فهوى إلى الأرض .

على أية حال . . لابد أن الإوز البرى سمع نداءه ذلك ، لأنه استدار وعاد إليه فى بطء ، ليرى إذا ما كان قادمًا معهم ، أم لا .

وصاح ذكر الإوز : « انتظر ... انتظر . وعاود محاولة الطيران » .

سمع نلز كل هذا وهو راقد فى مكانه على الجدار الحجرى . وقال فى نفسه : « سيكون أمرًا محزنًا جدًا لو أن ذكر الإوز رحل من هنا سيكون خسارة كبيرة لأبى وأمى لو فقداه بعد عودتهما من الخارج » .

وبينما هو يفكر فى هذا ، نسى مرة أخرى أنه قزم صغير فاقد الحيلة . . قفز هابطًا إلى سرب الإوز ، وألقى بذراعيه حول رقبة ذكر الإوز ، وصاح به :

« أوه ، لا ، لا ... لن تطير بعيدًا ياسيدى الآن » .

لكن ذكر الإوز عثر الآن على مايريد ، وعرف ماذا عليه أن يفعل ليرتفع بنفسه بعيدًا عن الأرض .

حاول أن يطوح الصبى بعيدًا ، ولكنه لم يستطع ، بل ارتفع نلز معه فى الهواء . .

طارا معًا نحو المرتفعات سريعًا جدًا ، حتى إن نلز كان يلهث ، وقبل

أن يفكر فى فك ذراعيه من حول رقبة ذكر الإوز ، وجد نفسه يعلو ويعلو فى السماء ، وعرف أنه لو ترك رقبة ذكر الإوز ؛ لسقط على الأرض .

كان الشيء الوحيد الذى يمكن أن يفعله ليشعر ببعض الراحة ، هو الصعود إلى ظهر ذكر الإوز .

ولم يكن يسيرًا عليه أن يأمن على نفسه وهو جالس فوق ظهر ناعم أملس، وبين جناحين يرفان بقوة . . وحفر لنفسه مكانًا وسط الريش ليحتمى فيه ، حتى لا يسقط على الأرض .

أحس نلز بدوار شديد ، ومضى وقت طويل قبل أن يفيق إلى نفسه .

كانت الرياح تعوى وتلطمه بقوة ، وبدا صوت ضربات الجناحين كأنه عاصفة هوجاء . . ثلاث عشرة إوزة تحف به وتطير من حوله ، وتصيح بصوت عال ، وترقص أمام عينيه ، وتطن فى أذنيه . . لم يكن يدرى هل تطير على ارتفاع شاهق أم قريبًا من الأرض ، ولا إلى أين تتجه فى سفرها؟!

بعد قليل أفاق نلز ، واستعاد بعض إدراكه ، ورأى أن من الأفضل له أن يعرف إلى أين يحمله الإوز .

لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين اليسير . . ذلك لأنه لايدرى كيف تواتيه الشجاعة لينظر إلى أسفل ، وهو على يقين بأنه سيغمى عليه لو حاول ذلك .

تشجع نلز أخيرًا ، وألقى نظرة سريعة إلى الأرض ؛ فظهرت كأنها بساط كبير ممدود تحته مصنوع من عدد لا حصر له من المربعات الصغيرة . وتساءل فى دهشة : « أين أنا الآن ، وفى أى مكان من العالم ؟! » . لم ير شيئًا

غير مربع بجانب مربع . بعض مارأى مستعرض ، والبعض الآخر طويل وضيق ويوجد هنا وهناك . . وفى كل مكان خطوط مستقيمة ، لا خطوط مستديرة أو متموجة ، بل كلها مستقيمة .

تساءل نلز فى دهشة ، دون أن يتوقع إجابة من أحد : عجبًا . . أى ثوب هذا المرقش بالمربعات الذى أراه تحتى ؟ !» .

ولكن الإوز البرى الذى يحف به ويطير من حوله أجاب على الفور :

« حقول ومروج خضراء » . . حينئذٍ أدرك أن هذا النسيج المرقش بالمربعات الذى يحلق فوقه ، ليس إلاّ أرض بلاده السهلة المنبسطة، وعرف لماذا تبدو فى صورة مربعات متعددة الألوان .

. . هذه المربعات الخضراء هى حقول نبات الجاودار الذى حصده الفلاحون فى الخريف . . واحتفظ بلونه الأخضر تحت ثلج الشتاء . . وهذه المربعات الصفراء هى هشيم الحقول ، وبقايا حصاد الشوفان الذى نضج فى الصيف الماضى . . وهذه المربعات البنية الشكل هى حقول البرسيم القديمة بعد أن جف ، والمربعات السوداء فراغ وأراضٍ محروثة . . المربعا ت البنية اللون ذات الحواف الصفراء هى ـ ولاشك ـ غابات أشجار الزان . . ذلك أنك تجد فيها الأشجار الضخمة التى تنمو وسط الغابة ، قد بدت جرداء فى فصل الشتاء . . أمّا الأشجار الصغيرة التى تنمو على طول الحواف، فإنها تحتفظ بأوراقها الجافة الصفراء فى الربيع . . وكانت هناك مربعات خضراء فى الوسط ذات حواف بنية اللون : هذه هى البساتين التى استحال فيها العشب إلى لونه الأخضر ، على الرغم من أن الأشجار التى تحيط به لاتزال جرداء .

لم يتمالك نلز نفسه من الضحك حين رأى كل شيء قد تحول إلى مربعات صغيرة متلاصقة ، ولكن حين سمع الإوز البرى يضحك ؛ صاح به : «أرضٌ خصبة طيبة . . أرضٌ خصبة طيبة » .

أصبح الصبى جادًا ، وقال فى نفسه : « هل لك أن تضحك ، أنت يامن صادفت أسوأ حظ يمكن أن يصادفه إنسان ؟!». وأحس نلز بالاكتئاب لحظة ، ثم عاود الضحك ثانية . . والآن وبعد أن ألف الركوب على ظهر ذكر الإوز وسرعة الطيران ، أصبح فى استطاعته أن يفكر فى شيء آخر غير اهتمامه بأن يحكم قبضته على ظهر ذكر الإوز . وبدأ يلحظ الهواء المحيط به ، وقد امتلأ بالطيور المحلقة ، المتجهة شمالاً ، حيث أخذت تتصايح وتنادى بعضها بعضًا . صاح بعضها : « لعلك أتيت من مكانٍ بعيد ؟ ». أجاب الإوز : « نعم ». وسأل بعضها الآخر :« كيف حال الربيع فى رأيك ؟ » .

جاء الرد : « الأشجار جرداء ، تساقطت أوراقها ، والماء تجمد فى البحيرات ».

عندما حلق الإوز فوق مكان رأى فيه طيورًا داجنة ، صاح : « ما اسم هذا المكان ؟ » . رفع ديكٌ رأسه ومد رقبته وأجاب قائلاً : « اسمه هذا العام (ليلجأرد) ،هو نفس اسمه فى العام الماضى ، تمامًا نفس الاسم فى العام الماضى ».

كانت الأكواخ تحمل أسماء أصحابها ـ وهذه هى عادة أهل البلد ـ ولكن بدلاً من القول : إن هذا كوخ فلان ، وهذا كوخ فلان ، استخدمت الديكة أسماء تتلاءم مع تفكيرها . . فكانت الديكة التى تعيش فى مزرعة

صغيرة يملكها سكان فقراء تصيح قائلة : « هذا المكان اسمه (نادر الحبوب) » . والديكة التى يملكها أفقر السكان وأشدهم بؤسًا تصيح قائلةً : «اسم هذا المكان (الحوصلة الخاوية)» ، أمّا المزارع الكبيرة الغنية بالمحاصيل، فقد أطلق الديكة عليها أسماء رنانة ، مثل : (المرج سعيد الحظ) ،و (مزرعة البيض) ، و (قرية العسل) .

لكن الديكة التى كانت تعيش فى الضياع الواسعة ، كانت تشعر بكبرياء يأبى عليها أن تتواضع وتشارك فى مثل هذا المزاح . وصاح أحدها فى خيلاء وزهو ، وكأنه يخاطب الشمس : « هذه ضيعة (ديبيك) ، واسمها هذا العام مثل اسمها فى العام الماضى » .

على مقربة منه كان يخطو ديك آخر فى شموخ وكبرياء ، وصاح : « هذه ضيعة (سوان) التى يعرفها العالم كله يقينًا » .

لاحظ الصبى أن الإوز لا يطير فى خط مستقيم ، بل يتبع مسارًا متعرجًا، يميل هنا وهناك فوق القطر الجنوبى ، وكأنه سعيد بمكانه الذى عاد إليه ، ويريد أن يعبر عن احترامه لكل بقعة فيه .

حلق الإوز فوق مكان به عدد من المبانى الضخمة ، ولكنها مبنية فى غير رشاقة ، وتتصاعد منها مداخن عالية ،ويحيط بها عدد كبير من البيوت الصغيرة . وصاحت الديكة : « وهذا مصنع تكرير السكر » .

ألقى الصبى نظرة من فوق مجلسه على ظهر الإوزة . لابد أنه يعرف هذا المكان ، لأنه غير بعيد عن بيته ، ولقد عمل هنا فى العام الماضى فى وظيفة حارس ، ولكن الصورة مختلفة تمامًا وهو ينظر إليها من أعلى .

تذكر البنت (أوسا) راعية الإوز وأخاها الصغير (بانه) . لقد كان معه

فى العام الماضى . حقًا يسره كثيرًا لو عرف مكانها هنا . . تخيل ماذا سيقولان لو توقعا أنه حلق فوق رأسيهما .

سرعان ما اختفت المدينة عن الأنظار ، ورحل الإوز إلى مدن أخرى ، حلق فوقها كما حلق فوق بحيرة (سكابر) . . وشاهد الصبى خلال هذا اليوم أكثر مما شاهده فى كل سنوات عمره .

كلما مر الإوز البرى بإوز داجن ، تبادل معه بعض عبارات المزاح . كان يخفف من سرعة طيرانه وينادى : « نحن فى طريقنا إلى التلال ، هل تصحبوننا ؟هل تشاركوننا رحلتنا ؟ » .

ويجيب الإوز الداجن : « لا يزال الطقس شتاء فى هذا البلد . لقد بدأتم رحلتكم مبكرين . ارجعوا . . ارجعوا إلى بلدكم » .

هبط الإوز حتى اقترب من الأرض ليكون صوته مسموعًا ، وصاح : «هيا هيا . . سنعلمكم الطيران والعوم . . » .

غضب الإوز الداجن ، ولم يرد بفأفأة واحدة .

هبط الإوز البرى أكثر ، حيث كاد يلمس الأرض ، ثم ارتفع بسرعة البرق ، وكأن شيئًا أثار فزعه . وصاح : « أوه ، أوه ، أوه هذه الكائنات ليست إوزًا . . إنها ماشية ، خراف ، وماعز فقط . . » .

اشتد غيظ الإوز الداجن ، وصرخ ثائرًا : « عليكم اللعنة ، ولتصحبكم طلقة من صياد تسقطكم كلكم على الأرض كلكم . . كلكم » .

لم يركب نلز فى حياته أبدًا حيوانًا طار به بمثل هذه السرعة الفائقة ، وكان أحب لنفسه الركوب السريع الطائش والمتهور . ولم يحلم فى حياته قط أن

يحلق فى الهواء، أو أن يجد الأرض تنبعث منها رائحة عطرة كهذه ، ولم ير فى حلم من الأحلام كيف يكون الطيران عاليًا فوق الأرض . كل ما كان يفكر فيه هو ـ فقط ـ هو الهرب بعيدًا عن أسباب الحزن والضيق والمشكلات .

أحس ذكر الإوز الداجن الذى تبعهم بفخر كبير ، إذ سمح له بالتحليق ذهابًا وجيئةً فوق السهول الجنوبية مع الإوز البرى، وإطلاق النكات مع الطيور الأخرى ، ولكنه على الرغم من سعادته . . بدأ يحس بالتعب بعد انقضاء فترة الظهيرة . حاول أن يأخذ أنفاسًا عميقة ليتزود بالهواء ، كما حاول أن يضرب بجناحيه ضربات سريعة متلاحقة ، إلاّ أنه ظل متخلفًا وراء الإوز الآخر بحوالى عشرات الأطوال الإوزية .

عندما لحظ الإوز البرى الذى يطير فى آخر السرب أن ذكر الإوز الداجن عاجز عن اللحاق بهم ، بدأوا ينادون على الإوزة قائدة السرب التى عند رأس الزاوية .

سألت قائدة السرب : « ماذا تريدون منى ؟ » .

قالوا : « ذكر الإوز الداجن الأبيض متخلف عنا ، ذكر الإوز الأبيض وراءنا بمسافة طويلة » .

صاحت القائدة : « قولوا له من الأسهل أن يسرع فى الطيران ، فإن الطيران السريع أسهل من البطىء » .

قالت القائدة هذه الكلمات ، وسابقت الريح .

حاول ذكر الإوز اتباع النصيحة ، وضاعف من سرعته ، ولكنه أحس بالتعب والإجهاد ، حتى هوى قرب قمم أشجار الصفصاف المحيطة بالحقول .

وصاح الإوز الذى يطير فى ذيل السرب ، ورأى محنة ذكر الإوز : « آكا ، آكا ، آكا ، آكا ، آكا » .

وسألت قائدة السرب ، وقد بدا عليها الغضب الشديد : « ماذا تريدون الآن ؟» .

ـ « ذكر الإوز الأبيض يهوى إلى الأرض . . ذكر الإوز الأبيض يسقط فوق الأشجار » .

صاحت القائدة ، دون أن تخفف من سرعتها ، بل على العكس . . ضاعفت منها كما فعلت من قبل : « قولوا له من الأسهل عليه أن يحلق عاليًا ، فالطيران العالى أيسر من الطيران المنخفض » .

حاول ذكر الإوز اتباع هذه النصيحة أيضًا ، ولكنه حين حاول أن يرتفع ، دار حول نفسه ، وأحس كأن صدره يوشك أن ينفجر .

عاود الإوز المحلق فى ذيل الركب الصياح ، وصرخ : « آكا ـ آكا » .

وتساءلت القائدة ـ وقد استبد بها الغضب ـ : « ألا تَدَعُونى أطير فى هدوء وسلام ؟ » .

فى هذه الأثناء . . كان الذكر الأبيض يوشك أن ينهار ويهوى إلى الأرض .

صاحت القائدة :

قولوا له من لايملك القوة للطيران مع السرب ، عليه أن يعود إلى بلدته . وضاعفت القائدة من سرعتها أكثر من ذى قبل .

قال ذكر الإوز لنفسه : « آه ، هل هذا هو اتجاه الريح ؟ » . وأدرك

على الفور أن الإوز البرى لم يكن يقصد أبدًا اصطحابه إلى بلاده ، وإنما قصد فقط إغراءه ليطير بعيدًا عن وطنه كعمل رياضى .

أحس بضيق شديد إذ أدرك أن قواه تضعف وتوشك أن تخونه الآن ، ولن يستطيع أن يثبت لهذا الإوز المتشرد أن ذكر الإوز الداجن قادر على أن يفعل الكثير ، ولكن الشىء الذى كان يستثيره أكثر من غيره ، هو زعيمة الإوز التى تدعى آكا ، والتى جاوزت المائة عام من عمرها . إن لها هذا الاسم العظيم الرنان الذى يردده أفاضل قوم الإوز البرى فى العالم كله ، ولكن لا يوجد من يحتقر الإوز الداجن مثل آكا وقطيعها ، وأنه لسعيد الآن إذا أثبت أنه نِدّ لهم .

ظل يطير فى بطء خلف السرب ، ولم يستقر رأيه على ما يعتزم فعله . . هل يعود أدراجه ، أم يواصل الطيران معهم ؟ ، وأخيرًا قال المخلوق الصغير الذى يعتلى ظهره :

«عزيزى السيد ذكر الإوز ، أنت تعلم جيدًا أن من المستحيل عليك أنت يامن لم تحلق أبدًا فى الفضاء أن تستمر فى الطيران مع الإوز البرى ، حتى تصل إلى بلادك . ألا تفكر فى العودة قبل أن تهلك وتموت؟ » .

كان كلام الصبى ابن الفلاح أسوأ شىء يسمعه ذكر الإوز . وما إن اتضح له أن هذا المخلوق الضعيف التافه يؤمن حقًا أنه عاجز عن إكمال الرحلة ، حتى قرر أن يواصل الطيران حتى النهاية ، مهما واجه من مشاق . قال له :

« إذا فتحت (منقارك) بكلمة واحدة ، سألقى بك فى أول حفرة تصادفنى فى طريقى » . واستشاط ذكر الإوز غضبًا ، ومنحه هذا الغضب

قوة كبيرة ، حتى بدأ يطير قويّا مثل الإوز البرى ، غير أنه لم يكن فى مقدوره المحافظة على هذه السرعة طويلاً ، ولم يكن ضروريّا أيضا ، إذ بدأت الشمس تميل نحو الغروب ، وعادة يهبط الإوز مع غروب الشمس ويستقر على الأرض . وقبل أن يعرف الصبى وذكر الإوز ما الذى حدث ، وقفا عند شاطىء بحيرة قومب .

هبط الصبى من على ظهر ذكر الإوز وهو يقول فى نفسه : « ربما ينوون قضاء الليل هنا ! » .

ووقف على شاطىء ضيق لبحيرة كبيرة نسبيّا ، كانت بحيرة قبيحة المنظر ، إذ تغطيها قشرة من الثلج اسْوَدَّ لونها وامتلأ سطحها بالشقوق والصدوع مثل ثلج الربيع تمامًا .

كان الثلج قد بدأ يتكسر ويتشقق ويتفكك ويطفو على السطح ، وحوله حزام من الماء الداكن اللامع ، ولكن كان لا يزال هناك بعض الثلج الكافى ليثير فى النفس قشعريرة برد الشتاء القارص .

وظهر على الجانب الآخر من البحيرة بلد منبسط مضىء ، ولكن الإوز حطّ فوق حزام من أشجار الصنوبر الكثيفة .

بدا وكأن هناك غابة قادرة على الاحتفاظ بالشتاء لنفسها . كان الجفاف يسود كل مكان ، والأرض جرداء ، لكن كان هنالك تحت فروع الصنوبر الحادة ثلج قد ذاب هنا وهناك ، وتجمد حتى استحال صلبا .

ظن الصبى أنه هبط فى القطب الشمالى ، وأحس بالبؤس والأسى ، حتى إنه أراد أن يصرخ بأعلى صوته .. كما اشتد به الجوع .. فقد مضى

يومٌ بطوله ، ولم يأكل لقمة واحدة . ولكن من أين له بالطعام ؟ . . لاشىء هنا سائغٌ للأكل ، حتى الأشجار لا تحمل ثمارًا فى شهر مارس .

نعم ، من أين له بالطعام ؟ ، ومن الذى يأويه ، ومن الذى يعد له فراش النوم . . ومن يقيه من الوحوش البرية ؟

غابت الشمس ، وهب الصقيع من البحيرة ، وهبط الليل ، واشتدت الظلمة، وسرى إحساس الفزع ، وزايلت الصبى مشاعر السعادة التى ملأت قلبه وهو يحلق فى الجو ، وتلفت حوله فى حزن شديد ، يتطلع إلى رفاق رحلته . . فليس له سواهم يتعلق بهم .

وقع بصره على ذكر الإوز فرآه يعانى أسوأ لحظاته ، وحاله شديد البؤس أكثر منه بؤسًا . كان يرقد ممددًا فى البقعة التى هبط عليها ، وبدا كأنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة : رقبته ممدودة منبسطة على الأرض ، وعيناه مغمضتان وأنفاسه متقطعة فيها حشرجة .

قال له الصبى : « عزيزى ذكر الإوز ، حاول أن تأخذ جرعة من ماء البحيرة على بعد خطوتين منك » .

لكن ذكر الإوز ظل ساكنًا بغير حراك .

لقد كان نلز قاسيًا يقينًا مع كل الحيوانات ، ومع ذكر الإوز كذلك فى الأيام الماضية ، ولكنه الآن يشعر أنه السلوى والراحة الوحيدة التى بقيت له ، ويخشى تمامًا أن يفقده .

بدأ الصبى يدفعه ويجره ناحية الماء ، ولكن ذكر الإوز كان كبيرًا وثقيلاً ، وبدت المهمة صعبة وشاقة على الصبى . . ولكنه نجح أخيرًا .

غمس ذكر الإوز رأسه أولاً فى الماء ، وظل ساكنًا لحظة بدون حراك فى الطين ، ثم رفع رأسه و هزّه ليسقط الماء من على عينيه ، وأخذ طريقه فى الماء سابحًا وسط الأعشاب .

كان الإوز البرى يغطى البحيرة أمامه ، ولم ينتظر هذا الإوز ليبحث عن ذكر الإوز المسكين بل شق طريقه مباشرةً إلى الماء ، واستحم ، وتجمل ، ثم هاهو يرقد على الشاطىء يزدرد الأعشاب والنباتات المائية .

حالف ذكر الإوز الحظ ، ولمحت عينيه فرخ سمك . . التقطه على الفور ، وسبح عائدًا إلى الشاطىء ، حاملاً صيده الثمين بمنقاره ، وألقى به على الأرض أمام الصبى .

قال : « هذا تعبير عن شكرى لمساعدتك لى على النزول إلى الماء » .

كانت هذه هى أول مرة تطرق أذن الصبى كلمة ود صادقة يسمعها فى هذا اليوم . وأحس بسعادة غامرة ، حتى شعر بالرغبة فى أن يحتضن ذكر الإوز ، ويلقى بذراعيه حول رقبته . . ولكنه أحجم . . إلاّ أنه كان شاكرًا له أيضًا حديثه ، وظن فى أول الأمر أنه لن يستطيع تذوق السمك النىء ، ولكن لابد من المحاولة .

تحسس مُـدْيَتَهُ (المطواة) ذات الغمد ، ولحسن حظه وجدها معلقة فى الزر الخلفى لبنطلونه ، وإن أصبحت صغيرة جدًا فى حجم عود الثقاب . وأسعفته مطواته على تنظيف السمكة وتقشيرها . ولم يمضِ وقت طويل حتى التهمها .

بعد أن أشبع الصبى جوعه ؛ أحس ببعض الخجل ، لأنه أكل شيئًا نيئًا ، وقال فى نفسه : « واضح أننى لم أعد بشراً سويًا ، بل قزمًا حقيقيًا» .

وقف ذكر الإوز صامتًا إلى جانب نلز وهو يأكل طعامه . . وانتظر حتى التهم آخر قطعة ، وقال له بصوت هامس :

« الحقيقة ياصديقى أن سرب الإوز الذى صادفنا مغرور ومتكبر ، ويحتقر كل الطيور الأليفة الداجنة » .

قال الصبى : « نعم ، هذا ما لاحظته » .

ولكن أى نصر سأحققه لنفسى لو استطعت أن أتبعه حتى أرض بلاده وأثبت لهم أن الإوز الأليف ليس أقل منهم شأناً ، بل هو قادر على أن يأتى أفعالاً بطولية ؟!» .

رد الصبى فى تردد (آ . . آ . . آه ... نـ ... عم !) . لم يصدق الصبى أن ذكر الإوز قادر على ذلك ، ولكنه لايريد معارضته . ثم قال ذكر الاوز: «إننى على ما أظن لن أستطيع مواصلة الرحلة وحدى ، فهل لى أن أطلب مساعدتك ؟ » . وطبيعى أن نلز لم يكن يأمل إلاّ فى العودة إلى بيته بأسرع ما يمكن . . وأدهشه أنه لايدرى بماذا يجيب ، وأخيرًا قال : «ظننت أننا كنا أعداء » ، ولكن يبدو أن ذكر الإوز قد نسى هذا تمامًا ، لم يعد يذكر إلاّ أن الصبى أنقذ حياته .

قال الصبى : « أحسب أن خير ما ينبغى أن أفعله هو أن أعود إلى بيتى ، حيث أمى وأبى » .

أجاب ذكر الإوز : « أوه . . سأعود بك إليهما فى وقتٍ ما فى الخريف . . لن أتركك حتى أحط بك على عتبة داركم » .

رأى الصبى أنه لعل من الأوفق له أن يكون بعيدًا إلى حين عن أبويه ،

ولهذا لم يرفض الفكرة ، وكاد يعبر له عن موافقته ، لولا أنهما سمعا صوتًا عاليًا خلفهما . . كان صوت الإوز البرى خارجًا من البحيرة جماعة، ووقف يهتز ليسقط الماء من على جسمه . . ثم اصطف الإوز البرى فى طابور طويل . . الإوزة القائدة فى المقدمة ، والبقية خلفها .

ما إن وقع بصر ذكر الإوز الأبيض على سرب الإوز البرى ، حتى أحس بضيق شديد توقع أن يراه شبيهًا بالإوز الداجن ، فيشعر بالقربى نحوه ، ولكن الإوز البرى كان ضئيل الجسم ، وليس بينه إوزة واحدة بيضاء ، وكان كله رمادى اللون مع نثار من ريش بنى . وأحس ذكر الإوز بالخوف من نظراته . . فعيونه صفراء تبرق كأن لهبًا يكمن خلفها .

إذا كان ذكر الإوز قد تعلم أنه من اللائق أن يسير ببطء ، وفى حركة دائرية ، إلاّ أن هذه المخلوقات لا تمشى . . إنها تركض . وازداد هلعه وخوفه حين نظر إلى أقدامها . . إن أرجلها كبيرة ضخمة ، وباطن القدم مشقوق ممزق . . وواضح أن الإوز البرى لا يعنيه أين يضع أقدامه. حقًا إنه رشيق الجسم ، ولكن أقدامه تكشف عن أنه سرب برى وحشى .

لم يجد ذكر الإوز وقتًا كافيًا للتحدث إلى الصبى ، قبل أن يصل الإوز البرى إليهما ، واكتفى بأن همس قائلاً :

« تحدث سريعًا عن نفسك ، ولكن لا تقل لهم من أنت ! » .

عندما توقف الإوز البرى أمامهما ، حنى رقابه عدة مرات تحية إجلال واحترام ، وفعل ذكر الإوز مثله ، وزاد عنه بضع مرات ، وبعد أن انتهت مراسم الاستقبال ، قالت الإوزة القائدة زعيمة السرب : « أحسب الآن أننا سنسمع منك أى نوع من المخلوقات أنت » .

أجاب ذكر الإوز : « ليس عندى الكثير لأقوله عن نفسى . . فأنا ولدت فى الربيع الماضى فى سكانور ، وباعنى صاحبى فى الخريف للسيد (هولجرنلسون) ، ولا أزال أعيش هناك منذ ذلك الوقت » .

قالت زعيمة الإوز : « أعتقد أنك عاطل . . من أى حسب أو نسب تفخر به ، ولكن ماذا دعاك إلى التطاول و اللحاق بسرب الإوز البرى ؟ » .

قال ذكر الإوز : « ربما أردت أن أبين لكم أيها الإوز البرى أننا معشر الإوز الداجن نصلح لأن نفعل أشياء كثيرة مثلكم » .

قالت زعيمة الإوز البرى : « نعم سيكون جميلاً لو استطعت أن تبين لنا ذلك . لقد عرفنا مدى خبرتك فى الطيران ، ولكن أحسب أنك أكثر براعة وخبرة فى رياضات أخرى مثل : السباحة . . أليس كذلك ؟ .

سارع ذكر الإوز بالإجابة : « لا ، لا أستطيع أن أفاخر بذلك » ، وظهر له أن زعيمة الإوز البرى تفكر فى إبعاده ، أو قررت أن تعيده إلى وطنه ، ولهذا لم يعبأ كثيرًا بطريقة إجابته ، ثم أضاف قائلا : « لم أسبح أبدًا طوال حياتى لأبعد من دائرة بركة صغيرة » .

قالت زعيمة الإوز : « إذاً أظنك عَدّاء تجيد الجرى فى السباق !» .

فأجاب ذكر الإوز على نحو جعل الأمور تبدو أسوأ مما كانت عليه : « لم أر فى حياتى إوزًا داجنًا يعدو ، ولم أفعل أنا ذلك بنفسى أبدًا » .

أصبح ذكر الإوز الأبيض على يقين الآن من أن زعيمة الإوز البرى ستقول له إننا لن نصحبك معنا مهما كانت الظروف والأسباب ، ولكنه دهش كثيرًا حين سمعها تقول له : « إنك تجيب على أسئلتى فى شجاعة

نادرة . ومن له مثل شجاعتك ، جدير بأن يكون رفيق سفر ، حتى وإن كان جاهلاً فى بادىء الأمر . ما رأيك فى أن تبقى معنا يومين حتى نرى لأى مدى تصلح معنا ؟ » .

قال ذكر الإوز ، وقد أحس بسعادة غامرة : « هذا يلائمنى تمامًا » .

هنا أشارت زعيمة الإوز بمنقارها . . وقالت : « ولكن من هذا الذى تحمله معك ؟ . . إننى لم أر شيئًا كهذا من قبل ! » .

أجاب ذكر الإوز : « هذا رفيقى . كان طول حياته رفيقًا رؤوفًا بالإوز. سينفعنا كثيرًا لو اصطحبناه معنا فى رحلتنا » .

قالت الإوزة البرية : « نعم ، لعله يكون كذلك لإوزة داجنة أليفة . . بماذا تدعوه ؟ ما اسمه ؟ » .

تردد ذكر الإوز قليلاً . . ولم يدر أى إجابة تسعفه ، فهو لا يريد أن يكشف حقيقة أن للصبى اسما بشريًا . . قال :

« إن له أسماء عديدة » . وصمت قليلاً ، ثم عاود الحديث قائلاً : « آه ، اسمه توميتوت» .

سألت زعيمة الإوز : « هل ينتمى إلى عائلة الأقزام ؟ » .

سارع ذكر الإوز بالحديث ، محاولاً تجنب السؤال الأخير ، وقال :

« متى تذهبون إلى الفراش عادةً لتناموا أيها الإوز البرى ؟ . . فإن عينىّ تغفوان فى مثل هذه الساعة » .

كان واضحًا أن الإوزة القائدة التى كانت تتحدث إلى ذكر الإوز عجوزٌ جدًا . . كل ريشها أشهب ، خالٍ من أى خيوط سوداء ، والرأس

أضخم من سواها ، والساقان أكثر خشونة وغلظة ، والقدمان ممزقان ، والريش جاف يابس ، والكتفان مليئان بالعقد ، والرقبة هزيلة .

كل هذا كان من أثر السن والشيخوخة ، والعينان وحدهما لم يؤثر الزمن فيهما ، إذ يحدقان بشدة ، ويلمعان كأنهما عينا إوزة شابة أصغر سنّاً مما عداها .

استدارت فى شموخ وكبرياء ناحية ذكر الإوز ، وقالت : « .. اعلم أيها الذكر الداجن أننى (آكا) من كبينيكز ، والإوزة التى تحلق عن يمينى مباشرةً هى بوكس محاما سيجسور ، والتى تحلق عن يسارى مباشرةً هى كاكسى من نوجا . واعلم أيضا أن الإوزة الثانية من على اليمين هى كولمى من ساركت جاكو ، والثانية من على اليسار هى نلجا من شفا بافارا ، ويطير خلفهم فيزى من أوفكس جالخا وكيموس من سجانجلى ، واعلم أيضًا أن هذا الإوز جميعه وكذلك فراخ الإوز الستة التى تحلق فى ذيل السرب ـ ثلاثة عن يمين وثلاثة عن يسار ـ كلهم إوز الربى العالية والجبال الشامخة ، ومن أحسن وأفضل السلالات .

وحذار أن تظن أننا نسمح لأى مخلوق بأن يشاركنا حياتنا قبل أن يحدثنا أولاً عن أجداده الأُوَل ، ويعرفنا بأصله ، وحسبه ، ونسبه » .

وبينما كانت الإوزة آكا زعيمة السرب تتحدث على هذا النحو ، تقدم نلز إلى الأمام بخفة ونشاط وقوة .. فقد أحزنه أن ذكر الإوز تحدث عن نفسه بصورة عفوية ومرتجلة ، وكان يقدم إجابات ملتوية ، وأخذ يراوغ حين تعلق الحديث به هو ، وقال نلز : « لن أبالى ، ولن أخفى حقيقتى عنكم .. فأنا اسمى (نلز هولجرسون) . أنا ابن فلاح ، وكنت حتى

مطلع هذا النهار إنسانًا عاديًا بشرًا سويًا ، ولكن مع الصباح . . »، وصمت نلز ولم يكمل ، وما إن تلفظ بـ (كلمة) بشر ، حتى تراجعت زعيمة الإوز خطوات إلى الوراء مترنحة ، فى حين تراجع بعيدًا عنها بقية أفراد السرب . ومد كل الإوز رقابه وهسهس بصوتٍ غاضب .

وقالت الإوزة القائدة آكا : « لقد ارتبت فيك منذ أول لحظة وقع بصرى فيها عليك هنا فوق الشاطىء . .

والآن عليك أن ترحل من هنا فورًا . . نحن لا نسمح بوجود البشر بيننا » .

فكر قليلاً ذكر الإوز ، وتدبر أمره ، ثم قال : « لا يليق بك أيها الإوز البرى أن تخشى كائنًا صغيرًا جدًا كهذا ، ولننتظر إلى الغد ، فسوف يحل بطبيعة الحال عائدًا إلى وطنه . . وأنا على يقين من أنكم ستتركونه يبيت ليلته معنا . . فليس فينا من يرضى بأن يهيم مخلوق بائس صغير كهذا على وجهه فى ظلمة الليل بين الثعالب وأبناء آوى » .

اقتربت زعيمة الإوز بضع خطوات ، ولكن بدا واضحًا أنها لا تستطيع السيطرة على مخاوفها . وقالت : « تعلمت منذ صغرى أن أخشى كل ما هو فى صورة البشر ، صغيرًا كان أم كبيرًا . ولكن إذا كنت مسئولاً عنه ، وتقسم بكل الأيمان الإوزية المقدسة بأنه لن يمسنا بأذى فإن له أن يبيت ليلته معنا ، ولكن لا أظن أن هذا المكان مناسب للمبيت لنا وله ، وبهذا . . فإننى أعتزم أن نجثم ونبيت فوق الثلج المتكسر هناك » .

ظنت زعيمة الإوز أن ذكر الإوز الأبيض سيتردد كثيرًا حين يسمع كلامها هذا إلاّ أن شيئًا من هذا لم يحدث ، إذ قال : « تعجبنى حكمتك

فى اختيار مكان المبيت الآمن » . لم تعلق الإوزة القائدة ، ولكن قالت فى حسم :

« أنت مسئول عن عودة هذا الكائن الصغير إلى وطنه غدًا » .

أجاب ذكر الإوز : « إذن سيكون لزامًا علىّ أنا أيضًا أن أترككم وأعود إلى وطنى ، فقد وعدته بألاّ أتركه وحده » .

قالت زعيمة الإوز : « أنت حر فى أن تطير إلى حيث تريد » . وما إن انتهت زعيمة الإوز من حديثها هذا ، حتى بسطت جناحيها ورفت بهما ، ثم حلقت وطارت ناحية الثلج ، وتبعها إوز السرب ، الواحدة بعد الأخرى .

حزن نلز حزنا شديدًا حين تصور أن رحلته إلى لايلاند لم تتم . . كما أحس بالخوف أيضًا من البرد القارص الذى ينتظره فى مكان مبيته ، وقال : « ستسير الأمور من سيىء إلى أسوا . . هانحن فى أول مكان نبيت فيه سنتجمد فوق الثلج حتى الموت» .

لكن ذكر الإوز بدا سعيدًا مبتهجًا ، وقال : « لا خطر هناك . ليس عليك إلاّ أن تسرع من فضلك . . هيا نجمع سويًا بعض العشب والقش قدر ما نستطيع ونحمله معنا » .

جمع نلز قدرًا كبيرًا من العشب الجاف . احتضنه بين ذراعيه ، ثم حمله ذكر الإوز بمنقاره من طرف قميصه ، ورفعه إلى أعلى ، ثم طار ناحية الثلج ، حيث كان الإوز البرى غارقًا فى نومه ، وقد دست كل إوزة منقارها تحت جناحيها .

هبط ذكر الإوز فوق الثلج ، وقال لرفيقه نلز :

« الآن افرش العشب وابسطه فوق الثلج ، حتى نجد شيئًا نقف عليه، ويقينا من التجمد . أنت تساعدنى وأنا أساعدك ، وليكن كلٌ منا عونًا لرفيقه » .

فعل الصبى كل ماقاله له ذكر الإوز ، وبعد أن فرغ من مهمته ، التقطه ذكر الإوز بمنقاره ، ورفعه ثانية من طرف القميص، ودسه تحت جناحه . ثم قال له وهو يغطيه بجناحه : « أظنك ستنعم بدفء لذيذ تحت جناحى » .

أخفى نلز نفسه جيدًا تحت جناح الإوز ، والتصق بجسمه ، وأحس بالدفء والراحة ، حتى إنه لم يرد على حديث رفيقه . لقد كان متعبًا . . وفى أقل من طرفة عين راح فى نوم عميق !

إنها الحقيقة : إن الثلج خادع ، غدار دائمًا ، ولا يوثق به . . ففى منتصف الليل تحركت قطع الثلج المفكك فى بحيرة فومت ، وتنقلت هنا وهناك ، حتى لامست إحدى زواياه الشاطىء . وحدث فى هذه اللحظة أن السيد (سمر) الثعلب الذى يعيش آنذاك على الشاطىء الشرقى للبحيرة تطلع ببصره ، ووقعت عيناه على هذه الزاوية ، بينما كان فى جولة صيده المعتادة فى هذه الليلة . كان السيد ثعلب قد رأى الإوز البرى فى ساعة مبكرة من هذا المساء ، ولم يكن يأمل فى الحصول على واحدة ، ولكن الآن حانت له الفرصة وأتته الشجاعة ، وانطلق ناحية الثلج .

حين أصبح الثعلب قريبًا جدًا من الإوز ، حك مخالبه فى الثلج ، فاستيقظ الإوز ، وضرب بأجنحته فى الهواء ، وتأهب للطيران ، ولكن

الثعلب كان أسرع منه . واندفع نحو الإوز كأنه قذيفة وأمسك بجناح إوزة بين فكيه ، وأسرع يعدو عائدًا إلى اليابسة ..

لكن الإوز البرى لم يكن وحده هذه الليلة فوق الثلج ، بل كان معه كائنًا بشريًا ، حتى وإن كان ضئيلاً .

هب الصبى من نومه عندما بسط الإوز أجنحته وسقط فوق الثلج ، ثم جلس فى مكانه مذهولاً يحدق بعينيه . لم يدرك شيئًا عن الضجة الحادثة حوله ، ولم يعرف أسبابها ولا حقيقتها ، حتى لمح كلبًا صغيرًا قصير القدمين يعدو فوق الثلج وفى فمه إوزة .

فى غمضة عين كان الصبى يعدو خلف الثعلب الذى تصوره كلبًا ، ليحاول انتزاع الإوزة منه ، وقد سمع ذكر الإوز الأبيض يناديه قائلاً :

«حذار ... حذار ياتوميتوت » . لكن الصبى قال فى نفسه : « إن مثل هذا الثعلب القزم ليس بالشىء الذى يخشاه ، فاندفع يعدو وراءه » .

سمعت الإوزة البرية ـ التى يجرها الثعلب بفكيه ـ قعقعة وقع أقدام الحذاء الخشبى الذى يضعه الصبى فى قدميه وهو يعدو فوق الثلج ، ولكنها لم تصدق أذنيها .

قالت فى نفسها وهى مندهشة متعجبة : « ترى هل يظن هذا الصبى القزم أنه قادر على انتزاعى وتخليصى من الثعلب ؟! » . وعلى الرغم من بؤسها ، كادت أن تضحك .. إذ تصورت أن أول شىء سيصيب الصبى هو سقوطه داخل أحد الشقوق الواسعة بين قطع الثلج !

على الرغم من عتمة الليل الحالكة السواد ، استطاع الصبى أن يميز كل الشقوق والثقوب ، ويقفز فوقها فى جرأة وشجاعة .. فقد كانت له

عينا قزم ، تبصر الأشياء بوضوح فى ظلمة الليل ، تمامًا مثلما تبصرها فى ضوء النهار .

عبر الثعلب إلى الشاطىء . وبينما كان يشق طريقه صاعدًا إلى الضفة صاح به الصبى : « أسقط الإوزة من فمك أيها اللص الجبان » . . لم يدرك الثعلب من يناديه ، ولم يشأ أن يضيع وقته سدى فى التلفت حوله بحثًا عن هذا الشىء ، بل سارع يفسح من خطوه .

انطلق الثعلب مباشرةً ، قاصدًا غابة كثيفة من أشجار الزان ، والصبى يعدو فى أثره ، غير مبالٍ بالأخطار التى تنتظره ، بل على العكس . . كان كل ما يشغل باله ، هو تلك الطريقة الساخرة والمهينة التى استقبله بها الإوز البرى فى ذلك المساء ، وفكر فى أن يلقن الإوز البرى درسًا ، يبين له أن الكائن البشرى شىء أرقى من كل ماعداه من الكائنات .

صاح الصبى مرة ، وثانية ، وثالثة ، يطالب الثعلب الذى تصوره كلبًا أن يخلى سبيل فريسته ، قائلاً : « أى نوع من الكلاب أنت ، حتى تستطيع أن تسرق إوزة بأكملها ، ألا تشعر بالخجل من نفسك ؟ ألقها من فمك حالاً ، وإلاّ سألقنك درسًا لن تنساه ، وسترى الهزيمة النكراء التى تنتظرك . قلت لك ألقها من فمك ، وإلاّ سأخبر سيدك عن سلوكك الشائن» .

حين رأى الثعلب أن الصبى أخطأه ، وظنه كلبًا مفترسًا ، سرّه كثيرًا هذا الخطأ ، وضحك ، حتى كادت الإوزة تسقط من فمه . . فقد كان الثعلب لصًا سلابًا نهابًا ، لا يقنع بصيد الفئران والحمام فى الحقول ، بل كان يغامر بالسطو على المزارع ، ليسرق الدجاج والإوز ، وهو يعرف جيدًا أن الكل يخشاه فى هذا الحى ، ولم يسمع عن شىء أحمق معتوه كهذا طول حياته ومن نعومة أظفاره .

ضاعف الصبى من سرعته وهو يعدو ، حتى تراءت له أشجار الزان، وكأنها تجرى وراءه .. واقترب من الثعلب ، وأخيرًا لحق به ، وأمسك بذيله، وصاح وقد تشبث به ، وإن عجز عن أن يوقفه : « الآن لابد أن آخذ الإوزة منك » .

جذب الثعلب الصبى خلفه وهو يعدو مسرعًا ، حتى تطايرت أوراق الشجر الجافة الملقاة على الأرض من حوله .

بدأ الثعلب يدرك أن المخلوق الذى يطارده ليس خطرًا ، ولا هو يقدر على الإيذاء .. فتوقف عن العدو لحظة ، ووضع الإوزة على الأرض، ثم داسها بقدميه الأماميتين ، حتى لا تفلت وتطير ، وأوشك أن يقضم رأسها ، بيد أنه لم يستطع أن يقاوم رغبته فى إغاظة الصبى ، والسخرية منه قليلاً ، فقال له : « هيا أسرع ، واشكونى لسيدى ، لأننى سأضع الإوزة بين أسنانى وأعض عليها حتى تموت » .

لكن الصبى تملكته الدهشة يقينًا حين أبصر ذلك الأنف البارز ، وسمع ذلك الصوت الأجش الغاضب الصادر عن (الكلب) الذى تصوره وجرى وراءه .. يتعقبه ويطارده .. وتملكه الغضب ، لأن الثعلب يهزأ به ويسخر منه ، ويؤكد له أنه لا يخافه .

أحكم الصبى قبضته على الذيل ، واعتمد بظهره على جذع شجرة زان ، وما إن فتح الثعلب فمه، وباعد بين فكيه ليقضم رقبة الإوزة ، حتى جذب الصبى ذيل الثعلب بكل قوته . وأصاب الثعلب ذهول ، إذ ترك نفسه هكذا يتراجع إلى الخلف خطوتين ، وطارت الإوزة البرية وأفلتت منه، ورفرفت بجناحيها ، وارتفعت إلى أعلى ضعيفة متثاقلة .. فقد كان أحد جناحيها جريحًا ، حتى إنها لم تقو على استخدامه . هذا .. فضلاً عن

أنها لا تبصر في الظلام . . فهامت كالعمياء في الغابة ، عاجزةً بلا حول ولاقوة . ولهذا . . لم تكن قادرة على مساعدة نلز ، وطارت تتحسس سبيلها بين فروع الأشجار ، حتى هبطت فوق البحيرة ثانية .

اندفع الثعلب نحو الصبى ، وقال بصوت غاضب هائج : « إذا أفْلَتَّ منى هذه المرة ، فلن تفلت مرة أخرى » .

قال الصبى ـ الذى كان فى أسعد لحظاته ، لأنه أنقذ الإوزة : «لاتصدق نفسك . . » وتشبث بذيل الثعلب ، وتأرجح معه يمينًا وشمالاً، والثعلب يحاول أن يمسك به .

شهدت أشجار الغابة تلك الرقصة ، فى الوقت الذى كانت فيه أوراق الأشجار الجافة تتطاير من حولها . أخذ الثعلب يلف حول نفسه دورات دورات ، وذيله يلف أيضا ، وكأنه يطارده . . وبينما الصبى قابضٌ على الذيل بكل قوته ، لم يستطع الثعلب حينئذٍ أن يمسك به .

أحس الصبى بالبهجة تملأ جوانحه لنجاحه ، حتى إنه بدأ يضحك ساخرًا من الثعلب ، ولكن الثعلب مثابرٌ دؤوب ، شأن كل الصيادين المحنكين . وبدأ الخوف يدب فى نفس نلز ، خشية أن يقع فى أسره آخر المطاف .

لمح الصبى شجرة زان صغيرة تمتد باسقة رشيقة ، كأنها عود سامق فى الهواء الطلق وتعلو فوق الفروع المتماسكة ، كأنها مظلة تغطيها الأشجار الكبيرة .

فى ومضة كالبرق ، ترك ذيل الثعلب ، وتسلق شجرة الزان ، فاشتد

هياج الثعلب ، وظل يواصل رقصته ، ويلف ويدور حول ذيله فترة من الزمن .

فقال له نلز : « كف عن رقصتك ، ولا تزعج نفسك بها » .

لم يستطع الثعلب تحمل مذلة فشله ، وعجزه عن الانتصار على هذا المخلوق الضئيل الصغير ، وظل تابعًا تحت الشجرة يراقبه .

جلس نلز سعيدًا ، ممتطيًا أحد فروع الشجرة ، ولكن شجرة الزان الصغيرة لا تعلو بفروعها لتصل إلى ارتفاع الأشجار الأخرى ، ولهذا . . لم يستطع الصبى القفز إلى شجرة أخرى ، كما أنه لا يجرؤ على النزول ثانية إلى الأرض .

أحس بالبرد والخدر يسرى فى جسمه ، حتى إنه لم يعد يشعر بيده وهى تمسك بفرع الشجرة ، وغالبه النعاس وهو يقاومه فى فزع ، فهو لايمكن أن يسلم نفسه للنوم ، خشية السقوط على الأرض .

أحس بالوحشة والكآبة عندما أدرك أنه سيقضى الليل بطوله على هذا النحو فى الغابة . . إنه لم يكن يدرك قبل ذلك معنى الليل . بدا له الآن وكأن العالم تجمد وتحجر ، ولن تدب فيه الحياة بعد ذلك أبدا .

طلع الفجر . . وسعد الصبى ، لأن كل شىء بدأ يعود طبيعيًا كما كان ، على الرغم من أن قشعريرة البرد أضحت أقسى مما كانت عليه أثناء الليل .

عندما أشرقت الشمس ، لم تكن صفراء ، بل حمراء ، فظنها نلز غاضبة ، وتعجب لغضبها ، دون أن يدرى سببا لذلك . . ربما غضبت لأن الليل طغى ببرده وكآبته على الأرض ، فى حين الشمس غائبة .

سقطت أشعة الشمس حزمًا وعناقيد ، لترى ماذا فعل الليل ،وإذا بكل شيء قد تورد خجلاً ، وكأنه يعانى إحساسًا بالذنب . السحب العالية فى السماء ، وشعب الزان والفروع الصغيرة المتداخلة المجدولة فى مظلة الغابة ، والصقيع الذى يغطى أوراق الأشجار الملقاة على الأرض . كل شيء تدافع فيه الدم ، وتوهج ، واحمرّ . . وتكاثفت أشعة الشمس أكثر وأكثر فى الفضاء ، وسرعان ماولّت مخاوف الليل ، وظهر إلى الوجود قدر هائل عجيب من الأحياء . . نقار الخشب الأسود يطرق بمنقاره جذع شجرة ، والسنجاب يفر مسرعًا من عشه حاملاً ثمة جوزًا ، ويجلس فوق فرع شجرة ليكسرها . وأقبل الزرزور محلقًا ، يحمل قشة بمنقاره ،فى حين يغرد عصفور آخر أعلى الشجرة . .

فى هذه اللحظة أدرك الصبى أن الشمس نادت على كل هذه المخلوقات الصغيرة قائلة : « استيقظوا الآن ، واخرجوا من أعشاشكم . . ها أنذا موجودة! . . الآن لكم أن تطمئنوا ، ولا تخشوا شيئًا » .

تردد صوت زعيمة الإوز البرى فوق البحيرة وهى تنادى رفيقاتها ، والكل يتهيأ للطيران . وسرعان ماحلقت الإوزات الأربع عشرة فوق الغابة . حاول الصبى أن ينادى الإوزات ، ولكنها حلقت عاليًا وارتفعت إلى عنان السماء ،فلم يبلغها صوته . . ربما ظنت أن الثعلب أجهز عليه وأكله ، فلم تبحث عنه .

حاول الصبى الاقتراب من الإوزات وهو يصيح فى أسى ، ولكن الشمس كانت هناك سعيدة أرجوانية اللون ، وتبث الشجاعة فى كل أنحاء الأرض . وقالت له الشمس : « لا تعبأ بشيء يانلز هلجرسون ، ولاتخف ، طالما أنا هنا ومعك » .

ظل كل شيء على ماهو عليه دون تغيير فى الغابة ، ولكن ما إن حل الضحى ، حتى حلقت إوزة وحدها تحت مظلة الشجرة الكثيفة المتشابكة ، تتحسس طريقها فى تردد بين الجذوع والفروع ، وهى تطير فى بطء شديد . وما إن رمقها الثعلب ، حتى ترك مكانه تحت شجرة الزان، وتسلل خلسة نحوها .

لم تحاول الإوزة البرية تجنب الثعلب ، بل حامت قريبة جدًا منه . وقفز الثعلب قفزة عالية نحوها ، ولكنه أخطأها ، وانطلقت الإوزة فى طريقها ناحية البحيرة .

لم يمض وقت طويل ، حتى أقبلت إوزة أخرى محلقة فى الهواء ، واتخذت نفس الطريق أول الأمر ، وظلت تحلق على ارتفاع منخفض ، وببطء شديد ، وحومت هى الأخرى بالقرب من الثعلب ، فقفز قفزته العالية نحوها ، حتى إن أطراف أذنيه لامست قدميها ، إلاّ أنها هى الأخرى أفلتت منه ، دون أن يمسها أذى ، وانطلقت صامتةً كأنها شبح آخذةً طريقها إلى البحيرة .

ومضت لحظات ، ثم أقبلت إوزة برية ثالثة ، ظلت هى الأخرى تحلق ببطء وعلى ارتفاع منخفض ، وبدا أن من العسير عليها أن تشق طريقها بين فروع الشجر .

وقفز الثعلب قفزة قوية . ولم يكن بينه وبينها غير قيد شعره ، وكاد يمسك بها ، ولكن الإوزة ناورت ، وعرفت كيف تنقذ نفسها .

ولم تكد تختفى ، حتى ظهرت إوزة رابعة . . أخذت تحلق وتطير ببطء شديد ، لا تكشف عن حذق أو براعة ، حتى ظن الثعلب أنها فريسة

سهلة ، ولكنه بات يخشى الفشل ، وقرر أن يتركها تمضى إلى حال سبيلها . وأخذت طريق رفيقاتها ، ولكنها لم تكد تحلق فوق رأسه تمامًا ، حتى غاصت فجأة ، وهبطت نحوه ، مما أغراه بالقفز ليمسك بها . . وقفز بالفعل قفزة عالية حتى لمسها بمخالبه ، إلاّ أنها دفعت نفسها بقوة ـ وفى لمح البصر ـ إلى الجانب الآخر ، وأنقذت حياته .

قبل أن يكف الثعلب عن اللهاث ، أقبلت ثلاث إوزات يحلقن فى صف ، فقفز الثعلب قفزات عالية نحوهن ، ولكنه أخفق فى الإمساك بأىٍّ منهن .

وبعدهن أقبلت خمس إوزات أخريات ، ولكنهن طرن أفضل من سابقتهن . وعلى الرغم مما بدا من أنهن حاولن خداع الثعلب وإغرائه على القفز ، إلاّ أنه قاوم الإغراء . . ومضت فترة غير قصيرة ، ثم أقبلت إوزة منفردة . . كانت هذه الثالثة عشرة ، وكانت هذه الإوزة عجوزًا ، لأن ريشها كله رمادى اللون لا تزينه أى نقطة سوداء على جسمها .

بدت وكأنها لا تستخدم إحدى جناحيها جيدًا ، ولكنها كانت تطير منهكة ، منحنية ، حتى لتكاد تلامس الأرض . . لم يكتف الثعلب بالقفز عاليًا نحوها ، بل تعقبها وهو يعدو ويقفز طوال طريقه حتى البحيرة . . لكنه هذه المرة أيضًا لم يَجْنِ شيئًا من وراء محاولاته .

وأقبلت الإوزة الرابعة عشرة ، وبدت جميلة حسناء ، لأنها بيضاء ، تلألأت أجنحتها وهى تتمايل وترف ، كأنها ضوء يسرى وسط ظلام الغابة . وما إن لمحها الثعلب ، حتى استجمع كل قواه وشجاعته ، وقفز قفزة عالية ، بيد أن الإوزة البيضاء طارت وأفلتت منه مثل الأخريات ، دون أن يمسها أذى .

ساد الهدوء لحظة تحت الأشجار ، وبدا الجو وكأن كل قطيع الإوز البرى قد مر ، ورحل .

فجأة . . تذكر الثعلب أسيره، فرفع بصره ناحية شجرة الزان الصغيرة؛ وحدث ماتوقعه . . اختفى الصبى .

لكن لم يكن لدى الثعلب وقت طويل للتفكير فيه ، إذ أقبلت الإوزة الأولى عائدة مرة أخرى من البحيرة ، وحلقت ببطء تحت الأشجار . وعلى الرغم من حظه التعس ، راوده إحساس بالسعادة لعودتها ، واندفع كالسهم وراءها ، وقفز نحوها قفزة عالية ، ولكنه تعجل أمره حيث كان أسرع مما يجب ؛ فلم يكن لديه وقت كاف ليصوب جيدًا نحو هدفه .

أقبلت الإوزة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة . . وهكذا حتى اكتمل الصف فى نهايته بالإوزة الرمادية العجوز ، والإوزة البيضاء الكبيرة .

حلقت الإوزات كلها على ارتفاع منخفض ، وطارت ببطء شديد وكأنها تتحداه وتدعوه ليمسك بها . . جرى الثعلب خلفها ليقفز عاليًا عدة أمتار ، ولكنه أخفق ، ولم يمسك بأىٍّ منها .

كان هذا أشد الأيام التى عاشها وعاناها الثعلب . وواصل الإوز البرى رحلته فوق رأسه ، وأخذ يعاود رحلته ويكررها جيئة وذهابا .

إوز عظيم رائع . . اقتات على حبوب الحقول، حتى سمن ، ويقضى يومه يحوم بين الأشجار ، وهاهو قريب منه ، يكاد يلتصق به ، بل لمسه عدة مرات ، ولكنه لم يهنأ !

رقد الثعلب فوق كومة من الأوراق الجافة مرهقًا ضعيفًا ، خائر القوى،

فاقد الحيلة ، يوشك أن تزهق أنفاسه ، ويسلم نفسه إلى الموت . . عند ذلك توقف الإوز عن إغاظته والسخرية به . وصاح الإوز كله بصوت واحد فى أذنيه : « الآن عرفت ياسيد ثعلب ماذا يحدث لكل من يتجرأ على الاقتراب من زعيمتنا آكا ... ثم تركه الإوز فى سلام ومضى » .

فى هذا الوقت تمامًا ، وقع فى بلدة (سيكان)حادث ، أثار كلامًا ولغطًا وحوارًا واسعًا ، حتى إنه انتقل إلى صفحات الجرائد . . ولكن الكثيرين ظنوه أسطورة وخرافة ، لأنهم عجزوا عن تفسيره .

وإليكم قصة ماحدث . . أسر بعض الفلاحين سنجابًا فى أجمة البندق التى تنمو أشجارها على شواطىء بحيرة فومب ، وحملوه معهم إلى بيت ريفى قريب . ابتهج كل من فى القرية بهذا المخلوق الجميل ذى الذيل الكث الناعم . . صاحب الحيلة والدهاء . . والعينين الفضوليتين فى ذكاء ، والأقدام الدقيقة الرقيقة النظيفة . رأوا فيه مادة ظريفة يتسلون بها طوال الصيف . . يشاهدون حركاته الرشيقة ، وطريقته الفريدة فى كسر وقزقزة البندق ، وألعابه المضحكة . . وسرعان ما أعدوا له قفصًا ، كان لسنجاب عجوز قديم بيت أخضر صغير وعجلة من السلك . وهيأ الفلاحون البيت الصغير ليكون حجرة طعام ونوم للسنجاب ، وله باب ونافذتان . ولهذا . . وضعوا فى داخله سريرًا من ورق الشجر وزجاجة لبن وبعض البندق .

وضعوا عجلة السلك على الطرف الآخر ليستخدمها السنجاب ملعبًا ، يجرى فيها ، ويتسلق ، ويتأرجح ، ويدور حولها .

ظن الناس أنهم هيأوا للسنجاب شيئًا مريحًا ، ولكنهم دهشوا للغاية ، إذ لم يبد على السنجاب الارتياح والرضا ، بل على العكس . . قبع بعيدًا فى

أحد الأركان يائسًا مكتئبًا ، وبين الحين والآخر تصدر عنه صرخة حادة . . لم يلمس السنجاب الطعام ، ولم يحاول الاقتراب منه ، ولم يأبه بالعجلة التى ظنوا أنه سيبتهج بها ويتأرجح عليها . وقال الفلاحون : لعله خائف . . غدًا يشعر بالألفة ؛ فيقبل على الطعام واللعب .

فى هذه الأثناء ، كان نساء القرية يعدون العدة لوليمة ، احتفالاً بأحد الأعياد ، وحدث أن كن منهمكات فى إعداد الخبيز ، يوم أن أسر الفلاحون السنجاب ، ولكن يبدو أن صادفهم حظ سيىء فى ذلك اليوم : إما أن العجين لم يختمر ، أو أنهن أبطأن فى عملهن . . ذلك لأنهن تأخرن فى إنجاز شئونهن حتى ساعة متأخرة من النهار ، وإلى أن دخل الليل .

طبيعى أن حدثت إثارة واسعة النطاق ، وضجة وصخب داخل المطبخ . لعل أحدًا هناك لم يكن يفكر فى شىء يتعلق بالسنجاب ، أو يتساءل أو يعجب لحاله .

لكن كانت هناك جدة عجوز بلغت من السن عتيًا ، بحيث أقعدها العجز عن مساعدة النسوة فى أعمال الخبيز ، ولكنها لم تستسغ فكرة ابتعادها عن المشاركة فى أى شىء . وجلست مكتئبة محزونة ، ولهذا لم تدخل إلى فراشها لتنام ، بل قنعت بالقعود إلى جوار نافذة حجرة الاستقبال ، تطل منها على الحياة خارجها .

فتحت النسوة باب المطبخ ليخفف من حدة سخونة الجو ، وانسل منه شعاع ضوء ، فاض ضوؤه على أرض الفناء ، مما ساعد العجوز على أن ترى بوضوح كل الشقوق والثقوب التى تتخلل طلاء الحائط المقابل لها . . وأبصرت كذلك قفص السنجاب الذى يسقط عليه شعاع الضوء مباشرة ،

ولاحظت كيف أن السنجاب قضى ليلته يجرى من غرفة نومه إلى العجلة ، ومن العجلة إلى غرفة النوم ، دون أن يهدأ ، أو يتوقف لحظة .

ظنت أنها حالة غريبة من القلق ألمت بالحيوان . . ولكنها أيقنت بطبيعة الحال أن الضوء الشديد سبّب له الأرق .

وسقط شعاع الضوء كذلك على مدخل واسع مسقوف لعربة ، يقع بين حظيرة البقر والإصطبل . وحين انزاحت ظلمة الليل لمحت الجدة العجوز مخلوقًا لا يتجاوز حجم اليد يتسلل فى حذر عبر البوابة ، كان يرتدى سروالاً جلديًا وحذاءً خشبيًا شأن العمال . . أدركت العجوز على الفور أنه قزم ، ولم يعترها أى خوف ، ولو للحظة واحدة . . لقد سمعت دائمًا أن مثل هذا القزم يعيش فى مكان ما ، قريب من هنا ، على الرغم من أنها لم تره أبدًا . هذا . . فضلاً عن إيمانها اليقينى بأن القزم يجلب الحظ حيثما يحل أو يظهر .

ما إن دلف القزم إلى الفناء المغطى بالحجر ، حتى اتجه مباشرةً إلى قفص السنجاب . رأى القفص عاليًا ، يتعذر عليه بلوغه ؛ فذهب حيث أحضر عصا من المخزن ، وأسند طرفها العلوى إلى القفص ، وتسلق فوق العصا على نحو ما يفعل البحّار حين يتسلق الحبل . . وبعد أن وصل إلى القفص ، هز باب البيت الأخضر الصغير ، كأنه يريد أن يدفعه ليفتحه . وظلت الجدة العجوز مكانها دون حراك ، فهى تعلم أن الأطفال وضعوا قفلاً على الباب ، خشية أن يحاول أبناء الجيران سرقة السنجاب . . ورأت المرأة العجوز عجبًا . . ذلك أن الصبى القزم بعد أن أخفق وعجز عن فتح الباب ، خرج السنجاب إلى حيث العجلة السلك ، والتقى الاثنان هناك ، عقدا اجتماعا ، أنصت الصبى إلى كل ماقاله له الحيوان السجين . . وبعدها انزلق

هابطًا فوق العصا وانسل مسرعًا عبر بوابة العربة .

لم تتوقع المرأة العجوز أن يعود القزم ليفعل أكثر مما فعل فى تلك الليلة، ولكنها على الرغم من هذا . . قبعت إلى جوار النافذة . ولم تمض غير دقائق قليلة ، حتى عاد ثانية . . عاد هذه المرة مسرعًا ، حتى خيل إليها أن قدميه لاتكادان تلامسان الأرض واندفع على التو ناحية قفص السنجاب . رأته المرأة العجوز بعينيها حادّتى البصر . . رأته يحمل شيئًا بين يديه ، إلاّ أنها لم تتخيل مايحمله . وضع مايحمله فى يساره فوق رصيف الفناء ، وإن كان قد أخذ ماحمله فى يمينه إلى القفص . ورفس بحذائه الخشبى النافذة الصغيرة بقوة ، وكسر الزجاج . . ودس مايحمله فى يمينه إلى داخل القفص، حيث أخذه السنجاب .

انزلق هابطا ثانيةً ، ورفع الشىء الذى سبق أن وضعه على الأرض ، وحمله بين يديه ، وتسلق عائدًا إلى القفص . وبعد أن فرغ من مهمته ، فَرَّ مسرعًا ، حتى إن العجوز لم تستطع متابعته بعينيها .

لكن المرأة العجوز لم تطاوعها نفسها ـ هذه المرة ـ لتظل ساكنة فى مكانها داخل الكوخ ، فخرجت فى بطء شديد متجهة إلى الفناء الخلفى ، وتورات فى ظل طلمبة المياه منتظرة عودة القزم . وكان هناك غيرها رآه مثلها كقط البيت الذى اشتد عجبه به ، وتلفت حوله فى انتظاره . . خلسة فى خبث ودهاء ، ووقف لصق الحائط على بعد خطوتين من شعاع الضوء . . وقف كلاهما ينتظر ، وطال انتظارهما فى صمت وصبر ، على الرغم من برودة شهر مارس القارصة . وتسلل اليأس إلى نفس المرأة العجوز، ولم تكد تفكر فى العودة والدخول إلى كوخها ، حتى سمعت طقطقة فوق الرصيف ، فأبصرت

هذا المخلوق الصغير القزم يركض عائدا وهو يحمل شيئًا فى كل يد من يديه ، مثلما فعل فى المرة السابقة . . كان ما يحمله بين يديه يتلوى ويصرخ صرخات حادة . وهنا لمعت فكرة فى ذهن الجدة العجوز ، وأدركت أن القزم أسرع عائدًا إلى أجمة أشجار البندق ، وأحضر أطفال السنجاب الأم ، وهم صغار رضع ، حملهم إليها ، حتى لايموتوا جوعا .

ظلت الجدة العجوز فى مكانها جامدة بغير حراك ، حتى لا تثير قلقه ، حيث وضع القزم واحدًا على الأرض ، لكى يتمكن من التسلق فوق العصا ، وحمل الآخر إلى أمه . وقبل أن يضع الأول ، لحظ عينى القط الأخضر تتلألأ بجواره . جمد فى مكانه حائرًا ، حاملاً فى كل يد طفلاً من أطفال السنجاب . تلفت حوله فى كل الاتجاهات . . ولمح الجدة العجوز . ولم يتردد لحظة ، بل تقدم نحوها ، باسطًا ذراعيه إلى أعلى قدر استطاعته لتحمل عنه واحدًا من الطفلين .

لم تشأ الجدة العجوز أن تثبت له أنها غير جديرة بثقته ، فانحنت وأمسكت بواحد من أطفال السنجاب ، وانتظرت حتى تسلق الصبى بالآخر ، ثم عاد ليسترد أمانته ممن ائتمنها ، ووضع ثقته فيها .

فى الصباح التالى اجتمع شمل أهل المزرعة لتناول الإفطار . . وكان من المستحيل على المرأة العجوز أن تمسك لسانها ، أو تحجم عن أن تقص عليهم ماشاهدته ليلة البارحة . . وقد ضحك الجميع من حديثها ، وقالوا : « إن هو إلاّ هذيان وأحلام عجوز » .

وألحت عليهم بأن يلقوا نظرة على قفص السنجاب ، فقاموا إليه ، ورأوا على الفراش المصنوع من ورق الشجر أربعة صغار رضع من أطفال

السنجاب نصف عراة ؛ عيونهم مغمضة نصف إغماضة ، لا يتجاوز عمرهم اليومين .

عندما رأى المزارع بعينيه الصغار الرضع ، قال :

« ليكن مايكون . . وعلى أى نحو حدث ، ولكن شيئًا واحدًا أنا على يقين منه ، وهو أننا فى هذه المزرعة تصرفنا على نحوٍ مخزٍ ، يثير خجلنا أمام الحيوانات والبشر على السواء » .

اتجه ناحية القفص ، وأخرج السنجاب الأم وأطفالها الرضع ، ووضعهم جميعًا فى حجر الجدة العجوز ، وقال لها :

« اذهبى بهم إلى أجمة أشجار البندق ، وأطلقى سراحهم هناك ثانية» .

هذه هى الحادثة التى أثارت لغطًا طويلاً ، وحوارًا واسعًا ، ولم تصدقها الغالبية من الناس ، لأنهم لا يدركون كيف حدث هذا ، ولا يعرفون له تفسيرًا ؟!

بعد يومين وقع حادث غريب آخر . . أقبل سرب من الإوز البرى محلقًا فى الصباح ، ثم حط وسط أحد المروج فى منطقة سيكان الشرقية ، التى لا تبعد كثيرًا عن القلعة . . ضم السرب ثلاث عشرة إوزة برية ذات اللون الرمادى العادى ، وذكر إوز أبيض ، حمل على ظهره صبيًا صغيرًا ضئيل الحجم ، يرتدى بنطلونًا من جلد أصفر وصديريًا أخضر وقلنسوة بيضاء مصنوعة من الصوف .

أضحى السرب الآن قريبًا جدًا من بحر البلطيق ، وكانت تربة المرج الذى حطت عليه الإوز تربة رملية ، كما هى عادة شواطىء البحار ، وتحيط بالمنطقة من كل الجهات غابات الضوء التى تقع على مرمى البصر .

بينما كان الإوز البرى يلتقط طعامه ، أقبل طفلان ، وسارا على طول حافة المرج . وسرعان ما تنبهت لهما الإوزة المسئولة عن الحراسة ، فرفعت نفسها فى الهواء ، وضربت بجناحيها ضربات صاخبة ، حتى يسمعها أفراد السرب ، ويدرك أن خطرًا يوشك أن يحيق بهم . طار كل الإوز البرى ، وحلق حينًا بعيدًا عن الأرض ، فيما عدا الإوزة البيضاء ، التى قنعت بالجرى على الأرض ، غير عابئة . . وحين رأى ذكر الإوز الأبيض رفاق رحلته يحلقون عاليًا ، رفع رأسه ، ومد رقبته ، ونادى عليهم قائلاً : « لا حاجة بكم للطيران بعيدًا خوفًا من هؤلاء . . إنهما ليسا سوى طفلين ، فلا تهتما بهما » .

كان الكائن الصغير الذى يمتطى ظهره منذ لحظات يجلس الآن فوق ربوة على مشارف الغابة يدق الأرض بعصا صغيرة بحثًا عن حبوب يقتات بها . اقترب الطفلان منه ، ولم تواته الجرأة على الجرى ناحية المرج لينقذ ذكر الإوز الأبيض . . واختبأ تحت ورقة جافة شوكية ، وأطلق فى الوقت ذاته صيحة نذير . ولم يشأ ذكر الإوز الأبيض أن يستسلم للخوف . . وظل يخطو طول الوقت على الأرض ، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى الطفلين ، ليرى فى أى اتجاه يسيران .

انحرف الطفلان فى هذه الأثناء عن الطريق، وسارا وسط الحقول ، ليقتربا أكثر فأكثر من ذكر الإوز . وعندما رفع رأسه أخيرًا لينظر إليهما ، كانا فوقه مباشرةً . أصابه الذهول ، وكأن صاعقة نزلت به ، وارتبك، حتى إنه نسى أنه يجيد الطيران . وحاول الإفلات من أيديهما عن طريق الجرى فحسب .

تبعه الطفلان يطاردانه ، حتى سقط فى حفرة ، وأمسكا به . قبض عليه أكبرهما ، حوطه بذراعه ، ضاغطًا عليه بقوة ، وانطلقا به .

رآهما نلز الهاجع تحت ورقة الشجر الشوكية ، وقفز نحوهما . كان يريد أن ينزع ذكر الإوز من بين أيديهما ، ولكنه تذكر ضآلة حجمه ، وضعف قوته ، وقلة حيلته ؛ فارتمى فوق الربوة ، يضرب الأرض بيديه .

صاح ذكر الإوز بكل عزمه يستغيث ويطلب النجدة :

« توميتوت ، هيا إنقذنى ، أوه . . توميتوت هيا إنقذنى » .

وغالب الصبى الضحك وسط حزنه ، وصرخ : « آه ـ نعم ؟؟ أنا الشخص المناسب لمساعدة كل من يقع فى ورطة ـ ها أنذا ! » .

تتبع ذكر الإوز ، وقال : « حقًا أنا عاجز عن مساعدته ، ولكن يجب على الأقل أن أعرف إلى أين سيذهبان به » .

بدأ الطفلان بداية سهلة . . واستطاع نلز أن يرقبهما ، ولم يجد صعوبة فى تعقبهما ببصره ، حتى بلغا جدول ماء . وكان لزامًا عليه أن يسير بمحاذاة حافة الجدول ، حتى صادف دكانًا ضيقًا يمكنه القفز فوقه .

ما إن قفز من فوق مجرى الماء ، حتى غاب الطفلان عن بصره ، واختفيا ، إلاّ أنه استطاع أن يرى آثار أقدامهما فوق ممر ضيق يفضى إلى الغابة ، فتعقب هذه الآثار .

وسرعان ماواجه تقاطع طرق . لابد أن الطفلين افترقا هنا ، إذ رأى آثار الأقدام موزعة على اتجاهين . خيل لنلز أن الأمل ضاع ، ثم لمح ريشة بيضاء ، أدرك أن ذكر الإوز أسقطها فى هذا الطريق ، ليحدد له الاتجاه .

واتخذ نلز السبيل الذى حدده له ذكر الإوز . . ليواصل بحثه عنه . تعقب الطفل فى كل أنحاء الغابة . ولم تقع عينيه على ذكر الإوز ، ولكن كلما أوشك أن يضل طريقه ، وجد ريشة بيضاء تهديه سواء السبيل .

واصل نلز تَعَقُّبه لآثار الريش ، واثقًا من أنه سيهتدى إلى صاحبه . وقاده الريش إلى خارج الغابة ، عبر مرجين خضراوين ، ثم سار فى طريق طويل انتهى به إلى بداية طريق واسع . وعندما بلغ نهاية هذا الطريق ، أبصر بناء من الطوب الأحمر ، يعلوه برجان ، وتزينه حواف مصقولة لامعة ، وبعض الزينات الأخرى التى تتلألأ وتعكس أضواء متألقة .

عرف الصبى أن هذه قلعة كبيرة ، وتصور أن مصير ذكر الإوز سيتحدد فى هذا المكان ، وقال فى نفسه : « لاريب فى أن الطفلين حملاه إلى داخل القلعة وباعاه هناك . . ومن يدرى . . لعله ذبيح الآن ! » .

لكنه لم يكن ليقنع بدون دليل أو برهان ، فاستجمع شجاعته ، وجرى صوب القلعة . لم يصادف أحدًا فى الطريق ، وأسعده ذلك . . إذ كان يخشى أن يراه آدمى .

كانت القلعة التى بلغها بناءً أثريًا قديمًا رائعًا فخمًا ، يتألف من أربعة أجنحة ، وفناء فى الوسط . . ويمتد من الجناح الشرقى طريق تظلله أقواس ، يفضى إلى الفناء . وقطع الصبى هذا الطريق عدوًا ، دون أى خوف أو تردد ، ولكنه حين بلغ غايته توقف ، ولم يعد يجرؤ على التقدم أكثر من ذلك . . ووقف ساكنًا يفكر مليًا فيما عساه أن يفعل الآن .

وقف هناك جامدًا ، إصبعه على أنفه ، غارقًا فى تفكيره . . وبينما هو كذلك ، سمع وقع أقدام خلفه . تلفت وراءه ، فرأى حشدًا من الناس

يقطعون الطريق سيرًا على الأقدام . . تسلل بسرعة ، واختبأ وراء برميل ماء كان قريبًا منه .

كان الحشد الذى ظهر أمامه حوالى عشرين شابًا من طلاب أحد المعاهد العالية ، وقد خرجوا فى جولة سياحية ، وصحب الطلاب واحدًا من معلميهم . وما إن بلغوا الطريق المظلل بالأقواس ، حتى استمهلهم، وطلب منهم الانتظار دقيقة . ودخل ليسأل إذا كان بالإمكان زيارة القلعة القديمة .

ظهر التعب واضحًا على الزائرين ، والعرق يتصبب منهم ، وكأنهم عائدون من رحلة طويلة . واشتد الظمأ بأحدهم ،فخرج من الصف متجهًا إلى برميل الماء ،وانحنى نحوه ليشرب . كان يحمل علبة من الصفيح ، مثل تلك التى يستعملها عالم النبات ، معلقة حول رقبته . رأى أنها ستعوقه، فألقى بها على الأرض . . سقط غطاؤها، وظهر بداخلها بضع زهرات من أزهار الربيع .

سقطت العلبة أمام نلز تمامًا . ولابد أنه أدرك أن هذه هى فرصته للدخول إلى هذا القصر ، واستكشاف ماحدث لرفيقه ذكر الإوز . وتسلل بسرعة إلى داخل العلبة ، وأخفى نفسه قدر استطاعته تحت أزهار شقائق النعمان .

رجع المعلم ، وقال إنه قد أذن لهم بدخول القلعة . قادهم أول الأمر بالقرب من الفناء ، وتوقف ليبدأ حديثه إليهم عن البناء الأثرى .

ولفت نظرهم إلى السلالات الأولى من البشر ، الذين استوطنوا هذا البلد، واضطروا إلى سكنى شعاب الجبل ، وكهوف الأرض ، وفى الخيام

المصنوعة من جلود الحيوانات ، وفى أكواخ صنعوها من أغصان الشجر . وأوضح محدثهم أن حقبه طويلة من الزمن مضت ، قبل أن يتعلموا كيف يبنون لأنفسهم أكواخا من جذوع الشجر . واستطرد فى حديثه ، موضحًا أن حقبة زمنية أخرى طويلة مضت لم تضطرهم فيها ظروف حياتهم إلى العمل والكد والنضال ، قبل أن ينتقلوا من سكنى المأوى المصنوع من كتل الخشب ذى الحجرة الواحدة إلى بناء قلعة تضم مائة غرفة ، مثل هذه القلعة، وقال :

« لقد مضى قرابة ثلاثمائة وخمسين سنة ، منذ أن بنى الأثرياء الأقوياء ذوى البأس والسلطان قلاعًا لأنفسهم ، تحاكى هذه القلعة . وكان واضحًا أن القلعة بنيت فى عصر انتشرت فيه الحروب ، وذاعت السرقات والنهب ، مما جعل الحياة فى البلدة حياة غير آمنة . . وأحاط بالقلعة خندق عميق مملوء بالماء ، وأقيم عبر هذا الخندق جسر يمكن رفعه برافعة ، ليقطع الطريق إليه . . وكان يعلو البوابة ، ولا يزال حتى اليوم برج مراقبة ، وتحيط بكل جوانب القلعة سلسلة من منصات الحراسة . . وعند الزوايا ترتفع أبراج ذات جدران سميكة . . ولكن القلعة ـ على الرغم من هذا ـ لم يتم تشييدها فى عصور الحروب البربرية ، لأن الذى شيدها حرص على أن تكون جميلة مزدانة برسوم وزخارف ، ولو ألقوا نظرة على المبنى الحجرى الضخم الصلب فى بلدة جليمنج ، الذى بنى منذ جيل واحد فقط ، لأدركوا على الفور أن صاحبه وبانيه جينز هوجرسن أولفستان لم يفكر إلاّ فى تشييد بناء ضخم قوى آمن ، ليكون بيتًا له ، دون أن يفكر أن يجعل منه مبنى جميلاً ومريحًا . ولو زاروا قلاعًا شيدت بعد ذلك بمائة عام، أو قرابة ذلك ، لتبين لهم أن الزمان غير الزمان . . فقد قلت الحروب ، إذ لم يعن أصحاب هذه القلاع بتزويدها

بعوامل التحصين والمنعة . . بل عنوا فقط بأن يهيئوا لأنفسهم بيوتًا ومنازل عظيمة رائعة فخمة لسكناها ».

تحدث المعلم بإفاضة وإسهاب ، بينما استبد القلق بنلز الذى يرقد حبيسًا داخل العلبة فى صمت وسكون ، لأن صاحب العلبة لم يراوده أدنى شك فيما يحمله طوال وقفته .

أخيرًا ، اتجه الفريق الزائر إلى داخل القلعة ، ولو أن نلز حاول أن يتحين فرصة للزحف خارجًا من العلبة ؛ لخاب أمله ، لأن الطالب ظل يحمله معه لا يفارقه ، وكان لزامًا على الصبى أن يصحبه فى زيارته لكل قاعات الحصن .

بدت له الجولة فاترة مملة ، خاصة أن المعلم اعتاد أن يتوقف بين دقيقة وأخرى ، ليوضح ويلقى دروسه .

فى إحدى القاعات ، رأى المعلم مدفأة قديمة ، فوقف أمامها ليتحدث عن الأنواع المختلفة من المدافىء التى استخدمت فى مختلف العصور . وأوضح أن أول مدفئة أقيمت داخل البيوت كانت كتلة حجر كبيرة منبسطة، توضع وسط الحجرة مع فتحه فى السقف تسمح بدخول الهواء . وبعد ذلك أضحت المدفأة عبارة عن موقد حجرى كبير ، بدون فتحة فى السقف ، وكانت تجعل الكوخ شديد الدفء ، ولكنها ملأته بالدخان والسواد . وعندما بنيت القلعة فبنسكوفل ، كان الناس قد أحرزوا تقدمًا كبيرًا ، وعرفوا صناعة المدفأة المفتوحة المتصلة بالهواء الخارجى ، عن طريق مدخنة واسعة ، يخرج منها الدخان ، ولكنها هى الأخرى كانت تطرد ـ من خلال المدخنة ـ جانبًا كبيرا من الدفء ، يتسرب فى الهواء .

إذا كان نلز قد عرف الضيق والملل ونفاد الصبر مرة فى حياته ، فإنه هذه المرة تلقن درسًا طيبًا فى معنى الصبر والجلد . . فلابد أن ساعةً كاملةً قد مضت وهو حبيس جامد بلا حراك !

فى القاعة التالية ، توقف المعلم أمام فراش قديم ، له ستائر فاخرة . . وشرع على الفور يتحدث عن الأسرة والفراش فى العصور القديمة .

لم يكن المعلم فى عجلة من أمره ، ولكنه لم يكن يعرف ـ بطبيعة الحال ـ أن كائنًا حيًا ضئيلاً بائسًا يرقد حبيسًا داخل علبة دارس علم النبات ولاينتظر شيئًا ، إلاّ أن ينتهى المعلم من محاضراته . وعندما دخلوا قاعة مغطاة بستائر مموهة ، أخذ يتحدث إليهم عن الناس ، وكيف اعتادوا منذ الزمان السحيق تغطية جدران وأسقف بيوتهم . . وما إن بلغ صورة قديمة لعائلة ، حتى شرع يحدثهم عن فوارق الأزياء ، ووصف لهم قاعات الطعام ، والعادات والتقاليد القديمة فى الاحتفال بعقد القران ، أو إقامة المآتم .

بعد ذلك . . تحدث المعلم قليلاً عن عظماء الرجال ـ والنساء ـ الذين عاشوا فى هذه القلعة ، وعن أجداد أسرة براه ، وأسرة بارنكو ، وكذلك عن كريستان أرنكو الذى قدم حصانه هدية للملك ، وعن مارجرينا اشبرج التى تزوج بها كجيل بارنكو ، والتى أدارت المقاطعة وهى أرملة لمدة ثلاثة وأربعين عاما .

تحدث بعد ذلك عن رجل المال والمصارف هاجرمان ، الذى كان ابن مزارع صغير ، وأثرى ثراءً كبيرًا ، حتى اشترى كل المقاطعة ، ثم عقب الحديث عن ستجبر فارد ، الذى قدم لشعب سيكان محاريث أجود لمساعدتهم على نبذ المحاريث الخشبية البالية المضحكة التى كان يصعب

جرها بثلاثة ثيران ضخمة .

ظل الصبى البائس ساكنًا بلا حراك طوال كل هذا . لقد أدرك الآن حقيقة شعور أبويه حين كان مشاغبًا مشغوفًا بإزعاجهم ، وأغلق ذات يوم باب المخزن على أمه وأبيه . . فقد مضت ساعات وساعات ، قبل أن ينتهى المعلم من حديثه .

أخيرًا ، خرج المعلم إلى الفناء ثانية . وهناك تحدث عن جهود البشرية المضنية التى لا تكل ، لتوفر لنفسها أسلحةً وملابس وبيوتًا وزينةً وزخارف . وقال : « إن قلعة قديمة مثل هذه القلعة ، استخدمها الناس علامة من علامات الطريق فى سفرهم . وهنا نستطيع أن نرى ما حققه الناس من تقدم على مدى ثلاثمائة وخمسين سنة خلت ، ونستطيع أن نقدر ـ بناء على رؤية صحيحة للأشياء ـ هل تقدم الإنسان ، أم تخلف منذ ذلك الزمان ؟! » .

لكن هذه المحاضرة فاتت الصبى ، لأن الطالب الذى يحمله أحس بالظمأ ثانية ، وتسلل إلى المطبخ ليطلب شربة ماء . والشىء المؤكد أن الصبى حين أدرك أنه فى المطبخ ، حاول أن يتلفت حوله ، بحثًا عن ذكر الإوز . حاول أن يتحرك من مكانه ، ولكنه حين فعل ذلك . . ضغط خطأ على العلبة ؛ فانفتح الغطاء فجأة . ونظرًا إلى أن علب تجارب الباحثين فى علم النبات تنفتح أغطيتها كثيرًا وفجأة ، فإن الطالب ظن أن الأمر مسألة عادية ؛ فلم يكترث بها ، وأعاد الغطاء مكانه .

لكن الطباخ سأله إذا كان يحمل حية داخل العلبة .

أجاب الطالب : « لا ، ليس معى سوى بعض النباتات » . وقال الطباخ : «إننا على يقين من أن شيئًا ما يتحرك داخل العلبة » . رفع الطالب

الغطاء ليبين للطباخ خطأ ظنه . . وقال : « انظر بنفسك . . هل . . » .

لم يكمل الطالب كلامه ، إذ لم يجرؤ نلز على البقاء أكثر من ذلك داخل العلبة . وفى قفزة واحدة ، نزل إلى الأرض ، واندفع خارجًا . لم يكن لدى العاملين فى المطبخ وقت لتبين حقيقة هذا الشىء الذى فر يعدو إلى الخارج ، ولكنهم أسرعوا وراءه ليتعقبوه ، على الرغم من ذلك .

كان المعلم لا يزال يتحدث ، حين قاطعته صرخات حادة ، أطلقها الخارجون من المطبخ فى هرج : (امسك . . امسك) . وهرع الشباب يتسابقون وراء الصبى الذى انسل هاربًا أسرع من فأر ، وحاولوا اعتراضه وحصاره عند البوابة ، ولكن لم يكن من السهل الإمساك بكائن صغير كهذا ، ولحسن حظه أفلت إلى الخارج .

لم يجرؤ نلز على الهرب ناحية الطريق العام المنبسط ، واتخذ اتجاها آخر. واندفع ناحية الحديقة فى الفناء الخلفى . وواصل الناس العدو خلفه ، يصرخون ويضحكون . وظل هذا المسكين يجرى ويجرى بكل ما أوتى من قوة ، ليختفى عن الأنظار .

لكنه يحس دائمًا أن الناس وراءه يتعقبونه !

وبينما كان مندفعًا فى الجرى بالقرب من كوخ أحد العمال ، سمع إوزة تصيح ، وأبصر بعض الزغب الأبيض فوق عتبة الباب . . هاهو أخيرًا ذكر الإوز الأبيض . . لقد سار قبل ذلك فى اتجاه خاطىء . . لم يعد يفكر فى خدم القصر ، ولا رجاله الذين يطاردونه ، بل تسلق درجات السلم . . ثم دخل إلى الدهليز .

لم يستطع السير إلى أبعد من ذلك ، لأن الباب كان مغلقًا . وسمع ذكر الإوز يصيح ويصرخ فى الداخل ، وهو عاجز عن فتح الباب ، واقترب مطاردوه أكثر فأكثر ، فى حين ذكر الإوز فى الداخل ينوح ويبكى بصورة مؤلمة . وأخيرًا ، استجمع الصبى كل شجاعته ، وقفز فوق الباب .

أطل إلى داخل الحجرة . . فرأى امرأة جالسة على الأرض وسط الحجرة ، وقد أحكمت قبضتها على ذكر الإوز ، فى محاولة لقص ريشه . . لقد كان طفلاها هما اللذان اختطفاه . . وهى لا تعتزم إيذاءه . لقد آثرت أن تبقيه مع إوز البيت ، ولكن رأت أن قص ريش أجنحته أفضل حتى لا يقوى على الطيران . أدرك ذكر الإوز المصير السيىء الذى ينتظره ، وظل يصرخ وينوح بكل قوته .

لحسن الحظ أن المرأة لم تكن قد بدأت بعد فى قص ريشه . لم يسقط منه غير ريشتين تحت المقص حين فتح نلز الباب ، ووقف عند عتبته . لم تر المرأة مخلوقًا كهذا فى حياتها . فزعت لرؤيته ، وأعماها الخوف والهلع ؛ فسقط المقص من يدها ، وشبكت يديها ، ونسيت أن تقبض على ذكر الإوز .

ما إن أحس ذكر الإوز بيديها ترتفع عنه ، وأنه حر ، حتى جرى بأسرع ما يمكنه ناحية الباب . لم يمهل نفسه حتى يقف ويتبين ماحدث . . ولكنه التقط نلز بمنقاره ، وحمله معه . . وبسط جناحيه فى الشرفة ، وحلق عاليًا فى الهواء ، ومسح برقبته فى دعة وحنان على الصبى ، وأجلسه فوق ظهره الناعم الأزغب .

وانطلقا بعيدًا عاليًا فى السماء ، فى الوقت الذى وقف الناس يحملقون بعيونهم وراءهما .

قضى الصبى سحابة نهاره نائماً فى عش سنجاب مهجور ، فى حين قضى الإوز البرى يومه يلعب مع الثعلب . واستيقظ قرب الماء ، يغالبه إحساس بالضيق والملل الشديدين . . ثم قال الصبى :

«حسناً . . الأفضل أن يعيدونى إلى بيتى الآن ، حتى يرانى أبى وأمى » .

تطلع ببصره إلى أعلى ، ورأى الإوز البرى يستحم فى بحيرة فومب ، غير عابىء به . . ولم تحدثه واحدة منهن عن مصيره فى رحلته معهن . وسرح بتفكيره ، وقال : « لعل الإوز البرى يظن أن ذكر الإوز الأبيض نال منه التعب والإرهاق ، ولم يعد قادراً على السفر ليعيدنى إلى بيتى » .

استيقظ الإوز فى اليوم التالى مع مطلع الفجر ، وقبل شروق الشمس ، وأضحى الصبى على يقين من أنه لابد أن يعود إلى بيته ، إلاّ أن شغفه الشديد للمعرفة ، وحبه للاستطلاع دفعاه هو وذكر الإوز الأبيض إلى مصاحبة الإوز البرى فى رحلة طيران الصباح .

لم يفهم الصبى سبب التأخير ، ولكنه ظن أن الإوز البرى عازف عن إرسال ذكر الإوز فى رحلة طويلة كهذه ، قبل أن يأكل ويمتلىء ، وليكن مايكون .

طار الإوز البرى فى رحلته فوق مقاطعة لوفيد ، الواقعة فى بقعة خضراء جميلة شرق البحيرة ، وتبدو جليلة مهيبة بقلعتها العظيمة ، وفنائها المنسق الذى تحيط به جدران منخفضة ومقاصر . . ولها حديقة عتيقة خضراء مورقة رقيقة ، تغطيها أشجار ، وفيها ينابيع .

يأسرك سحر أشجارها العجيبة ، وشجيراتها المشذبة وأعشابها الخضراء الممتدة كالبساط ، تتخللها أحواض زهور يانعة .

حلق الإوز البرى فوق المقاطعة فى الصباح الباكر ، ولم يكن بها إنسان يدب على الأرض . وبعد أن تأكد الإوز من خلوها من البشر ، هبط إلى جانب كوخ الكلب ، وصاح الإوز : « ياله من كوخ صغير ! ياله من كوخ صغير» .

هرع الكلب إلى الإوز على الفور ، وخرج من بيته غاضبًا مهتاجًا ونبح فى الهواء بأعلى صوته :

« أتسمون هذا كوخًا أيها المتشردون ؟! ، ألا ترونه قلعة عظيمة مبنية بالحجر؟ ! ألا تبصرون جمال شرفاته ، ورونق جدرانه ، وبديع نوافذه وأبوابه؟ هاو هاو هاو . ألا ترون أفنيته ؟ ! ألا تبصرون الحديقة الغناء ؟ ! ألا ترون بيوت النباتات الزجاجية ؟! هل عميتم عن التماثيل المرمرية ؟! . كل هذا ... وتسمونه كوخًا ؟! هل للأكواخ حدائق واسعة فسيحة بها أشجار زان ، وبندق ، وكستناء ، وحور ، وحلبات صيد ، وملاعب ، وأرائك ؟! . . هاو هاو هاو . أتسمون هذا كوخًا ؟! . هل سبق لكم أن رأيتم أكواخًا لها مبانٍ ملحقة بها كثيرة بمثل هذه الصورة ، فتبدو الصورة عن بعد كأنها قرية كاملة بمرافقها ؟! لابد أنكم عرفتم أكواخًا لها كنائسها الخاصة، وموظفوها ويضم زمامها مزارع ومرابض وقرى وأكواخ . . هاو . . هاو . . هاو . . وهل تسمون هذا كوخًا ؟! ، هذا الذى تسمونه كوخًا تدخل فى حيازته أغنى وأفخم ممتلكات سكان أيها المتسولون . إن أى قطعة أرض يقع عليها بصركم وأنتم فى أعلى قمة فوق السحاب ، إنما تدخل فى زمام هذا الكوخ . . هاو... هاو ... هاو » .

حاول الكلب أن يصرخ بكل هذا فى نفس واحد ، فى حين الإوز البرى

الإوز : « مالنا نراك غاضبًا هكذا ؟ نحن لم نسأل عن القلعة ، ولكن كنا نسأل فقط عن بيتك ياغبى ! » .

ضحك نلز عند سماعه هذه الدعابة ، ثم طاف بذهنه خاطر ، أحاله جادًّا ، وقال لنفسه :

« كم من الدعابات والأحداث المسلية سأسمعها لو قدر لى أن أصحب الإوز البرى فى كل أنحاء البلد ، على طول الطريق إلى لابلاند . . والآن ، وأنا أعانى مثل هذه الورطة ، فلا شك فى أن رحلة كهذه ستكون أفضل شىء يخفف عنى » .

طار الإوز البرى إلى أحد الحقول الواسعة شرق المقاطعة ليقتات على جذور النباتات ، وظل هناك لعدة ساعات. وفى هذه الأثناء . . تجول الصبى فى الحديقة الواسعة المحيطة بالحقل ، وصادفته بعض أشجار البندق ؛ فتطلع إليها ، عسى أن يكون بها بعض الثمار باقية منذ الخريف الماضى . . ولكن فكرة الرحلة ظلت تلح عليه طوال تجواله فى الحديقة ، وتصور الوقت الممتع البهيج الذى سيقضيه مع الإوز البرى. حقًا إنه سيجوع ويتجمد من البرد . وقد عانى مايكفيه من هذا ، ولكن مقابل ذلك أن يفلت من العمل والمذاكرة .

وبينما كان يتمشى فى الحديقة، أقبلت عليه الإوزة الرمادية زعيمة السرب، وسألته إن كان قد صادفه شىء يأكله . . فأجاب قائلا : « لا، لم أجد شيئا! »، فحاولت الزعيمة مساعدته ،غير أنها لم تجد أية فاكهة ، ولكنها اكتشفت بعض ثمار الورد البرى معلقة على أشجارها ، فتناولها الصبى وأكلها بشهية . . ولكنه تعجب : « ماذا عسى أن تقول أمه ، لو عرفت أنه يقتات الآن السمك النىء ، وثمار الورد البرى الجاف ؟ !» .

بعد أن اقتات الإوز البرى ، وملأ حوصلاته ، حلق عائدًا إلى البحيرة ، حيث لاعب بعضها بعضًا ، حتى حان وقت الغذاء .

تحدى الإوز البرى ذكر الإوز الأبيض أن يشاركه كل ألعابه ، إذ تسابقوا فى السباحة على صفحة البحيرة ، والجرى على الأرض ، والطيران فى السماء . حاول الذكر الداجن الأليف بكل مافى استطاعته ليتبارى معه ، ويثبت جدارته ولكن الإوز البرى النشط غلبه فى كل مرة . وكان نلز فى كل هذه المباريات جالسًا على ظهر ذكر الإوز الأبيض ، يحثه ويشجعه ، ويمزح مثلما يمزح الآخرون . كانوا يضحكون ويصرخون ويصيحون . والغريب أن أحدًا من سكان المقاطعة لم يلحظهم .

بعد أن تعب الإوز البرى من كثرة اللعب ، حلق ناحية الثلج ، واستراح هناك ساعتين ، وقضى فترة مابعد الظهيرة فى لعب جميل ، مثلما فعل فى الصباح والضحى : ساعتان للطعام أول الأمر ، ثم الاستحمام واللعب فى الماء قرب حافة الثلج حتى غربت الشمس ، ثم تأهب للنوم .

زحف الصبى إلى حيث ينام تحت جناح ذكر الإوز الأبيض وهو يقول لنفسه : « هذه هى الحياة التى تلائمنى . . ولكن أحسب أنهم سيرسلونى غدًا إلى بيتى ! » .

قبل أن ينام ، استلقى على ظهره يفكر ، ويقول لنفسه إنه ذهب مع الإوز البرى ، كى يفلت من العتاب والتوبيخ بسبب كسله . وسوف يكون حرًا طليقًا كل يوم ، ولن يشغله شىء سوى البحث عن شىء يأكله ، إلاّ أنه الآن لا يحتاج إلى طعام كثير . . ولابد أنه سيهتدى إلى وسيلة للحصول على مايكفيه .

وهكذا زين لنفسه صورة الحياة . . وما سوف يراه ، والمغامرات التى سيعيشها . . نعم ، ستكون حياة أخرى غير حياة التعب والنكد فى البيت .
وقال نلز فى نفسه : « لو أننى صاحبت الإوز البرى فى رحلاته وأسفاره ، فلن أكون بائسًا أبدًا ، لأننى أصبحت قزمًا مسحورًا » .

لم يكن نلز يخشى شيئًا غير عودته إلى بلده ، ولكن الإوز لم يحدثه عن العودة ، حتى فى يوم الأربعاء .

فقد مضى الأربعاء مثلما مضى الثلاثاء ، وبات الصبى أكثر اقتناعًا بالحياة البرية . . خيل إليه وكأنه يمتلك حديقه أو فيلا واسعة باتساع الغابة ، ولم يعد قلقًا للعودة إلى الكوخ الضيق القائم فوق رقعة صغيرة من الأرض فى بلده .

ذهب به الظن يوم الأربعاء أن الإوز البرى يرى إبقاءه معه ، إلاّ أن الأمل زايله يوم الخميس .

بدأ يوم الخميس مثلما تبدأ الأيام الأخرى . . اقتات الإوز على أعشاب المروج الخضراء الشاسعة ، وسعى الصبى إلى رزقه فى أنحاء الحديقة الواسعة . . وبعد قليل أقبلت عليه آكا ، وسألته إن كان قد عثر على شىء يأكله . . فأجاب بالنفى ، وبحثت معه ، حتى اهتدت إلى بعض أعشاب الكراوية الجافة التى تحتفظ بكل بذورها الصغيرة سليمة .

بعد أن فرغ من طعامه قالت له آكا إن من رأيها أنه تجول فى المتنزه على نحو طائش متهور ، فلم يكن حذرًا فى سعيه . . وسألته فى دهشة وتعجب ، إن كان يعرف كم عدد الأعداء ، الذين يلزم أن يأخذ حذره منهم ويتقيهم ، وهو الصغير الضيئل . . وهنا بدأت آكا تسرد عليه قائمة بأسمائهم .

قالت له : « اعلم أن من واجبك حيثما ذهبت فى الحديقة أن تحذر الثعلب . . وإذا بلغت شاطىء البحيرة ، فلا تنسى حيوان القندس . وإذا جلست فوق جدار من الحجر ، فتذكر ابن عرس الذى يزحف داخل أضيق الجحور . وإذا أردت أن ترقد وتنام فوق كومة من أوراق الأشجار ، فعليك أولاً أن تقلب فيها ، خشية أن تحوى بداخلها أفعى تقضى بياتها الشتوى . . وإذا خرجت إلى الحقول المنبسطة ، فلتكن عيناك يقظة تلمح الصقور والنسور وطيور الباز والعقاب التى تحوم فى الجو ، وقد ينقض عليك وأنت وسط شجيرات العليق طائر الباشق ، أو صقر ، أو عقعق ، أو غراب ، وهذه الطيور موجودة فى كل مكان ويجب ألآ تطمئن لها ، أو تثق فيها . وإذا آذنت الشمس بالمغيب ، وحل الغسق ، فافتح أذنيك جيدًا . وتصنت للبوم الضخم الذى يحلق ويرف بجناحيه فى صمت ، فلا تسمع لهما صوتا وينقض على فريسته قبل أن تدرك وجوده » .

حين سمع نلز أن أعداءه كثيرون ، ويتعقبونه ، ظن أن سبل الفرار والخلاص قد سدت أمامه جميعها .

لم يكن يخشى فكرة الموت ذاتها ، بل يكره أن يأكله وينهشه حيوان . لذلك . . سأل آكا عما ينبغى عليه أن يفعله ، ليقى نفسه من الوحوش البرية الكاسرة .

أجابت آكا على الفور قائلةً لنلز إن عليه أن يقيم علاقة طيبة مع كل الحيوانات الصغيرة فى الغابة ، وفى الحقول مع عائلة السنجاب وأسرة الأرنب، وكذلك مع عصافير الدغناش المغردة ، وطيور القرقف ، ونقار الخشب ، والقبرة . . فإذا صادقهم فسوف يحذرونه من أى مخاطر تهدده ، كما تهديه إلى أماكنَ يختبىء فيها ، وتقيه شر أعدائه .

لكن الصبى حاول آخر النهار أن يستفيد بهذه النصيحة ، وقصد السنجاب يسأله أن يأويه ويحميه ، إلاّ أن السنجاب لم يهتم بسؤاله ، ولم يهب لمساعدته ، قال له السنجاب : « لا تتوقع مساعدة منى ، ولا من بقية الحيوانات الصغيرة . .

هل تظن أننا لا نعرف أنك أنت نلز الذى اقتلع عش طائر السنونو من مكانه فى العام الماضى ، وسحق تحت قدميه بيض طائر الزرزور، وألقى بصغار البقر الرضع فى الحفرة ، واصطاد طيور السملق بالفخ ، وحبس السنجاب فى القفص ؟ ! . . ساعد نفسك أنت قدر استطاعتك ، واحمد الله أننا لن نؤلف عصبة ضدك ، ونذيقك من نوع أفعالك ! » .

كانت هذه هى إجابة السنجاب ، التى لم يكن ليدعها الصبى تمر دون عقاب ، يوم أن كان يرعى الإوز . أمّا الآن ، فإنه يخشى على الأقل أن يكتشف الإوز البرى حقيقة خبثه . .

استبد به الخوف من ألاّ يسمح له الإوز البرى بالبقاء معه ، ولذلك . . لم يجرؤ للحظة واحدة على ارتكاب أى عمل آثم ، منذ أن التحق بصحبتهم . . حقًّا إنه لا يملك القدرة على فعل الشر الآن ، ولكن على الرغم من ضآلة حجمه ،فإنه قادر على أن يدمر الكثير من أعشاش الطيور، وأن يسحق الكثير من البيض لو أراد ، أو فكر فى ذلك ، وإنما يمنعه عن ذلك أنه أضحى خَـيِّـرًا حقّا . . فهو لم يجذب ريشة من جناح إوزة ، ولم يجب على أحد إجابة وقحة ، ولم يغلظ فى القول لأحد ، وكل صباح إذا ما نادى على آكا ، حرص على أن يرفع قبعته عن رأسه ، وينحنى لها أدبًا واحترامًا .

ألحت عليه طوال يوم الخميس فكرة تؤكد له أن الإوز البرى لم يحرص على

اصطحابه معه إلى لايلاند بسبب خبثه . وفى المساء عندما سمع عن سرقة زوجة السنجاب ، وأن أطفالها سيموتون جوعا ؛ قرر أن يساعدهم . وقد عرفنا قصته معهم ، وكيف نجح فى إنقاذهم .

عندما دخل الصبى المتنزة يوم الجمعة ، سمع العصافير تغرد فوق أغصان الأشجار ، وتحكى قصة زوجة السنجاب ، وكيف سرقها لصوص أشقياء قساة ، وحرموا أطفالها منها ، وكيف خاطر نلز بحياته بين البشر ، وحمل صغارها الرضع إليها .

انطلق عصفور يشدو قائلا : « من ذا الذى يتمتع الآن بسمعه حسنة وإجلال وتقدير فى متنزه ، مثل توميتوت ، الذى كان يخشاه الجميع حين كان يدعى نلز راعى الإوز ؟! » .

السنجاب سيغدق عليه هدايا البندق ، والأرانب المسكينة ستلعب معه ، والغزال سيحمله على ظهره ، ويعدو به بعيدًا إذا مااقترب منه الثعلب سمر . وحيوان القرقف سيحذره إذا ماحام صقر بالقرب منه ، وطيور العندليب والسنونو ستغنى له و تمتدح أخلاقه وأمجاده .

أيقن نلز أن آكا وكل الإوز البرى سمع هذا المديح ، وعرفوا حسناته ، ولكن ها قد مضى يوم الجمعة ، دون أن يسمع كلمة واحدة تؤكد بقاءه معهم .

جاء يوم السبت ، وخرج الإوز البرى ليقتات من الحقول الممتدة ، هادئًا مطمئنًا لا يخشى الثعلب سمر ، ولكن عندما خرج الإوز إلى المروج صباح السبت ، كان الثعلب يكمن فى انتظاره ، يطارده من حقل إلى آخر، ولم يدعه يأكل فى هدوء وسلام . وأدركت زعيمة الإوز آكا أن الثعلب لا

يعتزم ترك الإوز فى شأنه أو فى سلام ، لذلك . . حسمت أمرها ، وأخذت قرارًا سريعًا . . وحلقت فى الهواء ، وطارت مع سربها إلى مسافة عدة أميال فوق السهول والتلال . . ولم يتوقف الإوز عن الطيران ، إلاّ بعد أن بلغ ضاحية المدينة .

حين وصل الإوز إلى هناك ، كان طفلان قد استوليا على ذكر الإوز ، الأبيض ـ وسبق أن قصصنا كيف حدث ذلك ـ ولو لم يبذل الصبى (نلز) كل جهده ، ويستغل قدراته لمساعدته ، لما عثر عليه أحد ، أو اهتدى إلى مكانه .

فى مساء السبت عاد نلز إلى البحيرة ، ومعه ذكر الإوز الأبيض ، وحسب أنه قضى يوما مشحونًا بالعمل والجهد وانتظر أن يسمع عبارات التقدير والمديح على لسان آكا والإوز البرى . لم يضن عليه الإوز البرى حقًا بالمديح ، ولكنهم لم يقولوا له الكلمة التى يتحرق شوقًا لسماعها .

وأقبل يوم الأحد مرة أخرى . مضى أسبوع بأكمله منذ أن سحره القزم ، ولا يزال على حاله ضئيلاً صغيرا .

بدا وكأنه لا يعبأ كثيرًا بهذا . وفى عصر يوم الأحد ، جلس تحت شجرة صفصاف وارفة ، تطل على البحيرة ، ممسكاً مزمارًا يعزف عليه . وغطت أغصان الأشجار من حوله أعدادًا كبيرة من طيور الحسون ، والدغناش ، والزرزور . . وغيرها من الطيور المغردة ، وهى تشدو بأغانٍ يحاول أن يتعلم كيف يعزفها على مزماره ، ولكن نلز لم يكن يجيد هذا الفن . . لذلك خرجت من مزماره ألحان ناشزة ، وقف لها ريش الطيور ، وشرعت تصرخ وترف بجناحيها محتجةً غاضبة ، وضحك الصبى من أعماقه لضيقهم ، حتى سقط المزمار من يده .

عاود المحاولة ثانية ، وفشل كما فشلت محاولته الأولى ، وأخذت العصافير كلها تتألم وتشكو قائلة : « ماذا حدث يا توميتوت؟ . . نراك اليوم تعزف أسوأ من أى مرة سابقة . لم يصدر عنك لحن واحد سليم ! . . أين عقلك يا توميتوت ؟ ! » .

قال الصبى : « عقلى سارح شارد » . وكان هذا صحيحًا . . فقد جلس غارقًا فى التفكير ، لايدرى هل سيبقى فى صحبة الإوز ، أم سيعيدونه اليوم إلى بلده .

وأخيرًا ألقى نلز بمزماره وقفز إلى الأرض . لقد أبصر آكا وكل الإوز البرى قادمًا نحوه فى صف طويل .

سار الإوز ببطء وخيلاء . وأدرك الصبى أنه سيعلم منهم الآن عزمهم ، وما الذى ينوونه معه .

بعد أن توقف صف الإوز ، قالت زعيمتهم آكا : « لعل لك كل الحق أن تتعجب ياتوميتوت ، لأننى لم أشكرك على إنقاذى من الثعلب ، إلاّ أننى واحدة ممن يؤثرون أن يقدموا شكرهم أفعالاً ، لا أقوالاً . . والآن يا توميتوت ، أحسب أنه قد آن الأوان لمساعدتك . لقد بعثت برسالة إلى القزم الذى سحرك . رفض أول الأمر سماع أى كلمة عن إنقاذك ووصفك بصفات غير حسنة ، ولكننى أتبعت الرسالة بأخرى ، وغيرها ، وتحدثت إليه عن محاسنك ، وسلوكك الحميد بيننا ، فوعدنى أخيرًا بأنك ستعود بشرًا سويًا ، فور عودتك إلى بلدك » .

لكن ما أعجب الدنيا . . فبقدر ماكان الصبى سعيدًا حين بدأ الإوز حديثه إليه ، بقدر ماحزن حين أنهى الإوز كلامه . لم ينطق الصبى بكلمة ، بل استدار وتنحى جانبًا ، وانخرط فى البكاء .

قالت آكا : « عجبًا . . ماهذا الذى أراه ؟ هل توقعت منى غير ما قدمت لك » . ولكن نلز كان يفكر فى الأيام الخالية من الهم . . أيام اللعب والمغامرة، أيام الحرية والانطلاق والسفر محلقًا فى عنان السماء بعيدًا عن الأرض . . هذه الأيام التى سيفقدها ، ولهذا كان يبكى ، وقال : « لا . . لا . . لا أريد أن أكون بشرا . أود لو ذهبت معكم إلى لايلاند » .

قالت آكا : « سأقول لك كلمتين : القزم الذى سحرك كائنٌ شديد الحساسية ، سريع الغضب ، وأخشى إن رفضت عرضه أن يكون صعبًا علينا أن ننتزع منه موافقته فى وقتٍ آخر » .

لم يكن هذا الموقف غريبًا من الصبى ، فلم يكن أحد يعبأ به طوال حياته ، ولم يكن يريد أن يعود إلى أبيه أو أمه ، ولا إلى معلم المدرسة ، أو زملائه فى المدرسة . . ولا إلى جيرانه من الصبية ، إذ كان كل ما يطلبونه منه ، سواءٌ أكان عملاً أم لعبًا ، جهدًا مرهقًا مثيرًا للتعب والملل . . كذلك لم يكن منهم من افتقده ، أو اشتاق إليه .

انخرط نلز فى بكائه وهو يقول : « لاأريد أن أكون بشرًا . . أتمنى أن أصحبكم إلى لايلاند . هذا هو ماأريده منذ الأسبوع الماضى » .

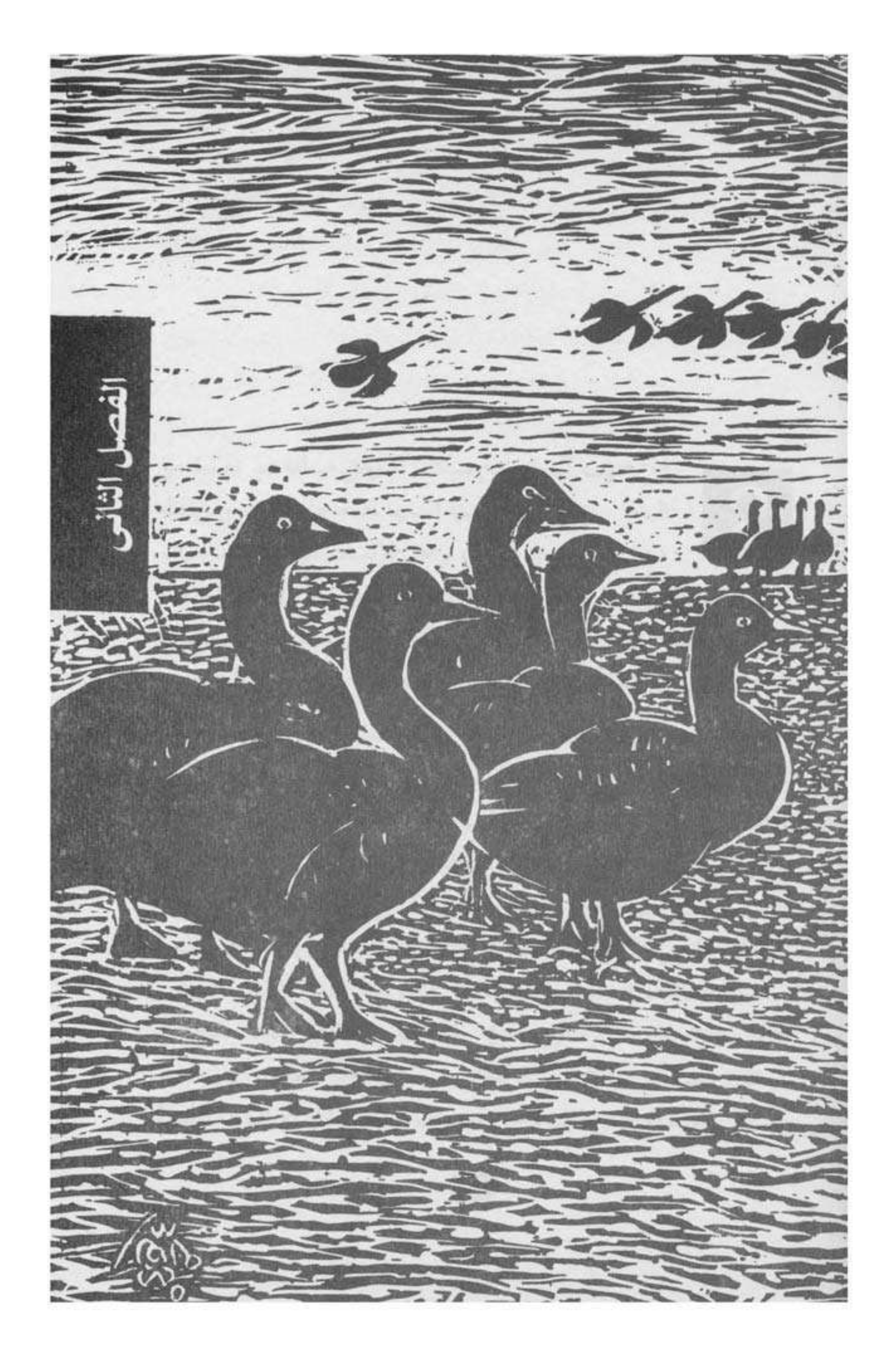
قالت آكا : « لا أريد أن أحرمك من رغبتك ، ولا أن أحول بينك وبين مصاحبتنا . ولكن تدبر أمرك جيدًا ، واعرف إذا ما كنت ترغب فى أن تعود إلى بلدك ، أم لا ، فقد يأتى يوم تأسف فيه على ما تقرره الآن » .

قال الصبى : «لا . . لا لن أندم على شىء . لم أكن سعيدًا فى حياتى مثلما أنا سعيد بينكم» .

قالت آكا : «حسنًا . . إذاً لك ماتحب وتريد » .

انطلقت عبارات الشكر والامتنان على لسان نلز : « آه . . شكرًا . . شكرًا » ، وأحس بسعادة غامرة ، حتى كاد يبكى ثانية من فرط سعادته ، مثلما بكى من شدة حزنه وأساه .

* * *


الفصل الثانى

2

فى الجنوب الشرقى من سيكان ، وعلى مسافة غير بعيدة من البحر ، تقع قلعة قديمة اسمها قلعة جليمنج . وهى بناء ضخم من حجر صلد ، يراها الإنسان من على بعد أميال عديدة عبر السهول المحيطة بها ، ولا يزيد ارتفاعها على أربعة طوابق ، ولكنها ضخمة مهولة ، حتى ليبدو البيت الريفى العادى ، من البيوت القائمة ذات المقاطعة أشبه بدمية أطفال صغيرة ، بالقياس إلى القلعة .

هذا البيت الحجرى الضخم عبارة عن أسقف ، وجدران سميكة ، حتى ليظن المرءألاّ مكان به إلاّ لهذه الجدران وحدها . . فالدَرَج ضيق، والمداخل صغيرة ، والحجرات قليلة ، ولكى تحتفظ الجدران بقوة بنيانها ، لا يوجد بها غير القليل جدّا من النوافذ فى الطوابق العليا ، أمّا الطوابق الدنيا ، فهى صماء تمامًا ، ليس بها نوافذ ، وإن كانت هناك فتحات ضيقة، لكى ينفذ منها الضوء . . ولقد كان الناس فى الأزمنة القديمة سعداء للغاية ، إذ يستطيعون الاحتماء داخل هذا البناء القوى المتين ، تمامًا مثلما يسعد المرء اليوم حين يدس نفسه داخل فراء سميك ، ليحمى نفسه من برودة الشتاء القارصة ، وإذا حل الظلام ، فإنهم لا يعبأون بالحياة أكثر من ذلك داخل حجرات القلعة القديمة الباردة المعتمة

. . لقد هجروا قلعة جليمنج منذ زمان بعيد ، وانتقلوا للسكنى فى بيوت تنعم بالضوء والهواء الطلق المتجدد .

وبينما كان نلز هولجرسون يتجول مع الإوز البرى ، لم يكن فى داخل قلعة جليمنج بشر ، ولكنها على الرغم من كل هذا . . لم تكن خالية مهجورة بدون سكان . . فمع بداية كل صيف يأوى إليها زوج من طيور اللقلق يسكنان عشًا كبيرًا فوق السطح . . ويسكن زوج من البوم فى عش بالطابق الأعلى . . وتحتل الخفافيش الممرات السرية المعتمة ، فتراها معلقة أو محومة هناك . . واتخذ القط العجوز المطبخ مأوى له . . واستقرت مئات الفئران السوداء فى القبو .

إن الحيوانات لاتنظر إلى الفئران نظرة تقدير واحترام ، فيما عدا النظرة إلى الفئران السوداء التى تسكن قلعة جليمنج . . فالحيوانات تذكر اسمها دائمًا مقرونًا بعلامات التوقير والإجلال ، ذلك لأنها كشفت عن بسالة منقطعة النظير فى معركتها مع أعدائها . . وأبدت تحملاً إزاء المصائب والكوارث الكبرى التى ابتليت بها . وتنتسب الفئران السوداء إلى قبيلة كانت يومًا ما كثيرة العدد قوية البأس ، عزيزة السلطان ، ولكن زال كل هذا المجد وانتهى ، واستطاعت الفئران السوداء فى فترة طويلة من الزمان أن تمتلك مقاطعة سيكان وكل البلد ، فأصبحت تراهم فى كل مكان . . داخل أى قبو ، وفوق أسطح المنازل ، وفى الحظائر ، ومخازن الحبوب ، ومطاحن الدقيق ، ومصانع الحلوى ، وداخل القلاع والقصور ، وفى داخل كل مبنى شيده الإنسان . ولكن طردوا أخيرًا وأبعدوا ، واقتلعت جذورهم من كل هذه الأماكن ، وقليلاً ما تقع العين عليهم فى هذه الأماكن القديمة النائية ، ولا توجد بكثرة فى أماكن هامة مثل : قلعة جليمنج .

إذا مات بعض الحيوانات ، فإن البشر هم الجناة عادة ، إلاّ فى هذه الحالة . حقًا . . كافح الناس الفئران السوداء ، وخاضوا ضدهم حربًا مريرة طويلة ، ولكنهم عجزوا عن أن يلحقوا بها أى أضرار ذات قيمة ، ولم تهزمها إلاّ حيوانات من جنسها ، هى : الفئران الرمادية .

لم تكن الفئران الرمادية تعيش على اليابسة ، مثل : الفئران السوداء ، وذلك منذ زمان قديم لا تعيه الذاكرة . والفئران الرمادية من سلالة زوج من الفئران المسكينة المهاجرة التى هبطت على الأرض من مركب شراعى فى بلدة مالمو منذ مائة عام مضت . كان زوج الفئران الرمادى شريدًا ، بائسًا ، جائعًا ، فنزل من المركب إلى الميناء ، وسبح وسط أكوام الفضلات ، واقتات على القاذورات الملقاة فى الماء ، ولم يجرؤ على الاقتراب من المدينة التى تسكنها الفئران السوداء .

لكن الفئران الرمادية تكاثرت عددًا ، وازدادت جرأة شيئًا فشيئًا ، وانتقلت أول الأمر إلى بعض المساكن القديمة التى هجرتها وعزفت عنها الفئران السوداء ، وسعت الفئران الرمادية إلى رزقها ، تبحث عنه فى البالوعات وأكوام القمامة ، وأقبلت فى نهم على المهملات والفضلات ، التى لم تكن الفئران السوداء تعبأ بها ، أو تعيرها أدنى اهتمام . . لقد كانت جسورة ، صامدة ، قانعة فى دأبٍ وجلد ، حتى أضحت فى سنوات قليلة قوية البأس ، ذات سطوة وسلطان ، وبدأت فى دفع الفئران السوداء إلى خارج مالمو وانتزعت منها أسطح المنازل وقباءها ومخازنها ، وأذاقتها الجوع والمذلة ، ثم عضتها حتى الموت ، بعد أن بلغت الجرأة حدّا لا تخشى معه شيئًا .

بعد أن استولت على مالمو ، تقدمت فى جماعات صغيرة وكبيرة

لاحتلال كل البلدة . وقد يستحيل علينا أن نفهم لماذا لم تنظم الفئران السوداء نفسها ، وتشكل من شعبها جيشًا جرارًا موحدًا لاستئصال الفئران الرمادية عندما كانت لا تزال جماعات صغيرة العدد ؟! ، بيد أن الفئران السوداء أخذها الغرور ، واطمأنت إلى قوتها ، وقنعت بخيالاتها ، وقعدت جامدة ، حتى ازداد عدد الفئران الرمادية ، وقويت شوكتها ، وانتزعت الأرض منها : مزرعة بعد مزرعة، ومدينة بعد أخرى .

تضورت الفئران السوداء جوعًا وانتزعت أملاكها ، وتعذر عليها البقاء فى أى مكان فى كل أنحاء سيكان ، عدا قلعة جليمنج .

تتميز القلعة بجدرانها الآمنة التى عرفت الفئران السوداء كيف تحتمى بها ، وتمنع الفئران الرمادية من التجمع داخلها . واستمر النضال بين المعتدين وبين المدافعين ليلةً بعد ليلة ، وعامًا بعد عام .

فوضت الفئران السوداء حراسة مشددة ، واستهانت بالموت دفاعًا عن آخر معاقلها وانتصرت فى معركتها للحفاظ على هذا المعقل ، بفضل منعة هذا البيت وحصانته .

يجب أن نعترف بأن الفئران حين كانت فى قمة سلطانها وسطوتها ، كانت كل الكائنات الأخرى تتجنبها وتبتعد بنفسها عنها ، مثلما يحدث مع الفئران الرمادية اليوم ، لسبب بسيط . . هو أنها انكبت على سجناء بؤساء مقيدين بالأغلال ، وسلبتهم كل شىء ، وسرقت مخازن غذاء الفقراء حتى آخر حبة فيها ، وعضت أقدام الإوز النائم ،وأخذت بيض الدجاج ، وارتكبت آلافًا من جرائم السلب والنهب . . وتبين بعد أن دارت الدنيا وانقلبت أفراحها إلى أحزان ، وسطوتها إلى مذلة وهوان ،

ظهر وكأن مافات مات ، ونسيت كل ماقامت به من أفعال ، ولا يسع أى كائنٍ حى إلاّ أن يعجب لصمودها فى عناد وبسالة ضد أعدائها .

اعتبرت الفئران الرمادية التى تسكن قلعة جلمنج وماجاورها أن حالة الحرب قائمة ومعلنة ، وسعت إلى فرصة للاستيلاء على القلعة ، ورفضت السماح للبقية الباقية من الفئران السوداء بالحياة فى سلام داخل القلعة ، بعد أن استولت هى على كل البلاد .

قالت صراحة إن هزيمة الفئران السوداء والانتصار مسألة شرف وكرامة ، ولابد أن يتحقق النصر يومًا ما ، ولقد عرفت الفئران الرمادية أن الناس استخدموا قلعة جلمنج مخزنًا للحبوب ، وأنه لهذا السبب لن يهدأ بال الفئران الرمادية قبل أن تستولى على هذا المكان .

ذات صباح باكر ، كان الأوز البرى مستقرّا فوق ثلج بحيرة فومب ، بعضه واقف على قدميه ،وبعضه الآخر مستغرق فى نومه . وفجأة انطلقت صيحات ونداءات طويلة ممتدة فى الهواء ، رددت صوتًا يقول :

« ترى روب . . ترى روب » . وكان هذا صوت تريانوت طائر الكركى يبعث بتحياته إلى آكا زعيمة الإوز البرى ، وإلى سربها .

غدًا العيد الكبير لرقصة الكركى فى مدينة كولا بيرج .

رفعت آكا رأسها ، ومدت رقبتها ، و أجابت على الفور :

« تحياتى وشكرى ... تحياتى وشكرى ! » .

طارت طيور الكركى بعيدًا ، وتردد صوتها فى آذان الإوز البرى لفترة طويلة وهى تحلق وتنادى على كل الحقول والغابات ، معلنةً النبأ السعيد :

« تريانوت يبعث بتحياته . . غدًا العيد الكبير لرقصة الكركى فى كولابيرج» .

اغتبط الإوز البرى كثيرًا لهذه الدعوة ، وقال لذكر الإوز الأبيض : « ما أسعد حظك أن تتاح لك فرصة حضور العيد الكبير لرقصة الكركى فى كولا بيرج » .

سأل ذكر الإوز : «هل مشاهدة رقصة طيور الكركى أمر مهم ورائع إلى هذا الحد ؟ » . وأجاب الإوز البرى : « إنه شيء لم تسعد برؤيته قط » .

قالت آكا : « يجب علينا الآن أن ندبر الأمر بالنسبة لتوميتوت . إذًا ماذا عسانا أن نفعل غدًا بشأنه ، حتى لا يصيبه أذى ونحن فى كولابيرج» .

سارع ذكر الإوز بالإجابة : « لا ، لن نترك توميتوت وحده . إذا لم تسمح له طيور الكركى بحضور حفلها الراقص ، فإننى سأبقى معه» .

ردت عليه آكا : « لم يسمح لكائن بشرى من قبل بحضور مؤتمر الحيوانات فى كولابيرج ، وأنا أجرؤ على اصطحاب توميتوت معنا ، إلاّ أننا سنناقش هذا الأمر تفصيلاً فى وقتٍ آخر من هذا اليوم . والآن علينا أن نفكر أولاً فى الحصول على شيء لنأكله » .

أنهت الزعيمة آكا المناقشة بكلمتها هذه ، ثم أعطت الإشارة للتحرك، وطار الإوز يحلق فى السماء بحثًا عن حقل يجد فيه طعامًا له فى مكان بعيد عن أعين الثعلب . ولم يحط إلاّ بعد أن بلغ مروجًا فى أرض موحلة جنوب قلعة جليمنج .

قضى نلز يومه جالسًا على حافة غدير صغير ، يبث الألحان بمزماره. لم يكن سعيدًا . . فقد شعر بالحزن ، لأنه لن يشهد الحفل الراقص لطيور الكركى ، ولم يكن بوسعه أن يعبر عما بنفسه ، سواءٌ لذكر الإوز ، أم لأى إوزة أخرى .

كان قاسيًا عليه أن يظل غير موثوق فيه من الزعيمة آكا . إنه لن يقبل العودة إلى طبيعته الأولى ، ورفض أن يرتد كائنًا بشريًا سويًا ، لكى يسافر ويطوف بأنحاء الأرض مع بضع إوزات برية ، وكان يجب أن يدرك الإوز يقينًا أنه لا يضمر خيانةً له ولا غدرًا ، بل ينبغى عليه أن يدرك أيضًا أنه حين تخلى عن الكثير لكى يصحب الإوز ، فإن من حقه مقابل ذلك . . أن يهيئوا له الفرصة لمشاهدة هذه العجائب التى يمكن أن ييسروها له .

قال فى نفسه : « سأفصح له عن كل مايدور بفكرى ، وأحدثه بصراحة» . ومضت الساعة تلو الأخرى ، ولم تطاوعه نفسه على ذلك . وقد يبدو ذلك شيئًا غريبًا يسترعى الالتفات ، ولكن الحقيقة أن الصبى بات يحمل فى أعماقه احتراما وهيبة لزعيمة الإوز العجوز ، وأحس أنه ليس من اليسير عليه أن يكشف لها عما فى نفسه نحوها .

وقف الإوز يقتات قرب جدار حجرى عريض ، يمتد على أحد جوانب المرج الملىء بالمستنقعات . وبينما يرفع الصبى رأسه قبيل الغسق ليتحدث أخيرًا إلى آكا ، استقر بصره على الجدار . . وصدرت عنه صيحة قصيرة تنم عن دهشة واستغراب . رفع الإوز البرى رأسه على الفور ، وحملق بعيونه فى نفس الاتجاه . . ظن الإوز البرى والصبى أول الأمر أن كل الحجارة الرمادية المستديرة الموجودة فوق الجدار أصبح لها أرجل ،

وبدأت تتحرك وتجرى ، ولكن سرعان ما أدركت أنها جماعة من الفئران تعدو فوق الجدار .

بدأت تتحرك سريعًا جدّا ، متلاحمة متراصة صفوفًا .. كانت حشدًا، حتى إنها غطت كل الجدار الحجرى ، وأخفته .

كان الصبى يخاف من الفئران ، حتى بعد أن أصبح شاباً قويّا ، ولكن ماذا يمكن أن تكون مشاعره الآن ، وهو القزم الضئيل الحجم ؟! .. ويكفى فأران أو ثلاثة للتغلب عليه !.. سرت رعدة فى كل مفاصله ، وهو واقف يحدق فيها .

الغريب حقًا أن الإوز البرى حاكاه فى مشاعر الاشمئزاز والقرف تجاه الفئران .. لم يتحدث الإوز إلى الفئران ، واكتفى ـ بعد أن ولت بعيدًا ـ بأن نفض جسمه ، كأنما يسقط وحلاً بريشه ولونه .

قالت الإوزة آكا : « ماكل هذا الحشد من الفئران الرمادية ؟ ! لست أرى فيه فألاً حسنًا » .

أراد الصبى أن ينتهز هذه الفرصة ، ليقول للزعيمة آكا : إن من رأيه أن تصحبه معها إلى كولابيرج .. ولكن حدث ما منعه من الكلام ، إذ حط فجأة وسط الإوز طائر ضخم ، يظن من يراه أن له جسم إوزة بيضاء صغيرة ، كما له نفس رقبتها ورأسها ، ولكن كان له جناحان سوداوان كبيران ، وساقان حمراوان طويلان ، ومنقار ضخم ثقيل ينوء به رأسه الصغير ، ويثقل عليه ويميل به إلى أسفل ، ليبدو حزينًا مهمومًا .

نفشت آكا على الفور ريش جناحيها ، واقتربت ناحية طائر اللقلق ، وهى تحنى رأسها مرات احترامًا وترحيباً . لم تدهش امرأة فى سيكان فى هذا

الوقت المبكر من فصل الربيع ، ذلك لأنها تعرف أن ذكور طائر اللقلق تأتى مبكرًا لتلقى نظرة على أعشاشها ، وتتأكد من أنها لم يصبها أذى خلال فصل الشتاء ، ولكن الذى أثار دهشتها الشديدة حقًا ، هو معنى بحثه عن هذه الأعشاش ، وأنه قصدها هى مباشرة ، حيث إن طيور اللقلق تفضل الارتباط ببنى جنسها ، ومن هم من عائلتها .

وقالت آكا : « لا أكاد أصدق أن ضررًا أصاب بيتك يا سيد أرمنرخ» .

بدا واضحًا الآن صدق ماقاله الناس : « لا يفتح طائر اللقلق منقاره إلاّ شاكياً ، ولكن الأمر بالنسبة له كان صحيحًا ومحزنًا ، إذ تعذر عليه أن يتحدث ويفصح عن نفسه . ظل واقفا فى مكانه فترة طويلة يتلعثم ويطقطق بمنقاره . . ثم تحدث بصوت أجش واهن ، واشتكى . . وتناولت شكايته كل شىء : « العش الذى كان مقامًا فوق ذروة شجرة فى قلعة جليمنج . . دمرته أعاصير الشتاء عن آخره ، وبلدة سيكان أضحت خالية من أى طعام . . أو ناس . . ولهذا . . قرر الرحيل من هذا البلد ، ولن يعود إليه أبدًا » .

وبينما كان طائر اللقلق يبث شكواه متذمرًا ، استمعت إليه آكا ، وهى الإوزة البرية الشريرة التى لا بيت لها ولا حماية . وفكرت فى حالها ، وقالت لنفسها : « لو كانت لى مالك من أسباب الراحة ياسيد أرمنرج ، لما شكوت أبدًا . هاأنت طائر حر برى طليق ، وعلاقتك طيبة مع البشر فلن يصوب أحدهم بندقيته نحوك ليصيبك بطلقة منها ، ولن يحاول أحدهم سرقة بيضة من عشك ! » . أخفت الإوزة البرية ما فى نفسها ، ولم تتحدث بما يدور فى داخلها ، واكتفت بأن قالت لطائر اللقلق : «إنها

لا تريد أن تصدق أنه عازم على الرحيل ، والانتقال من بيت ظل مأوى لطيور اللقلق منذ بداية تشييده ».

سأل طائر اللقلق فجأة الإوزة إذا كانت قد رأت الفئران الرمادية التى أخذت طريقها إلى قلعة جليمنج ، وحين أخبرته آكا بأنها رأت فعلا هذه المخلوقات الكريهة البشعة ، بدأ يقص عليها حكايات عن الفئران السوداء الشجاعة ، التى ظلت سنوات وسنوات تدافع عن القلعة . . ثم قال وهو يتنهد : « لكن قلعة جليمنج ستقع الليلة فى قبضة الفئران الرمادية ، وتخضع لسلطانها » .

سألته آكا : « ولماذا هذه الليلة بالذات ياسيد أرمنرخ ؟ » .

قال طائر اللقلق : « حسنًا . . ذلك لأن كل الفئران السوداء تقريبًا قصدت كولا بيرج بالأمس . . وذلك عندما عرفت أن كل الحيوانات الأخرى هرعت إلى هنالك أيضًا . .

لكن ها أنت ترين كيف أن الفئران الرمادية بقيت فى بيتها ، وهى تستعد الآن لتعصف بالقلعة فى هذه الليلة ، لكى تستولى عليها ، فى حين لم يدافع عنها سوى بضع مخلوقات مسنة ، أقعدها الوهن عن الذهاب إلى كولابيرج . أعتقد سيتحقق أملها . لقد عشت هنا سنوات فى وفاق مع الفئران السوداء ، ويحزننى أن أعيش فى مكان يسكنه أعداؤها » .

أدركت آكا أن طائر اللقلق غاضب على الفئران الرمادية ، وأنه تعب فى البحث عنها ليتخذها وسيلة ينفس بها عما فى نفسه ضدها ، ولكنه ـ مثل كل طيور اللقلق وحسب طبيعتها ـ قنع بالشكاية ، ولم يفعل شيئًا لتجنب الكارثة .

سألته : « أبعثت برسالة إلى الفئران السوداء يا سيد أرمنرخ ؟». أجاب طائر اللقلق : «لا ... لا فائدة من ذلك ، ستسقط القلعة فى يد الأعداء».

قالت آكا : « ولماذا أنت على يقين من هذا ؟ . الأولى بك أن تفعل شيئًا إيجابيًا ... أعرف إوزة برية عجوز ، يسرها أن تمنع مثل هذا العدوان الصارخ ». عندما قالت آكا هذا الكلام ، رفع طائر اللقلق رأسه وتفرس فيها . لم يكن فى هذا ما يدعو للدهشة ، لأن آكا ليس عندها مخالب ، ولا منقار للحرب والعراك . وانقضى اليوم فى حوار ومساومة ، حتى أقبل الليل ، وأظلمت الدنيا ، فأسلمت الإوزة نفسها للنوم يائسة ، فى حين حرب الفئران دائرة طوال الليل . .

قد فكرت آكا ، وأعملت عقلها لمساعدة الفئران السوداء ، ودعت الإوزة آكى ، وأمرتها بأن تسحب الإوز البرى إلى بحيرة فومب . حاول الإوز أن ينتحل المعاذير ، ولكنها قالت فى قوة وحزم : « أظن أنه من الخير لنا جميعًا أن تطيعونى . لابد لى أن أطير إلى ذلك البيت الحجرى الضخم، وإذا تبعتمونى ، فسوف يراكم الناس يقينًا ، وسوف يصطادوننا بلا شك . الشخص الوحيد الذى سأصطحبه معى فى رحلتى هذه هو توميتوت . . فقد يفيدنى فائدة كبيرة . . الآن له عينان حادتان كما أنه قادرٌ على السهر ليلاً ».

لم يكن مزاج نلز على مايرام طوال ذلك اليوم . وحينما سمع حديث آكا، نهض واقفًا ، ومد قامته إلى غايتها ، وخطا خطوات إلى الأمام ، ويداه إلى الخلف ، وأنفه شامخة فى الهواء ، عازمًا على القول : بأنه لا يرغب فى المشاركة فى الحرب ضد الفئران الرمادية ، وأن عليها أن تبحث عمن يساعدها .

لكن فى اللحظة التى ظهر فيها الصبى ، بدأ طائر اللقلق يتحرك . كان طائر اللقلق واقفًا كعادة الطيور أقرانه ، وقد خفض رأسه إلى أسفل، مثبتًا منقاره فى رقبته . . أما الآن ، فقد صدر عن قصبته الهوائية صوت يشبه (الكركرة) كأنه يريد أن يضحك ، ثم فى حركة كومضة البرق ، خفّض منقاره ، والتقط الصبى ، وقذف به إلى أعلى فى الهواء سبع مرات ، والصبى يصرخ ، والإوز يصيح :

« ماذا أنت فاعل به ياسيد أرمنرخ ؟ . إنه ليس ضفدعة . . إنه إنسان ياسيد أرمنرخ ! » .

وأخيراً وضع طائر اللقلق الصبى على الأرض ، دون أن يمسه أذى . . قال للزعيمة آكا : « سأطير الآن عائدًا إلى قلعة جليمنج أيتها الأم آكا . . فقد استبد القلق بكل من هناك حين رحلت بعيدًا عنهم ، وثقى أنهم سيسعدون غاية السعادة حين أبلغهم أن آكا الإوزة البرية ، وتوميتوت الإنسان القزم فى طريقهما لإنقاذهم » .

فرغ طائر اللقلق من كلامه ، ومد رقبته ، وبسط جناحيه ، وانطلق كالسهم . أدركت آكا أنه كان يسخر منها ، ولكنها لم تشأ أن تهتم لقوله ، حتى لا يثير ضجرها وسخطها ، ويسبب لها الضيق . وانتظرت حتى عثر الصبى على حذائه الذى سقط من قدميه ، فى الوقت الذى كان طائر اللقلق يقذف به إلى أعلى .

حملت الصبى على ظهرها وطارت فى أثر طائر اللقلق ، ولم يعترض الصبى ، بل استسلم لها ، ولم يفتح فمه بكلمة عما كان يدور فى نفسه ، فقد كان لا يريد أن يصحبها .

شعر نلز بالغيظ مما فعله طائر اللقلق ، فجلس ينفخ مهتاجًا غاضبًا: «هذا الشيء الطويل ذو السيقان الحمراء يقلل من قيمتى ، لأننى ضئيل الحجم ... لا ، سوف أريه أى نوع من الرجال نلز هولجرسون ! ».

بعد لحظات ، حطت آكا على عش طائر اللقلق فى قلعة جليمنج . كان عشًا ضخمًا جميلاً ، فى قاعدته دائرة كأساس لبناء العش تعلوها طبقة من العشب وبعض الأغصان . كان العش قديمًا ، إذ نبتت فيه بعض الشجيرات . والعادة أن الأم ترقد على بيضها فى جحر مستدير وسط العش ، وتبدو جميلة تسر الناظرين .

لاحظت آكا والصبى على الفور أن شيئًا ما يحدث ، ويكاد أن يقلب الأمر الطبيعى ، إذ جلست على حافة عش طائر اللقلق بومتان رماديتان ، وقط كبير السن به خطوط سوداء ، وعيونهم الثلاثة دامعة .

لم تكن يقينًا من نوع الحيوانات التى نراها عادة تعيش فى سلام مع بعضها . . لم يلتفت أحدها ناحية آكا ليلقى عليها نظرة، أو يرد لها تحية ، أو يرحب بها . كانت تجلس وهى تحملق فى خطوط رمادية طويلة تظهر هنا وهناك فوق مروج الشتاء الجرداء .

لزمت الفئران السوداء الصمت ، حيث إن من يراها يظن أنها تعانى يأسًا قاتلاً . . ولعلها أدركت أنه لا حول لها ولا قوة للدفاع عن نفسها أو عن القلعة . . وجلست البومتان تديران عيونهما الواسعة ، وتلويان حواجبهما المستديرة ، وتتحدثان بأصوات جوفاء كأصوات الأشباح عن قسوة الفئران الرمادية الرهيبة ، وأنه بات لزامًا عليهما أن يرحلا عن عشهما. أمّا القط العجوز ذو الخطوط السوداء ، فقد بدا منهارًا ، مما

يوحى بأن الفئران الرمادية قد تجهز عليه وتنهشه حتى الموت ، بعد أن قدمت إلى القلعة فى جحافل مهولة ، وتذكر الفئران السوداء ، وقال فى نفسه : « يالى من أحمق !وكيف تركت خير المحاربين يرحلون ؟ ! . كيف لى أن أثق فى الفئران الرمادية ؟ . . إنها لخطيئة كبرى ، لا سبيل إلى الصفح عنها » .

لم تنطق الفئران السوداء الاثنا عشر بكلمة واحدة . . أمّا طائر اللقلق، فعلى الرغم من حزنه وبؤسه وأساه ، فقد بدأ يستثير غيظ القط ، فقال له : « لا تقلق يا سيد قط . . ألا ترى الأم آكا ومعها توميتوت قد أتيا لإنقاذ القلعة ؟ . . أعتقد أنهما سينجحان فى مهمتهما . والآن سأقف لأستسلم للنوم ، وسوف أنام هادىء البال ، قرير العين ، وغدًا سأستيقظ من نومى ، وأنا على يقين من أننى لن أجد فأرًا رماديًا واحدًا فى قلعة جليمنج» .

غمز نلز بعينه إلى آكا . . وأشار إليها إشارة ذات معنى ، فى حين وقف طائر اللقلق على حافة العش ، رافعًا إحدى ساقيه لينام . . كان نلز يريد أن يدفع به ليسقط إلى الأرض ، ولكن آكا منعته ، دون أن يبدو عليها الغضب وقالت بصوت ملىء بالثقة والكبرياء : « إنه لأمر مؤسف حقًا أن تفشل مثلى فى التخلص من صعاب كهذه . . أحسب أن كل شىء سيكون على مايرام ، لو أن السيد بومة وزوجته القادرين على السهر ليلاً حملا رسالتين منى وطارا بهما » .

أبدت البومتان قبولهما واستعدادهما لإنجاز ما تأمرهما به . طلبت آكا من السيد بومة أن يذهب إلى الفئران السوداء ، ويطلب منها العودة فورًا . وأرسلت زوجته السيدة بومة إلى فلافيا بومة إحدى الحظائر ، والتى

تعيش فوق كاتدارئية لوند ، رسالة سرية للغاية ، قالتها لها همسًا . .

كاد الليل أن ينتصف عندما نجحت الفئران الرمادية بعد جهد وتعب فى العثور على جحر مفتوح فى القلعة . . كان الجحر عاليًا . . فتسلقت الفئران فوق أكتاف بعضها ، الواحد فوق الآخر . ولم يمض وقت طويل ، حتى احتل أكثرها جرأة مكانًا لنفسه، جلس فيه عند فتحة الجحر ، واستعد أولها ليشق طريقه عنوة إلى داخل قلعة جليمنج التى شهدت من قبل الكثير من أسلافه يتساقطون صرعى خارج أسوارها .

بقى الفأر الرمادى ساكنًا لحظة عند فتحة الجحر ، ينتظر هجمة تأتيه من الداخل ، وكان واضحًا أن الجيش الرئيسى للقوات المدافعة بعيد تمامًا عن هذا المكان . . ولكن الفأر الرمادى كان على يقين من أن الفئران السوداء التى لا تزال تحتل القلعة ، لن تستسلم دون صراع . . وأرهف أذنيه لسماع أدق الأصوات ، وقد تسارعت دقات قلبه .

لكن كل شىء كان هادئًا ساكنًا . . واستجمع زعيم الفئران الرمادية شجاعته ، وقفز إلى داخل القباء المعتم .

قفزت الفئران الرمادية الأخرى ، الواحد إثر الآخر وراء زعيمهم ، ولزمت جميعها الصمت الحذر والسكون ، خشية الوقوع فى كمين نصبته لها الفئران السوداء . . ولم تجرؤ الفئران الرمادية على التقدم إلاّ تحت ضغط الازدحام الشديد ، بعد أن قفزت حشود ضخمة منها ، وضاق بها المكان . .

على الرغم من أنها لم تدخل هذا البناء من قبل ، وليس لها به سابق عهد ، إلاّ أنها لم تجد صعوبة فى اكتشاف طريقها إلى الداخل . وسرعان

ما اهتدت إلى الطرق والممرات الموجودة داخل الأسوار التى اعتادت الفئران السوداء استخدامها للصعود إلى الأدوار العليا . وعادت الفئران الرماية ترهف سمعها ، وتنصت من جديد باهتمام شديد ، قبل أن تتسلق الممرات الضيقة المنحدرة . واستشعرت الفئران الرمادية خوفًا يخلع القلوب ، لأن الفئران السوداء حرصت على أن تبتعد بنفسها عن هذا المكان ، وكانت تفضل لو تعجلت المعركة ، ودخلت فى حرب سافرة . وشعرت الفئران الرمادية أن الحظ ساعدها عندما بلغت الطابق الأول ، دون وقوع حوادث مؤسفة .

ما إن دخلت الفئران الرمادية المكان ، حتى تشممت رائحة الحبوب المخزونة فى صناديق ضخمة مصفوفة على الأرض . . ولكن لم يحن الوقت بعد لتستمتع بغنائم المعركة وثمار الانتصار ، فأخذت تفتش المكان بحذر شديد وسط الظلام الدامس والغرف الخالية ، وجرت إلى المدفأة القائمة على أرضية مطبخ القلعة العتيقة . . وتساقط بعضها داخل بئر فى الغرفة الداخلية . لم تدع الفئران جحرا دون تفتيش ، ولكن لم تجد أثرًا للفئران السوداء . . وبعد أن اطمأنت الفئران الرمادية إلى سيطرتها الكاملة على هذا الطابق . . انتقلت فى حذر لاحتلال الطابق التالى . . وبدأت عملية تسلق خطيرة وجريئة خلال شقوق الجدران . كانت تتحرك فى قلق تنقطع معه الأنفاس ، خشية هجوم مباغت من العدو . وأغرتها رائحة الحبوب اللذيذة الشهية المنبعثة من الصناديق ، إلاّ أنها قاومت هذا الإغراء ، واندفعت لتفتش مطبخ محاربى العصور القديمة والمنضدة الحجرية ، والمدفأة ، والنوافذ ، والفتحات المنتشرة على الأرض، التى كان يستخدمها المحاربون القدماء ، ليصبوا منها القار المغلى على العدو الغازى .

لم يظهر أثر للفئران السوداء حتى هذه اللحظة . وتحسست الفئران الرمادية طريقها إلى الطابق الثالث ، وتسللت إلى داخل قاعة الولائم الكبرى ، التى بدت باردة فارغة ككل القاعات الأخرى فى البيت العتيق ، ثم تحسست طريقها إلى الطابق العلوى ، الذى يضم قاعة واحدة كبيرة فارغة . . وكان المكان الوحيد الذى لم تفكر فى استكشافه هو عش طائر اللقلق الضخم القائم فوق السطح ، وهو المكان الذى وصلت إليه فى هذه اللحظة السيدة بومة ، حيث أيقظت آكا ، وأخبرتها أن بومة الحظيرة فلاميا تؤكد لها احترامها وتقديرها ،وأرسلت إليها طلبها .

لم تشعر الفئران الرمادية بالراحة ، ولم يهدأ لها بال ، إلاّ بعد أن فرغت من تفتيش القلعة كلها تفتيشًا دقيقًا ... وأيقنت أن الفئران السوداء ولت هاربة ، لأنها لا ترغب فى المقاومة ، وأقبلت الفئران الرمادية بعد ذلك بقلوب مليئة بالبهجة على صناديق الحبوب ، تشبع جوعها ونهمها الشديد .

لم تكد الفئران الرمادية تزدرد الحبات الأولى من القمح ، حتى انتهى إلى سمعها صوت مزمار حاد ينبعث منه النغم .

رفعت رؤوسها واسترقت السمع فى قلق ، وهرعت بضع خطوات ، كأنها تعتزم ترك الغنيمة والهرب ، ثم عادت ثانية لتلتهم المزيد.

انبعث صوت المزمار ثانية حادًا قويًا ، ثم حدث أمر غريب لم يكن فى الحسبان . . بدأ فأر ، ثم فأران ، ثم حشود الفئران تترك الحب جارية، هاربة ، مولية الأدبار، تقفز فوق صناديق الحبوب ، وتهرع إلى القباء من أقصر الطرق لتترك البيت ، ولكن أعدادًا غفيرة من الفئران الرمادية

تذكرت الآلام والمشاق التى تحملتها فى سبيل الفوز بقلعة جليمنج، ولم يشأ أحدها أن يترك القلعة بسهولة . ووصل إلى أسماعها مرة أخرى صوت المزمار ، وكأنه يتعقبها .. فتدافعت فى هياج فوق صناديق الحبوب وانسلخت داخل الجحور الضيقة وتساقطت فوق بعضها البعض فى اندفاعها للهرب .

كان يقف وسط الفناء مخلوق ضيئل الحجم ينفخ فى المزمار .. وتحيط به من كل جانب حشود من الفئران ، تنصبت له فى ذهول ، مسحورة . ومع كل لحظة تمر تفد حشود أخرى مهرولة ، لتأخذ مكانها من حوله، ورفع المزمار عن شفتيه لحظة ووضع إبهامه فوق أنفه ، وأشار بأصابعه إلى الفئران الرمادية .. فقد ألقت بنفسها نحوه ، كأنها تعتزم مواجهته حتى الموت ، ولكن ما إن أمسك بمزماره ثانية ، ووضعه بين شفتيه ، حتى خضعت الفئران لسلطانه من جديد .

واصل المخلوق الصغير عزفه على المزمار ، متجهًا إلى خارج قلعة جليمنج .. والفئران الرمادية فى دائرة ، ثم أخذ طريقه ببطء خارجًا من الفناء إلى الطريق العام ، والفئران تتبعه ، لأن العزف كان له رنين حلو فى آذانها ، ولا تستطيع لسحره ردًا .

وسار المخلوق الصغير فى المقدمة يسحرها بعزفه ، متخذًا سبيله إلى بلدة فالى . سار بها فى كل الدروب والأزقة ، وهبط بها إلى المنحدرات والحفر، وصعد أسوارًا عالية ، وهى فى كل هذا تتبعه ، وتتعقب خطواته .

واصل العزف على مزماره الذى بدا كأنه مصنوع من قرن أحد الحيوانات، ولكننا لا نجد له الآن مثيلاً على جبهة أى حيوان من الحيوانات المعروفة لنا ، ولا يعرف أحد من الذى صنعه . كل ما نعرفه أن

فلافيا بومة الحظيرة عثرت عليه فى كوة داخل كاتدرائية لوند ، وعرضته على الغراب ، وهو من نوع المزمار الذى استخدمه الأسلاف الأوائل فى العصور القديمة للسيطرة على الفئران والجرذان . . وكان الغراب الأسود صديقا لزعيمة الإوز البرى آكا ، وقد عرفت منه أن فلافيا تمتلك هذا الكنز الثمين .

إن الفئران لم تستطع مقاومة سحر المزمار . . سار نلز فى المقدمة يعزف دون انقطاع ، حتى انطفأ ضوء النجوم ، والفئران فى أثره . وواصل العزف حتى طلوع الفجر ، ثم إلى أن أشرقت الشمس ، وموكب الفئران الرمادية وراءه يتبع خطواته مسحورةً أكثر فأكثر ، حتى بعدت المسافة بينهما وبين قلعة جليمنج .

تزخر منطقة سيكان بالكثير من المبانى الرائعة . . وعلى الرغم من هذا . . لا يسع المرء إلاّ أن يعترف بأنه ليس بينها مايضارع قلعة كولا بيرج العتيقة فى جمال أسوارها .

وهضبة كولابيرج منخفضة ، إلاّ أنها طويلة ممتدة ، وهى ليست إلاّ جبلاً شامخًا مهيبًا ،نمت فوق قمته العريضة غابات من أشجار ، ومساحات من المروج الخضراء وحقول حبوب . والذى يتطلع إليها يقع بصره هنا وهناك على ربى صغيرة مستديرة ، وصخور جرداء ناتئة . وهى لا تتميز بجمال خاص . . إذ إنها فى جمالها مثل كل هضاب المنطقة .

كل من يسير على امتداد الطريق الذى يشق الجبل فى منتصفه ، يشعر بقدر من خيبة الأمل ، بل لعله يحدث نفسه بالعودة ، تاركًا هذه السبيل ليتحول بعيدًا ناحية الأطراف ، قانعًا بالنظر من بعيد إلى الصخور ، ولكن بصره سيقع فجأة على ما يستحق أن يشاهده ويمتع نظره به . . ولا

يدرى من أين يجد الوقت الكافى ليفرغ من التجوال فى كل أنحائها ، ذلك أن كولا بيرج لا تقف على يابسة تحيط بها السهول والوديان مثل الجبال الأخرى . . بل إنها مغروسة فى البحر إلى أعمق الأعماق ، ولا يوجد حتى ولو شريط ضيق من اليابسة تحت الجبل ليحميه من الموجات العنيفة التى تلطمه وتنكسر على سفحه ، ولكن هذه الموجات تندفع بقوتها إلى أعلى ، حتى تبلغ الأسوار الجبلية ، ثم ترتد منحسرة عنها ، فتصقلها وتشكلها على هواها . ولهذا . . تبدو الأسوار غنية بزينتها وزخرفتها بقدر ما استطاع البحر ورفيقه الرياح أن يعملا فيها نحتًا وتزيينا .

كذلك فإن الصخور الشاهقة الوعرة ، قد استحالت بفعل لطمات الرياح الدائبة إلى صخور ملساء مصقولة ، حيث ترتفع وسط المياه أعمدة صخرية ، كأنها نصب متوحدة . ويقع البصر على كهوف معتمة ذات مداخل ضيقة ، وترى الوهاد الجرداء العمودية . . والمنحدرات الملساء مكسوة بأوراق الشجر، وألسنة من اليابسة ، وخلجان ماء صغيرة ، وحصى وحصباء ، كأنها كرات صغيرة تدحرجها الأمواج ، وتدفع بها كل موجة صعودًا وهبوطًا، وتغتسل بمياهها ،وتسمع لها صليلا . وتشمخ أقواس صخرية ذات هيبة وجلال ، وتطل على الماء من عليائها . وتبرز نتوءات حجرية مسننة ، يضربها الموج والزبد الأبيض بين الحين والآخر ، وتنعكس صورة بعضها الآخر فى مياه راكدة شديدة الاخضرار . . وتظهر على البعد كهوف ضخمة تحت الصخر ، وشعاب وشقوق تغرى السائح بالمغامرة والاندفاع إلى أعماق الجبل ، حيث الطريق إلى وادى كولمان .

فوق الربى والصخور تتسلق أعشاب وحوالق النباتات المتشابكة ، وتنمو الأشجار هناك أيضًا ، ولكن الرياح العنيفة الهادرة أحالت

الأشجار إلى نباتات معرشة ، حتى تشبثت بالوهاد المنحدرة . وتزحف أشجار البلوط على الأرض ، فى حين أغصانها معلقة فوقها ، كأنها سقف منخفض . وتمتد أشجار الزان بأطرافها الطويلة فى الوهاد والشعاب ، فتبدو وكأنها خيام ضخمة مورقة .

هذه السدود الجبلية الأخاذة ، المطلة من علياتها على البحر بلونه الأزرق ، ويعلوها هواء صافٍ يأسر الحواس ، هو ما يجعل كولابيرج عزيزة على نفوس الناس ، أثيرة لديهم ، ويحجون إليها جماعات وحشودًا غفيرة ، وتظل الوفود تأتى وتتتابع كل يوم من أيام الصيف . . لكن الأمر الأكثر صعوبة ، وأشد عسرًا ، هو أن تتحدث عما يجعلها جذابة تستهوى الحيوانات ، فتأتى إليها كل عام وتصبح مكانها المختار للقاء واسع شامل ، حيث تلعب وتمرح ... فهذه هى عادتها التى لاحظها الإنسان منذ زمن سحيق لا تعيه الذاكرة . ولعل من الأفضل أن يقصدها المرء مع أول موجة ترتطم بالشاطىء وتستحيل إلى زبد ، حتى يعرف لماذا اختارت الحيوانات كولابيرج مكانًا للقاء فضلته وآثرته على غيره من الأماكن .

عندما يحين موعد اللقاء ،تتهيأ حيوانات الأويل ، والرو ، والأرانب البرية والثعالب ، وكل ذوات الأربع لتبدأ رحلتها قبل الموعد بليلة واحدة ، خوفًا من أن يراها البشر ، وتتجمع قبل شروق الشمس فى الفناء الواسع ، وهو عبارة عن أرض بور منبسطة على لسان الطريق ، وغير بعيدة عن الجبل ، وتحيط بالفناء من كل جانب ربى ومرتفعات مستديرة ، تحف به ، وكأنها سور يخفيه عن الناظرين ، وليس من المحتمل فى شهر مارس أن يضل أحد الجوالة طريقه هناك . . ذلك أن أعاصير الخريف على مدى الشهور السابقة على الربيع تكون قد دفعت بعيدًا كل الغرباء

الذين يجوبون المنطقة حول الصخور ، أو يتسلقون سفوح الجبال . كذلك يهجر المنطقة فى هذا الوقت حارس المنارة ، والمرأة العجوز العاملة فى مزرعة الجبل ، والفلاح وأسرته . . كلٌ يذهب إلى حال سبيله ، حسب عادته ، ولا يرجع خلال هذا الفصل إلى تلك المستنقعات المهجورة .

وما إن تصل الحيوانات إلى الملعب ، حتى تتخذ أماكنها فوق الربى المستديرة ، وتتجمع كل عائلة حيوانية فى مكان تختصه لنفسها ، على الرغم مما هو مفهوم بينها فى يومٍ كهذا ، من أن السلام هو القانون العام السائد ، ولا حاجة لأن يخشى أحدها هجومًا أو غدرًا . ويستطيع أى أرنب برى ـ فى مثل هذا اليوم ـ أن يتجول حيث يشاء ،حتى ولو قصد تل الثعالب . . إن الحيوانات تنظم نفسها وفق عادة قديمة فى جماعات منفصلة متمايزة .

بعد أن تتخذ جميعها أماكنها المخصصة لها ، تبدأ فى البحث عن الطيور . ويتمتع هذا اليوم دائمًا بطقسه الجميل . وطيور الكركى خير من ينبأ بالأرصاد الجوية ، لهذا . . فإنها لا تدعو الحيوانات إلى التلاقى ، إذا توقعت سقوط الأمطار . وعلى الرغم من صفاء الجو . وعدم وجود شىء يحجب الرؤية ، إلاّ أن الحيوانات لم تر أثراً لطائر من الطيور . . بدا الأمر غريبًا ، فقد علت الشمس فى كبد السماء وحان الوقت لكى تعود الطيور .

وترقبت الحيوانات من ناحية أخرى السحاب المعتم القادم ببطء ليغطى السهل . وهاهى واحدة من هذه السحب تتقدم رويدًا رويدًا على طول الشاطىء ، ومتجهة ناحية كولابيرج ، وما إن غطت السحابة

أرض الملعب ، حتى توقفت ، وشرعت تغرد وَتسقسق ، وكأنها « كتلة » من الصوت . وأخذت تعلو وتهبط مرة ثانية وثالثة ، وهى تغرد وتسقسق، وأخيرًا سقطت السحابة كلها فوق ربوة ، فظهرت الربوة فى الحال مغطاة بطيور الحسون ، والزرزور ، والقرقف ، والدغناش ، وغيرها من الطيور المغردة ذات الألوان الزاهية .

سرعان ما أقبلت سحابة أخرى فوق السهل . . ظلت تتوقف فى مسيرتها فوق كل قطعة من الأرض . . فوق كوخ الفلاح والقصر ، وفوق المدن ، وفوق المزارع ، ومحطات السكك الحديدية ، وفوق قرى صيادى السمك ، وفوق مصانع تكرير السكر . وكلما توقفت لحظة ،سحبت إلى أعلى عمودًا صغيرًا حلزونيًا كأنه حبات رمادية اللون . . فكانت السحابة تكبر وتكبر كلما توقفت . . وتصاعد إليها هذا العمود . وأخيرًا تجمعت السحابة فوق كولا بيرج ، وإذا بها ليست سحابة ، بل كتلة ضخمة من الضباب ، ألقت بظلها على الأرض ، وحجبت الشمس حينًا عن الأرض ، ثم أمطرت عصافير رمادية هبطت فوق الربى .

لكن أضخم سحابات الطيور ، هى تلك السحابة التى ظهرت الآن . إنها تتألف من طيور هاجرت من كل ناحية من أرجاء الأرض لتلحق بالركب . . تبدو سحابة رمادية ضاربة إلى الزرقة ، كثيفة ، لا ينفذ منها شعاع الشمس ، تصدر عنها أصوات مروعة تثير الهلع . . وضحكات بغيضة ، ونعيق كئيب . . حيث تحولت ـ آخر الأمر ـ إلى عاصفة من الرفرفة والنعيب تهبط على الأرض : غربان ، وغدفان ، وغير ذلك من طيور من فصيلة الغراب .

تتابعت السحب فى السماء ، كما تتابعت أشكال أخرى ، تبدو خطوطًا

مستقيمة ، أو مرقطة ، قادمة من الشرق والشمال الشرقى . كانت هذه هى طيور الغابة : طائر الطيبوج الأسود الذى يطير فى صفوف طويلة، مثنى مثنى ، يبعد كل زوج عن الآخر بمسافة نصف متر تقريبًا ، وطيور السباحة التى تعيش حول منطقة ماكلايين أقبلت عائمة فوق بحيرة أورسند، متخذةً أشكالاً عديدة غريبة : مثلثات ، ومنحنيات ، وأنصاف دوائر .

أقبلت آكا وسربها متأخرة عن غيرها لحضور الاجتماع السنوى الكبير ، الذى سيشهده نلز لأول مرة فى حياته مع الإوز البرى . لم يكن غريبًا أن تحضر متأخرة لأن آكا اضطرت إلى التحليق فوق منطقة سيكان ، لكى تصل إلى كولابيرج . هذا . . فضلاً عن أنها بعد أن استيقظت ، تجولت حينًا للبحث عن طعام يأكله توميتوت ، الذى قضى ساعات فى محاولاته مع الفئران الرمادية ، وعرف كيف يغريها ويبعدها عن قلعة جليمنج . وعاد السيد بومة يحمل الأخبار بأن الفئران السوداء ستعود إلى موطنها فى التو والحال بعد شروق الشمس . إنه لا خطر ولا خوف الآن إذا سكت مزمار بوم الحظيرة ، وترك الحرية للفئران الرمادية لتذهب حيث تشاء ، كما يحلو لها .

لم تكن آكا هى التى اكتشفت الصبى نلز ، وعرفت طريقه ، حيث كان يسير ومن ورائه موكب الفئران الرمادية ، فانقضت عليه وحملته بمنقارها ، وأرجحته فى الهواء قليلاً ، قبل أن تعود به . . بل فعل هذا طائر اللقلق ، لأن السيد أرمنرخ خرج مع من خرج للبحث عنه . وبعد أن حمله عائدًا إلى عش طائر اللقلق ، سأله الصفح و العفو لمعاملته السيئة الليلة الماضية .

سر نلز لهذا الاعتذار ، وأصبح هو وطائر اللقلق صديقين . وكشفت آكا عن عطفها وحنانها عليه ، إذ كانت تمسح رأسها العجوز مرات ومرات على ذراعيه ، وتمتدح مساعدته لكل من وقع فى مأزق أو مشكلة .

لم يشأ الصبى تقبل مديح لا يستحقه ، وقال : « لا يا آكا ، لا تظنى أننى أغويت الفئران الرمادية ، ومضيت بها بعيدًا ، رغبةً منى فى مساعدة الفئران السوداء . . أبدًا ، إنما كل ما سعيت إليه ، هو أن أثبت للسيد أرمنرخ أننى أصلح لشىء ، وأن لى نفعًا وفائدة » .

فرغ نلز من كلامه فى اللحظة التى التفتت فيها آكا ناحية طائر اللقلق، لتسأله إن كان من المرغوب فيه اصطحاب توميتوت إلى كولابيرج وقالت : « أحسب أنه آن لنا أن نثق فيه مثلما نثق فى أنفسنا » .

وافق طائر اللقلق بحماس على الفكرة ، ووافق على السماح لتوميتوت بالذهاب إلى كولا بيرج ، وقال : « نعم ، نعم يا آكا ، هذه مسألة لا نقاش فيها . لابد أن تصحبى توميتوت معك إلى كولا بيرج . إننا سنكون سعداء الحظ حقًا أن نرد له ديننا ، جزاء ماقدمه من أجلنا هذه الليلة ، وحيث إننى لا زلت أشعر بأسف عميق ، نتيجة سلوكى غير المهذب معه ، لذلك . . قررت أن أحمله أنا على ظهرى طول الطريق حتى موقع اللقاء » .

إنه لشىء يثلج صدورنا كثيرًا أن نتلقى الثناء على لسان ذوى الحكمة والمقدرة . ولا ريب فى أن الصبى شعر بسعادة غامرة عندما تحدثت إليه الإوزة البرية ، وطائر اللقلق على هذا النحو .

وهكذا قام نلز برحلته إلى كولا بيرج على متن طائر اللقلق . . وعلى

الرغم من إدراكه لمعنى هذا الشرف العظيم الذى أسبغه عليه طائر اللقلق ، إلاّ أنه شعر بقلق شديد ، لأن السيد أرمنرخ يعتبر سيد الجو فى طيرانه ، وقد حلق فى الجو ، وطار بسرعة لم يعهدها مع الإوز البرى . . لقد طارت آكا ، واتخذت طريقها مباشرة إلى هدفها ، لا تحرك من جسمها غير جناحيها ، تضرب بهما الهواء ، بينما حرص طائر اللقلق على أن يتسلى ويمتع نفسه وهو يحلق فى الجو ، فيقوم بالعديد من حيل الطيران .

فها هو الآن يسكن فى مكانه بلا حراك ، وهو على ارتفاع شاهق ، ثم نراه يطفو على صفحة الهواء ، دون أن يحرك جناحيه ، ثم يدفع نفسه بقوة هابطاً إلى أسفل ، كأنما يغوص فجأة ، حتى خيل للصبى أنه سيهوى إلى الأرض لا محالة ، كقطعة حجر لا حول لها ولا قوة . راح يقوم بعد ذلك بعددٍ من الحيل والمناورات مع آكا ، فيدور حولها دورات صغيرة حينًا ، وواسعة حينا آخر ، كأنه دوامة أو إعصار . لم يكن للصبى عهد بمثل هذا النوع من الركوب .

على الرغم من الهلع الذى أحس به ، إلاّ أنه قال فى نفسه : « إن هذه أول مرة أعرف فيها معنى الطيران الجيد » .

توقف السرب عن الطيران مرة واحدة طوال الرحلة ، وذلك عندما لحقت آكا برفيقاتها عند بحيرة فومب ، وأخبرتهن بنبأ اختفاء الفئران الرمادية ، وبعدها استأنف الركب طيرانه إلى كولا بيرج .

هبط الجميع فوق الربوة المحتجزة للإوز البرى ، وسرح الصبى فى طريقه من ربوة إلى أخرى ، ورأى فوق واحدة منها عديدًا من فرق حيوان الوعل والإبل، ورأى فوق أخرى بعض الأعراف الرمادية لرقاب مالك الحزين . واصطبغت ربوة بلون أحمر، هو لون الثعالب التى تعلوها،

واصطبغت أخرى بلون رمادى ، هو لون الفئران التى تحتلها . وغطت ربوة غربان سود ، لا تكف عن النعيب ، وغطت ثانية طيور القبرة التى لا تكف عن الحركة ، ولا تسكن أبدًا ، بل تقذف نفسها إلى الهواء ، وتهبط بين حين وآخر ، وتملأ الجو غناء وتغريدًا ، وتشيع البهجة حولها .

وكما هى العادة . . بدأت الغربان حفل السمر فوق كولابيرج ، وقدمت أول ألعاب الاحتفال برقصتها الخاصة ، إذ قسمت الغربان نفسها إلى فريقين متباعدين ، ثم بدأ كل فريق يطير فى اتجاه الآخر ، ليلتقى الجمعان ، ثم يستديران ويعيدان الكرة مرة ، وثانية ، وثالثة . . رقصة رتيبة تثير الملل .

وبينما كانت الغربان مشغولة برقصتها ، سعد الآخرون بانتهائها ، إذ بدت هذه اللعبة للحيوانات الأخرى سخيفة كئيبة ودون معنى ، وكفت عن متابعتها ، وانتظرت فى لهفة لكى تشاهد ألعابًا أخرى ، تدخل البهجة على نفوسها .

لم يكن انتظارها دون فائدة ، إذ عندما انتهت الغربان من لعبتها ، أقبلت الأرانب البرية تعدو ، واندفعت فى صف طويل ، دون أى نظام . . أحيانًا أرنب وحده ، وأحيانًا ترى ثلاثة أو أربعة فى المقدمة ، ثم انتصبت واقفة على القدمين الخلفيتين ، وكانت تدور حول نفسها وهى تجرى وتقفز قفزات عالية فى الهواء ، تضرب بمخالبها الأمامية على جنوبها ، فتسمع لها صليلا . وأدى بعض الأرانب حركات وتقلبات متتابعة، بينما تزاوج فريق آخر، مثنى مثنى ، وتدحرج على الأرض . . ووقف أرنب على ساق واحدة ، وتمايل ، ودار حول نفسه . . وسار آخر

على قدميه الأماميتين . لم تكن هناك خطة محددة لألعابها ، ولكن تضمنت ألعابها عديدًا من الحركات المثيرة للضحك ، حتى تقطعت أنفاس الحيوانات الأخرى التى تشاهدها من شدة الضحك . وما المانع لهذا ؟! . . فها نحن فى فصل الربيع الذى تقبل معه النشوة والبهجة . لقد ولّى الشتاء ، وسوف يأتى الصيف بعد ذلك . إذن . . لنلعب حتى تبتهج لنا الحياة .

بعد أن خرجت الأرانب من حلبة الملعب ، تعدو فى صخب ، جاء دور طيور الغابة . . حلقت مئات من طائر الطهبوج بألوانها الزاهية ، وحواجبها الحمراء الغامقة . . وطارت من فوق شجرة البلوط القائمة فى وسط الملعب . انتعش الطائر الذى يحتل أعلى فرع فى الشجرة ، وخفض جناحيه ، ورفع ذيله ، حتى ظهر الزغب الأبيض . . ثم مد رقبته ، وانطلقت من حنجرته السميكة نغمتان عميقتان : « كاك كاك كاك» . وعجز عن أن ينطق أكثر من هذا ، واكتفى بصوت قرقرة صدرت عن حنجرته عدة مرات ، وبعدها أغمض عينيه ، وهمس : « سيس ـ سيس ـ سيس ». وكم كان هذا الهمس جميلا . وأصابته بعدها حالة من النشوة والبهجة الغامرة ، حتى لم يعد يدرى ماذا يدور حوله! .

وبينما أخذ طائر الطهبوج الأول يهمس بصوته ، شرع أقرب ثلاثة إليه بالجلوس تحته فى الفناء . وقبل أن يفرغ الثلاثة من الغناء ، بدأت العشرة التالية تنغم بالغناء ، وهكذا تزايد العدد من غصن إلى غصن ، حتى اشترك مائة من هذا الطائر فى التغريد والقرقرة والهمس ، وأصابتها جميعًا حالة النشوة وهى تغنى ، وانتقل أثرها إلى الحيوانات الأخرى ، كما تنتقل العدوى . وتدافع الدم ـ خفيفًا أول الأمر ، ثم ساخنًا ـ فى عروق

الحيوانات . . وقال كل حيوان فى نفسه : « حقًا ، هذا هو الربيع . لقد ولّى الشتاء ببرده القارص ،وهاهى حرارة الربيع تشيع الدفء على الأرض» .

عندما رأت طيور الطهبوج السوداء ماحققته طيور الطهبوج البنية من نجاح ، اندفعت إلى أرض الملعب ، فلم تعد تطيق صبرًا . وتوارت وراء شجيرات الخلنج ، ولم يعد يظهر منها غير ريش ذيلها الجميل بألوانه الزاهية ، ومناقرها الغليظة ، وأخذت تغنى : « اور . . اور . . اور . . »

لم تكد طيور الطهبوج السوداء تبدأ مباراتها مع طيور الطهبوج البنية ، حتى وقع حادث غير عادى لم يسبق له مثيل . . إذ بينما كانت كل الحيوانات تتابع المباراة ، ولا تفكر فى شىء سواها ، تسلل ثعلب ببطء ، وتسلق ربوة الإوز البرى ، انسل إلى المكان فى حذر شديد ، ثم قفز فوق الربوة مباشرة . ولمحته فجأة إوزة ، ولم تصدق نفسها . . وقأقأت صارخة بأعلى صوتها :

«حذار . . حذار . . أيها الإوز البرى . . حذار . . حذار . . » .
وانقض الثعلب ، وأطبق فكيه على رقبتها ، لعله أراد إسكاتها .

ولكن الإوز البرى البرى سمع صيحة الإنذار والتحذير ، وطار محلقًا فى الهواء ، وقد فوجىء المشاهدون حين رأوا الإوز يحلق عاليا ، واتجهت الحيوانات بأبصارها ، فرأت الثعلب واقفا فوق ربوة الإوز ، وبين فكيه إوزة .

وهكذا أفسد الثعلب السلام المعهود ليوم العيد ، وحطم التقاليد ، ففرضت عليه الحيوانات العقوبة ، جزاء ماقدم من عملٍ آثم ، وقضت

العقوبة بأن يظل طوال أيام حياته يعانى مرارة الأسى والندم ، لأنه عجز عن أن يتحكم فى شهوته للطعام والانتقام ، ولأنه حاول الاقتراب من آكا وسربها على هذا النحو الأثيم .

أقبلت على الفور جماعات حاشدة من الثعالب ، وأحاطت به تدين جرمه ، إذا انتهك حرمة تقاليد قديمة راسخة ، وأعلنت قرارها بأن كل من يفسد سلام هذا اليوم العظيم ، جزاؤه أن يعيش طريدًا فى المنفى. رفضت الثعالب جميعها تخفيف الحكم عليه ، خاصةً أنها لو حاولت ذلك، فإن مصيرها الطرد من الملعب ولن يسمح لها بمشاهدة الحفل ، أو الحضور والمشاركة فيه مرة ثانية . وأصدر مجلس قضاة الثعالب حكمه بالنفى بإجماع الآراء ، وحرم على الثعلب الآثم الإقامة فى سيكان ، بل وحرم من زوجته وأطفاله ، وأسقطت عنه كل حقوقه كمواطن ، فمنع من الصيد ، وحرم عليه البقاء فى البيت ، أو دخول الاستراحات ، وانتزعت أملاكه ، وقرر المجلس أنه إذا شاء تكوين ثروة جديدة ، فعليه أن يسعى إلى تحقيق ذلك فى أرض أجنبية بعيدة ، وصدر إعلان إلى كل الثعالب يؤكد أن الثعلب أصبح طريد العدالة ، وسقطت عنه حقوق المواطنة ، وأن أكبر الثعالب سنًا سيقضم شحمة أذنه اليمنى . بعد أن تمت كل هذه الإجراءات انطلقت صغار الثعالب تعوى لاعنة التعطش إلى الدم ، وانقضت على الثعلب المجرم .

لم يكن أمامه إلاّ أن يفر هاربًا ، ومن ورائه صغار الثعالب تطارده، وتدفع به بعيدًا عن كولابيرج .

حدث كل هذا ، فى حين طيور الطهبوج السوداء والبنية تواصل ألعابها

ومباراتها ، وذابت هذه الطيور مع تغريدها ، وفقدت إحساسها بنفسها ، فلم تسمع ، ولم تر شيئًا مما يدور حولها .

لم تشأ أن تدع شيئا يفسد عليها نشوتها وبهجتها .

لم تكد تنتهى مباريات طيور الغابة ، حتى تقدم فريق حيوان الآيل ليستعرض ألعابه فى المصارعة . . انتشرت أزواج عديدة من الآيل ، وتصارعت كلها مثنى مثنى فى وقتٍ واحد . كان يندفع كل واحد نحو خصمه بقوة عارمة ، فتتضارب قرونها وتتصادم ، وترتطم بعضها ببعض فى عنف ، حتى تتشابك سنونها ، ثم يحاول كلّ واحدٍ جذب الآخر وجره إلى الخلف . وتقطعت أغصان نبات الخليج وتناثرت تحت حوافرها ، وتصاعدت أنفاس حيوانات الآيل ، كأنها دخان من أنفها ، وتتابع الخوار عميقا من حلوقها ، وارتسم الزبد خطوطًا على كتفيها .

ساد صمت مطبق فوق الربى المحيطة ، وأمسكت الحيوانات أنفاسها ، فى الوقت الذى كان فيه الصراع دائرًا ، وحمى الوطيس ! .

استيقظت انفعالات جديدة فى أعماق الحيوانات ، وفى نفس كلٍّ منهم إحساس بأنه شجاع . . قوى . . مفعم بالحيوية والنشاط ، كأنه عاد إلى الحياة مولودًا جديدًا مع الربيع . . تشيع فى عروقه البهجة ، والرغبة العارمة للقيام بكل أنواع المغامرات .

ذابت مشاعر العداء ، على الرغم مما تراه هنا وهناك . . أجنحة ترتفع متصلبة ، وريش رقاب ، وأعراف تنتصب نافرة ، ومخالب تبرز حادة متشبثة ، ولو استمرت مصارعة الآيل لحظة أخرى ، لنشبت معركة حامية فوق الربى ، ذلك لأن كل حيوان اعتملت فى نفسه رغبة حارقة ،

ليكشف عما ثار فى عروقه من حيوية دافقة ، وليثبت أنه أيضًا قوى قادر، وأن فصل الشتاء ولّى بكل مافيه من ضعف ووهن ، وتدفقت الحمية قوية عارمة فى جسده .

توقف العراك ـ لحسن الحظ ـ فى اللحظة المناسبة ، وسرت فى التو همسة تناقلتها الربى : (طيور الكركى قادمة) .

أقبلت الطيور الرمادية بكسائها الأسود الفاحم ، تزهو بريش أجنحتها الكبيرة والزغب الأحمر يزين رقابها .

تحركت الطيور بجسمها الضخم وسيقانها الطويلة ورقابها الرشيقة ورؤوسها الصغيرة ، وهبطت فى تؤدة من فوق ربوتها ، تسير الهوينى فى حيوية حافلة بالأسرار .

بدت وهى تسير كأنها تخطر وتتمايل فى حركة ما بين الرقص والطيران .. أجنحتها مبسوطة فى رشاقة ملائكية ، وخطوها عدو ، كأنها سباحة فى الهواء ، تخالها أطيافًا رمادية تلعب لعبة لا تكاد العين تلاحقها .. لعلها تعلمتها من الضباب الذى يحوم فوق المستنقعات المقفرة ، ولكن سحرًا غامضًا يكتنفها ، ولهذا .. سميت حول الحفل الراقص الكبير باسم رقصة الكركى الساحرة .. نعم ، هى رقصة لا تخلو من عنف ، ولكنها توقظ فى النفس أحاسيس بهجة وتشوق ممتع لذيذ .

انتفت مشاعر العراك ، ولم يعد هناك من يفكر فى الصراع ، وتطلعت كل الحيوانات ، سواء ذوات الأجنحة ، أم غيرها إلى التسامى ، وتملكتها رغبة فى أن تحلق عاليًا فى الأبدية والخلود .. أن تحوم فوق السحاب .. تهيم باحثةً عما تخفيه وراءها .. تستكشف ماوراء حجب الغيب ،

وتمنت لو تخلت عن جسدها الثقيل الذى يشدها إلى الأرض ، وحلقت بعيدًا إلى اللانهاية .

هزها الوجد والشوق لبلوغ اللانهاية ، والتشوق إلى كشف حجج الغيب، واستكناه أسرار الحياة ، وهى أحاسيس ومشاعر تراود نفس الحيوانات مرة واحدة كل عام ، هو يوم العيد الذى تشهد فيه الحفل الراقص الكبير لطائر الكركى .

استمتع الإوز البرى بطقس جميل طوال إقامته هنا فى الجنوب . . ولكن مع أول يوم بدأ فيه رحلته ناحية الشمال . . أمطرت السماء ، واضطر الصبى إلى أن يلزم مكانه لساعات طويلة فوق ظهر الإوزة وابتلّ ، وسرت فى جسمه رجفة من شدة البرد .

مع الصباح تهيأ السرب لرحلة الشمال ، وقد بدا الجو صحوًا صافيًا . حلق الإوز البرى عاليًا فى الهواء . . آكا فى المقدمة تفرض نظاما صارمًا، وبقية السرب وراءها فى صفين مائلين .

لم يشأ الإوز أن يضيع وقته فى الصباح ، وإطلاق صرخات التهكم على الحيوانات الرابضة على الأرض ،ولكن الإوز أيضًا لايطيق الصمت . . لهذا بدأ يغنى فى إيقاع متناغم ، يضبطه بضربات أجنحته فى الهواء ، وغنى أغنيته المعهودة : « أين أنت ؟ هاأنذا . . أين أنت ؟ هاأنذا» .

شارك كل أفراد السرب فى هذا النداء ، وكان السرب يتوقف بين حين وآخر ، ليوضح لذكر الإوز الأبيض معالم المنطقة التى يحلق فوقها خلال الرحلة . هنا تلال ليندرودز . . وهذه مزرعة كريستيان ، وتلك كنيسة

ذات برجٍ عالٍ ، وهناك قلعة ملكية تطل على برزخ ، وبعدها هوة شديدة الانحدار .

بدت الرحلة أول الأمر رتيبة تثير الملل ، إلى أن تجمعت السحب الداكنة المطيرة ، عندها أحس نلز بتحول حقيقي . . كان فى أيامه الماضية إذا رأى سحابة مطيرة وهو واقف على الأرض ، تخيلها رمادية اللون، كئيبة الصورة . أمّا الآن ، فإنه يرى أمرًا مختلفًا تمامًا وهو وسط السحاب . هاهو ذا يرى السحب بوضوح ، وكأنها عربات مهولة تسير فى السماء بأحمالها الثقيلة . . البعض يحمل قربًا رمادية ضخمة ، والبعض يحمل براميل . . ومجموعة ثالثة شديدة الضخامة ، حتى إنها لتسع بحيرة كاملة ، وعربات صغيرة تحول جرارًا وزجاجات انطلقت وارتفعت عالية إلى عنان السماء . وفجأة . . وكأن هناك من أعطى إشارة ، فانصب الماء صبًا من الجرار والبراميل والزجاجات والقرب دفعةً واحدةً، وغطى وجه الأرض .

ما إن لامست بشائر الربيع الأرض ، وتردد صوت نقراتها المتلاحقة عليها ، حتى علت صيحات البهجة والفرح من كل صغار الطيور على الأشجار ، وفى البساتين والمراعى ، وردد الهواء صداها ، وقفز الصبى من مجلسه إلى أعلى ، وغنت الطيور :

« ها قد حان موسم المطر . . والمطر يعنى الربيع . . والربيع يمنحنا الزهور والخضرة . . والزهور والخضرة تحيا معها الديدان والحشرات ، والديدان والحشرات تمنحنا الطعام والوفرة والثمار والطعام الطيب ، وهو خير مافى الحياة من نعيم» .

وسعد الإوز البرى بالمطر الذى جاء ليوقظ النبات من نومه الطويل ،

وليحفر الجحور فى الثلج الذى يغطى سطح البحيرات . ولم يعد الإوز البرى قادرًا على الإمساك عن الهذر والمزاح ، وشرع يطلق صيحات مرحة يداعب بها الجيران .

عندما حلق فوق حقول البطاطس الغنية بثمارها ، صاح الإوز قائلا: « استيقظى أيتها الثمار ، وامنحى خيرك لطلابك . . ها قد أتى من يوقظك من نومك . كفى ما نعمت به من كسلٍ طويل» .

أطلق الإوز صيحات الاستنكار والتأنيب إلى البشر الذين هرعوا فى طريقهم لتجنب المطر : « لم العجلة ياهؤلاء ؟ ألا ترون السماء تمطر خبزًا وكعكًا ؟ » .

تحركت كتلة كبيرة من الضباب شمالاً فى خفة ونشاط ، حتى لاحقت الإوز ، وظن الإوز أنه يجر وراءه كتلة الضباب . وحين أبصر الإوز بساتين وحدائق غنّاء واسعة تكسو الأرض من تحته ، صاح فى فخر وكبرياء : « هانحن أقبلنا مع زهور شقائق النعمان . . أتينا مع الأزهار والورود ، أقبلنا مع زهرات التفاح وبراعم الكرز ، جئنا مع حبات البازلاء والفول وثمار اللفت والكرنب . . ثمار دانية ميسورة لمن يشاء» .

عبق الجو بأهازيج وغناء الأطيار . . فى حين بشائر الربيع تتساقط وتقرع الأرض ، ولا يزال المطر يشيع فى نفوس الكائنات وجنبات الأرض بهجة وحبورًا . ولكن استمر سقوط المطر إلى مابعد منتصف النهار ، مما أثار قلق الإوز البرى ، وصاح مناديًا العطشى حول بحيرة إيفوس : «ألم ترتووا بعد ؟ألم ترتووا بعد ؟ » .

تلبدت السماء ، وتكاثرت السحب الداكنة شيئًا فشيئًا ، وتوارت

الشمس ، حتى يعز على المرء تحديد مكانها . . وانهمر المطر مدرارًا ، وتزايدت سرعته ، واشتدت ضرباته لأجنحة الإوز قوةً وعنفًا ، حتى بلل الريش والزغب، ونفذ إلى الجلد . . وحجب الضباب الأرض ، واختلطت الجبال والبحيرات والغابات . . غابت كلها فى صورة غير واضحة ، ولم يعد بالإمكان تمييز معالم الأرض أو الطريق .أبطأ الإوز وتمهل ، وسكتت صيحات البهجة ودعابات المزاح ، واشتد إحساس نلز بقسوة البرد . ولكنه احتفظ بشجاعته طالما يركب الهواء .

حط السرب بعد الظهيرة تحت شجرة زان تقف وسط مستنقع كبير ، كل ما حولها مبلل ، تشيع فيه برودة قارصة ، وتنتشر حول المكان ربى عالية غطتها الثلوج وهضاب جرداء سابحة فى برك من ماء نصف متجمد. وظل نلز ـ على الرغم من كل هذا ـ محتفظًا بشجاعته وروحه المعنوية العالية . وانطلق يبحث عن توت برى ليأكله ، ثم حل المساء ، وسادت الظلمة ، واستحالت الرؤية ، وبدت البرية عابسة تثير فى النفس رهبةً وفزعًا .

التصق نلز بجسم ذكر الإوز الابيض ، متدثرًا بجناحه ، ولكن لم يغمض له جفن ، وعز عليه النوم لشدة البرد والبلل ، وتناهت إلى سمعه أصوات تهديد ووعيد ، وخطوات لها صليل وقعقعة وشلّه الفزع ، حتى لم يعد يدرى إلى أين المفر !

لابد أن يبحث له عن مكان فيه ضوء ودفء إذا شاء ألاّ يسلم نفسه إلى التهلكة . . وأخذ نلز يفكر . .

« . . آه لو واتتنى الجرأة وغامرت إلى حيث يوجد البشر لأقضى هذه

الليلة فحسب . . هذه الليلة فقط أجلس فيها أمام مدفئة ، أنعم بالدفء لحظة، وأجد بعض ما آكله ، ثم أكر عائدًا إلى الإوز البرى قبل شروق الشمس» .

زحف من تحت جناح الإوزة ، وانسل هابطًا إلى الأرض . لم يشأ أن يوقظ ذكر الإوز الأبيض ، أو أى إوزه أخرى ، بل انسل فى صمت وخلسة ، دون أن يلحظه أحد عبر المستنقع .

لم يكن يدرى أين هو على الأرض ، لكنه لمح على البعد قرية كبيرة ، فسار نحوها . مضى وقت طويل ، حتى عثر على طريق سار فيه حتى بلغ القرية ، وكان طريقًا طويلاً ممتدًا تحفه أشجار باسقة على الجانبين ، وتحده بيوت متلاصقة .

كانت البيوت مصنوعة من خشب ، ومبنية بناءً جميلاً للغاية . . أكثرها يعلوه (جمالون) ، وله واجهات تزينها حليات معمارية محفورة ، أبواب زجاجية ملونة ، تؤدى إلى شرفات واسعة ، وجدران البيوت مطلية بدهان زيتى خفيف يريح البصر . . وتتلألأ الأبواب وإطارات النوافذ بألوانها الزرقاء والخضراء . وسار الصبى فى طريقه يتطلع إلى البيوت ، وتناهت إلى سمعه أصوات الناس داخل بيوتهم الدافئة يثرثرون ويضحكون . لم يميز بوضوح كلماتهم ، ولكن سرّه كثيرًا أن يسمع أصواتًا بشرية .

قال فى نفسه : « لست أدرى ماذا عساهم أن يقولوا ، لو طرقت بابًا وسألت أهل البيت أن يسمحوا لى بالدخول ؟! » .

كان هذا هو ما اعتزم عمله . . ولكن الآن بعد أن رأى النوافذ

المضيئة، زال خوفه من الظلام ، بل عاوده شعور الخجل الذى كان ينتابه دائمًا كلما دنا من البشر . وقال فى نفسه : « ألقى نظرة على القرية فترة أطول قبل أن أسأل أحدًا السماح لى بدخول بيته » .

مر نلز ببيت له شرفة . . لم يكد يقترب منه ، حتى فتح باب الشرفة على مصراعيه ، وانسل ضوء أصفر من خلال الستائر الشفافة الرقيقة ، وأطلت من الشرفة امرأة جميلة فى ريعان الشباب . مالت المرأة فوق سور الشرفة ، وقالت :

« السماء تمطر . . لقد أقبل الربيع » . . أحس الصبى بشعور غريب عندما أبصر المرأة . . أحس وكأنه يريد أن يبكى . . فهذه أول مرة يشعر فيها بالقلق لابتعاده عن البشر .

بعد هذا مر بحانوت تقف أمامه مكنة حمراء لبذر الحبوب . توقف يتأملها ، ثم تسلقها ، وجلس فوق مقعد السائق . طرقع نلز بلسانه ، وتخيل نفسه سائقًا ، واتخذ مكانه أمام عجلة القيادة ، وانطلق بالجرار ، وقال فى نفسه : « إنها مزحة لطيفة لو سمحوا لى بالجلوس فوق هذا المقعد وقيادة آلة كهذه فوق حقل من حقول القمح » .

غفل نلز لحظة عن حقيقة صورته الآن ، ثم تذكر حالته ، وقفز بسرعة هاربًا من مكانه . . وانتابه إحساس بالغ بالقلق ، وأدرك أن البشر فى النهاية كائنات ذكية جادة ورائعة .

ثم مر بمكتب البريد ، وتذكر كل الصحف التى تصل يوميًا تحمل الأخبار من أركان الدنيا الأربعة ، وأبصر محل الصيدلى ، وبيت الطبيب ، وتأمل قدرة الإنسان وعظمته فى صراعه ضد المرض والموت ، وبلغ مكان

الكنيسة ، وفكر كيف أقامها البشر ليبتعدوا فيها عن الحياة إلى عَالَمَ روحانى آخر غير عالم الواقع الذى يعيشون فيه وينصتون إلى عظات عن الله ، والبعث ، والخلود. وكان كلما امتد به السير ، ازداد حبًا وإعجابًا بالبشر .

إن الأطفال لايفكرون فيما هو أبعد من أنوفهم . . الأقرب إليهم يظلمونه فورًا ، مهما كلفهم الحصول عليه . هكذا لم يدرك نلز هولجرسون مدى خسارته ، حيث آثر البقاء قزمًا مسحورًا ، ولكن هاهو الآن يستشعر فزعًا مروعًا ، خشية ألاّ يعود ثانية إلى سيرته الأولى بشرًا سويًا .

ياإلهى ، ماذا عساه أن يفعل ليعود إنسانًا سويًّا ؟ آه ، هذا ما ينشده الآن ، ويتمنى أن يعرفه .

زحف صاعدًا عتبة أحد الأبواب ، وقعد يتأمل تحت وابل المطر المنهمر. ظل قابعًا فى مكانه ساعة أو ساعتين ، غارقًا فى تفكيرٍ عميق . . وبدت أفكاره وكأنها شريط سينمائى يدور ويدور فى رأسه، دون أن يستقر . وكلما امتدت به جلسته ، تعذر عليه الوصول إلى حل أو قرار.

وأخيرًا ، قال فى نفسه : « إنه لأمر صعب وعسير على من هو قليل الخبرة مثلى ، ولعله ينتهى فى آخر الأمر بأن أعود بين البشر ثانيةً ، وسأكون مضطرًا أن أسأل الطبيب والمعلم وغيرهما من ذوى العلم والخبرة، فلعل لديهم الدواء لمثل هذا الداء » .

هذا ما انتهى إليه ، وقرر أن يفعله الآن وفورًا ، ونفض جسمه ليسقط ما علق عليه من بلل ، فقد تبلل ، حتى صار يشبه كلبًا سقط فى بركة ماء .

أبصر نلز هذه اللحظة بومة كبيرة تطير قادمة نحوه ، ثم حطت على شجرة من الأشجار التى تحف بطريق القرية . . وبعد لحظة صاحت بومة كانت راقدة تحت إفريز البيت . . . :

« كيفيت ؟ كيفيت؟ هل عدت إلى البيت ثانية ياسيد بومة ؟ هل قضيت وقتًا طيبًا فى الخارج ؟ » .

رد السيد بومة الرمادى : « شكرًا . . شكرًا . . أيتها السيدة بومة البنية اللون . حقًا ، كان وقتًا طيبًا ولطيفًا ومريحًا . . هل حدث شىء غير عادى أثناء غيابى ؟» .

ـ « لا ، لم يحدث شىء غير عادى هنا فى بليكنج ياسيد بومة ، بل حدث أمر غريب ومثير للدهشة . . هناك فى سيكين يقال : إن صبيًا سحرته جنية ، وحولته إلى قزم ، لايزيد حجمه عن حجم سنجاب ، وذهب بعد ذلك إلى لايلاند فى صحبة إوزة داجنة » .

ـ « هذا خبر غريب . . إنه لنبأ مثير حقًا . . أليس من المستطاع أن يعود بشرًا سويًّا ثانيةً ياسيدة بومة ؟ هل يستحيل عليه العودة ثانيةً إلى عالم البشر الأسوياء ؟ » .

ـ « هذا سر ياسيد بومة الرمادى . . . : إذا رعى الصبى ذكر الإوز ولم يفارقه ، فإنه سيعود إلى وطنه آمنًا مطمئنًا و ... »

ـ « وماذا بعد ياسيدة بومة البنية اللون ؟ ، وماذا أيضًا ؟ قولى ماذا أيضًا ؟» .

ـ « هيا اتبعنى ، وطر معى إلى أعلى برج الكنيسة ياسيد بومة الرمادى، وسوف أحكى لك القصة كاملة . . لأننى أخشى أن يكون هنا فى الطريق

من يسترق السمع». طارت البومتان إلى وجهتهما ، ولكن الصبى قذف بقبعته فى الهواء ، وصاح : « آه . . إذا أنا راعيت ذكر الإوز ولزمته ، فإننى سأعود آمنًا مطمئنًا سليمًا إلى وطنى ، هناك سأعود بشرًا سويًا من جديد . . هاها . . هاهاها ، سأعود بشرًا من جديد ! » .

ظل الصبى يصيح صيحة الفرح والاستحسان . . هاهاها . . ها ها حتى بدا له غريبًا أن أحدًا من السكان فى منازلهم لم يسمعه . . وأسرع عائدًا إلى الإوز البرى فى المستنقع .

اعتزم الإوز البرى أن يرحل شمالاً فى اليوم التالى ، فأرسل أوتسى وكاكى ليستكشفا الأرض الجديدة قبل الرحيل ، ولكنهما بعد أن عادا ، قالا : « إن المياه كلها متجمدة ، وإن الجليد يغطى كل الأرض». وقال الإوز البرى : « الأفضل أن تبقى حيث نحن الآن ، لأننا لا نستطيع الرحيل إلى بلد ، لا طعام فيه ولا مساء » .

قالت آكا : « إذا بقينا حيث نحن ، فقد نضطر إلى الانتظار هنا حتى القمر الثانى . ولعل من الخير أن نتجه شرقًا ، لنرى هل نستطيع الذهاب إلى سمالاند ، عن طريق الدور الواقعة بالقرب من الشاطىء ، إذ يحل بها الربيع مبكراً » .

وهكذا عبر نلز فى اليوم التالى فوق بلدة بليكنج ، راكبًا ظهر ذكر الإوز. وكانت السماء مشرقة ، وعاود نلز طبعه المرح ، ولم يعد يذكر أسباب ما حل به بالأمس . إنه بالتأكيد لا يود التخلى عن مواصلة رحلته وحياته الحرة الطليقة .

خيم ضباب كثيف فوق بلدة بلكينج ، واستحال على نلز أن ينظر إليها ، ويستشف صورتها من الخارج . وقال فى نفسه :

« ياحيرتى ، لست أدرى حقيقة البلد الذى أطير فوقه ، هل هو بلد غنى ، أم فقير فى جماله ؟ » . حاول نلز أن يشحذ ذهنه ،ويستجمع ذاكرته ، يبحث فيها عن معلوماته التى عرفها عن هذا البلد فى المدرسه ، ولكنه أدرك أنه لا فائدة من ذلك ، حين تذكر عدم استذكار دروسه باهتمام ومثابرة .

تراءت فجأة صورة المدرسة كلها فى خيال نلز . . الأطفال جالسون إلى مكاتبهم ، يرفعون أيديهم فى تنافس على الإجابة . . والمعلم جالس إلى مكتبه ، ينظر شزرًا ، ونلز واقفٌ أمام الخريطة ، يحاول عبثًا الإجابة على سؤال عن بليكنج، ولكنه صامت لا يفتح فمه بكلمة واحدة ، ولا يجد عنده ما يقوله . واكفهر وجه المعلم ، وازداد وجهه عبوسًا مع كل لحظة تمر . . ونزل المعلم من فوق منصته ، وطلب من الصبى العودة إلى مكانه .

قال نلز فى نفسه : « لن يمر هذا الحدث على خير » . اتجه المدرس . . ناحية النافذة ، وأطل منها لحظة ، ثم عاد إلى منصته ليقول إنه سيقص عليهم شيئًا عن بليكنج . . وقص عليهم حكاية مسلية ، أنصت إليها نلز باهتمام :

قال المعلم : « سمالاند بيت شاهق ، تعلو سطحه أشجار الصنوبر ، ويقود إليها سلم عريض له ثلاث درجات ، ويسمى هذا السلم بليكنج . . وهو سلم حسن البناء ،يمتد إلى مسافة اثنين وأربعين ميلاً عند مقدمة بيت سمالاند ، وكل من يرغب فى أن يقطع الطريق بطوله حتى يصل إلى البلطيق ، فعليه أن يتجول عبر ٢٤ ميلاً، هى طول الدرج .

ولابد أنه قد مضى زمن طويل منذ أن تم بناء هذا السلم من طوب

رمادى ، وتم تعبيده ، ليصبح طريقًا هينًا مستويًا ، يصل ما بين سهالاند وبحر البلطيق .

ونظرًا إلى أن هذا السلم قديمٌ جدًا ، فمن الطبيعى أن تختلف صورته الآن عما كان عليه قديماً . نحن لا ندرى إلى أى حد كانوا يشغلون أنفسهم بمثل هذه الأمور من الزمان السحيق ؟! لكن الدرج كبير وضخم ، بحيث لا توجد مكنسة تصلح لتنظيفه . . ولهذا . . لم يمض عامان ، حتى غطته الطحالب . وفى الشتاء غطته الأعشاب وأوراق الاشجار الجافة التى عصفت بها الرياح . وفى الربيع تكدست فوقه أكوام الأحجار والحصاء المتساقطة، وبقيت كل هذه الأشياء لتتألف منها فيما بعد تربة تصلح لإنبات أعشاب وشجيرات وأشجار مدت جذورها فيها .

حدث فى الوقت ذاته اختلاف كبير بين الدرجات الثلاث : الدرجة العليا ، وهى الأقرب إلى سهالاند ، تغطيها تربة فقيرة وحصباء ، ولا توجد بها أشجار غير أشجار البتولا والكرز ، وهى من الأنواع القادرة على تحمل برودة المرتفعات الشاهقة ، وتحتاج إلى ماء قليل . . ويدرك المرء حالة هذه التربة من فقر وجفاف عندما لايرى هناك غير مساحات صغيرة منزرعة ومقتطعة من أرض الغابات والمسافات البعيدة بين الكنائس . . ولكن تغطى الدرج الأوسط تربة أفضل ، ولا تتعرض لبرد شديد القسوة كالدرج الأعلى . ويمكن إدراك هذه الحقيقه فى لمح البصر، حيث نجد أشجاراً أكثر ارتفاعًا ، وأفضل نوعًا . . ونجد من بين هذه الأشجار شجر الأ سفندا ، والبلوط ، والأيزفون ، والصفصاف . والشىء الذى يلفت النظر ، اتساع مساحات الأرض المنزرعة ، والبيوت الجميلة الواسعة التى بناها الناس لسكناهم ، وتعمر الدرج الأوسط عديد من الكنائس

التى تتوسط مدناً واسعة تحيط بها . وهى فى مجموعها تعطى منظرًا جميلاً خلابًا، يفوق مانراه فوق الدرج العلوى .

الدرجة الدنيا هى الأفضل ، إذ تغطيها تربة طينية غنية . وتمتد هذه الدرجة منبسطة فى مياه البحر ، ولا تعرف قشعريرة البرد التى نجدها فى سمالاند . وترتفع فوقها أشجار باسقة من الزان والبندق والجوز ، حتى لتغطى أغصانها أسطح المعابد . وتكثر هنا حقول الحبوب الشاسعة كما لا يعيش الناس على الزراعة وقطع الأخشاب فقط ، بل يعملون بالصيد والتجارة والملاحة البحرية . . ولهذا . . نجد هنا أفخر البيوت ، وأروع الكنائس ، وأوسع المدن » . . ويضيف المعلم أيضاً :

« ليس هذا كل ما يمكن قوله عن الدرجات الثلاث ، إذ لابد أن ندرك أن السماء حين تمطر يسقط مطرها أولاً على سطح البيت الذى نسميه سمالاند ، وكذلك إذا ذاب الثلج عند القمم ، فإن المياه ستبحث عن مكان تذهب إليه . وطبيعى أن يتدفق الجانب الأكبر منها فوق الدرج . ومن المحتمل أنها تذوب أول الأمر ، لتغطى صفحة الدرج على اتساعه وضخامته ، ثم ظهرت شقوق وصدوع ، واتخذت المياه بعد ذلك مسارات ومسارب خاصة بها . والماء هو الماء ، مهما فعلنا معه . .

إنه لايهدأ ولا يسكن أبدًا . . نراه فى مكان يشق ويتسرب . . وفى مكان آخر يضيق ويتجمع . شق الماء كهوفًا وشعابًا وودياناً ، ونبتت الأشجار على تربة الوديان ، وتكاثفت وتشابكت ، حتى أخفت مجرى الماء الذى يشق طريقه إلى الأعماق ، وعندما يصل الماء إلى منبسط الدرج الذى يفصل بين درجة وأخرى ، يندرج الماء ويلقى بنفسه . ولهذا . . نرى الماء

يأتى مسرعًا قويًا عنيفًا ، يرغى ويزبد ،ويندفع بقوته الجبارة التى تدير الآلات والطواحين» . . ويستطرد المعلم قائلاً :

« ليست هذه هى كل قصة الأرض والدرجات الثلاث،ولكن يجب أن نكمل القصة ، ونحكى أنه فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، كان ماردٌ جبارٌ يسكن أعلى بيت سمالاند الكبير ،أقام هناك ،حتى أصبح شيخًا عجوزًا . . وبعد أن بلغ به السن عتيًا، وأصبح عجوزًا ، أصابه الوهن والتعب ، ولم يعد كما كان شابًا قادرًا على أن يقطع الدرج بطوله ليصيد سمك السلمون من البحر . . وأصبح يرى أن من الأوفق والأنسب له أن يصعد إليه سمك السلمون حيث يقيم ، لا أن ينزل هو إليه .

لهذا . . صعد المارد المسن العجوز إلى سطح بيته الكبير ، ووقف هناك يقذف بالحجارة فى اتجاه بحر البلطيق . كان يقذفها بقوة وعنف ، حتى تطير فى الهواء ، وتتجاوز كل منطقة بليكنج ، وتسقط فى البحر . وإذا سقطت الحجارة فى البحر ، قفز سمك السلمون فزعًا ، ولاذ بمجارى الماء فى بليكنج . . ثم يجرى عبر منحدرات المياه ويقفز عاليًا فى الهواء ليلقى بنفسه فى قوة وعنف فوق الشلالات ، ولا يتوقف إلا بعد أن يكون داخل سمالاند مع الناد فلمجوز » . . وينهى المعلم حديثه :

« أنه يمكن التثبت من صدق هذ القصة حين نرى عدد الجزر والألسنة الممتدة على طول شاطىء بليكنج ، وهى كلها ليست سوى الحجارة الضخمة التى ألقى بها المارد العجوز .

إن المارد جديرٌ بأن يعبر له شعب بلكينج عن شكره الجزيل ، وتكريمه

الجليل ، وذلك لأن سمك السلمون يعنى توفير فرص عمل رائعة ، ويمنح القوت والطعام لأكثرهم حتى يومنا هذا » .

بعد أن غادر الإوز البرى والثعلب بلدة سيكان ، لم يكن كلاهما يتصور أنه سيلتقى بالآخر ثانية ، ولكن حدث مالم يكن متوقعا ، إذ أخذ الإوز البرى طريقه إلى بليكنج ، وكذلك فعل الثعلب . الذى حرص على البقاء فى الأرجاء الشمالية للإقليم ،ولكنه لم يعثر هناك على حدائق وبساتين ، ولم يقع على مناطق للصيد زاخرة بالطعام والغزلان الشهية . . لذلك غلبه الاستياء ، وتملكه شعور السخط والنقمة ، دون أن يظهر عليه ذلك . . وذات يوم ، وبينما كان يتسكع بعد الظهيرة فى الغابة المهجورة الواقعة وسط بليكنج ، التى لا تبعد كثيرًا عن نهر روينى ، أبصر سرب إوز برى يحلق فى الهواء ، ولمح بينه إوزة بيضاء ، عرف فى الحال أنه وقع على بغيته .

شرع الثعلب على الفور فى إعداد خطة مطاردة الإوز البرى ، أملاً فى الحصول على وليمة طيبة ، ورغبة فى الانتقام من كل ماعاناه على يد الإوز من إذلال ومهانة . أدرك أن الإوز يطير متجهًا شمالاً صوب نهر روينى . ثم غيّر مساره ، واتبع النهر فى اتجاهه نحو الجنوب ، وفهم أن الإوز ينشد مكانًا للراحة والنوم على ضفة النهر . وراوده الأمل فى أن يتمكن من الإمساك بإوزتين دون عناء أو تعب ، ولكن بعد أن اكتشف الملاذ الذى لجأ إليه سرب الإوز ، لحظ أنه اختار مكانًا أمينًا ، وبقعةً حصينةً ، يستحيل عليه الاقتراب منها .

إن نهر روينى ليس مجرى واسعًا أو مهمًا ، ولكن الحديث يطول عنه

لشواطئه الجميلة الخلابة . . ذلك أن النهر فى مواضع كثيرة شق طريقه بين سلاسل من الجبال شديدة الانحدار ، تطل شامخة على المياه الجارية ، وبها مجموعة باسقة من أشجار الكرز والصفصاف ، ولن تجد هناك أجمل وأروح للنفس من رحلة تجديف على طول هذا النهر فى يوم صيفٍ رائق . . وتمتع ناظريك بالخضرة الناعمة اللاصقة بسفوح الجبال الوعرة .

حين وصل الإوز البرى والثعلب إلى النهر ، كان الطقس باردًا عاصفًا . . فالأشجار عارية جرداء . ولم يكن هناك فى ذلك الوقت من يفكر فى الشواطىء ، هل هى جميلة أم قبيحة ؟ . لقد اهتدى الإوز البرى إلى شريط رملى يسحبهم تحت سفح جبل شديد الانحدار ، وأمامهم يندفع النهر قويّا عنيفًا فى موسم ذوبان الثلوج ، وخلفه جبل شكّل جدارًا صخريّا تعذر اجتيازه ، وتظلّه أغصان الأشجار العالية .

استسلم الإوز للنوم فى التو واللحظة ، على عكس نلز الذى لم يغمض له جفن . وما إن توارت الشمس للمغيب ، حتى تملكه خوف من الظلام يفزع من البرية الموحشة ، وتمنى لو عاد بشرًا سويّا من جديد . لم يكن يرى شيئًا وهو فى مكمنه ملتصقًا تحت جناح ذكر الإوز ، ولكنه سمع بعض مايدور حوله ، وجال بخاطره أنه لن يقوى على إنقاذ ذكر الإوز لو أصابه ضرر .

تواترت إلى سمعه أصوات ضجيج وحفيف وخشخشة ، فتزايد القلق فى نفسه ، وبدأ يزحف خارجًا من تحت جناح ذكر الإوز ، ثم جلس على الأرض بجانبه .

اعتلى الثعلب قمة الجبل حزينًا خائب الأمل ، وأطل ناحية الإوز البرى وقد تدلى فكه ، وقال فى نفسه :

« لعل من الخير أن أتخلى عن هذه المطاردة ، إذ لن أستطيع تسلق جبل شديد الانحدار وعر كهذا الجبل ، ولن أستطيع العوم فى تيار هائج جامح كهذا . . فضلاً عن أننى لن أجد لنفسى موقعًا لقدم على سفح الجبل ، حتى أشق طريقى إلى المكان الذى ينام فيه الإوز . يالحكمة هذا الإوز . . إنه أحكم مِـنِّـى إذ الخير كل الخير فى أن أكف عن هذه المطاردة، وأقلع عن هذه المحاولة » .

لكن الثعلب وجد من العسير عليه أن يقلع عن عمل بدأه ، ولهذا . . ربض على الطرف الأقصى من حافة الجبل مثبتًا نظره على الإوز . . وبينما كان رابضًا يرقب الإوز ، دارت بمخيلته كل الآلام والمتاعب التى لاقاها على يد الإوز . نعم ، إنه السبب فى طرده بعيدًا خارج سيكان، واضطراره إلى أن يلوذ بمكان قفر فقير مثل : بليكنج ، لا طعام فيه . . وتذكر كل ماقاساه على يد الإوز البرى ، وتمنى له الموت ، حتى لو لم يشف غليله بالتهام الواحدة تلو الأخرى .

وبينما الثعلب يجتر غيظه ، بلغ ذروته ، وسمع صريرًا فوق شجرة زان ملاصقة له . رفع ناظريه ، فأبصر سنجابًا يهبط من فوق الشجرة ، فى إثره حيوان السنسار . كانت مطاردة حامية الوطيس . . لم يلحظ أحدهما الثعلب الذى قبع هادئًا يرقب المطاردة التى امتدت من شجرة إلى أخرى . تطلع الثعلب إلى السنجاب الذى أخذ يتنقل من غصن إلى غصن فى خفة ورشاقة ، كأنه يكاد يطير فى الهواء ، وتطلع إلى السنسار الذى لم يكن فى مهارة طريدته فى تسلق أغصان الأشجار ، ولكنه أصر على ملاحقته ، وقال الثعلب لنفسه : « لو أن لى نصف قدرتها على التسلق، لما هدأ لفريستى هناك بال ، ولا غمض لها جفن» .

ما إن وقع السنجاب فريسة وتوقفت المطاردة ، حتى نهض الثعلب متجهًا ناحية السنسار ، ولكنه وقف على بعد خطوتين منه ، علامة على أنه لا يضمر له غدرًا أو خيانة . حيا الثعلب السنسار تحية ود وصداقة ، وتمنى له حظًا سعيدًا ، وطعامًا شهيًا مع فريسته وكان واضحًا أن الثعلب يهتم بانتقاء كلماته جيدًا ، كما هى عادة الثعالب دائمًا . . ولكن السنسار على العكس من ذلك . . لم يرد عليه بكلمة واحدة ، وإنما ظل فى مكانه بجسمه الطويل الرشيق ، ورأسه الدقيق ، وجلده الناعم الصقيل ، ورقبته البنية اللامعة ، وكأنه قطعة من الجمال الأخاذ .

ثم استطرد الثعلب قائلاً : « يدهشنى أن صيادًا ماهرًا مثلك يقنع بمطاردة السنجاب ، وهناك فى متناولك فرائس أفضل وأشهى » . وتوقف الثعلب عن الكلام لحظة ، ولكن حين كشف السنسار عن ابتسامة عريضة ، واصل الثعلب حديثه قائلا :

« ألم تر الإوز البرى القابع هناك عند سفح الجبل ، أم أنك لا تجيد التسلق ، بحيث يمكنك النزول إليهم ؟ » .

لم يكن الثعلب بحاجة هذه المرة لانتظار الإجابة ، إذ اندفع السنسار نحوه وانقض عليه ، وقد تقوس ظهره ، ونفر شعره ، وهمس قائلا : «هل رأيت إوزًا بريًا ؟ أيـن هـو ؟ قل ... أجب فورًا ، وإلاّ سأقطع رقبتك» .

ـ « لا ! . عليك أن تتذكر أننى أعدل حجمك مرتين ، لذلك . . فالزم بعض الأدب . . إننى لا أسأل شيئًا غير أن أريك الإوز البرى » .

لم تمض لحظة ، حتى كان السنسار فى طريقه هابطًا المنحدر ، فى حين جلس الثعلب يرقب كيف يؤرجح جسده الثعبانى من غصنٍ إلى غصن ،

ويقول فى نفسه : « هذا قناص الغابة الجميل ، ولكنه يحمل أخبث قلب عرفته الغابة كلها . أحسب أن الإوز البرى سيحملنى على أن أشكره على هذه الصحوة الدموية » .

ولكن بينما كان الثعلب أيضًا ينتظر سماع حشرجة الإوز ، أبصر السنسار يتعلق من غصن إلى غصن ، ثم يلقى بنفسه فى ماء النهر ، فيتدافع رذاذه عاليًا ، وسرعان مارفرفت الأجنحة ، وضربت الهواء بقوة ، وهرع الإوز محلقًا بسرعة فى الفضاء .

فكر الثعلب فى أن يسرع فى أثر الإوز ، ولكنه أراد أن يعرف أولاً كيف أفلتوا ؟! . . لذلك ظل رابضًا فى مكانه ، حتى عاد إليه السنسار المسكين غارقًا فى الوحل ، وراح يتوقف بين الحين والآخر ليمسح رأسه بقدميه الأماميتين .

قال له الثعلب بسخرية وازدراء : « أليس هذا ما تصورته ؟ . . إنك غافل أبله . أذهبت لتقع فى النهر ؟ » .

قال السنسار : « لست غافلاً أبلهًا ولم أتصرف على هذا النحو ، ولاحاجة بك لتأنيبى . لقد تربصت بالإوز ومكثت فوق أقرب غصن إليه ، وفكرت ودبرت الوسيلة التى تمكننى من ان أبطش بهم جميعًا ، وأمزقهم إربًا . . لولا أن كائنًا صغيرًا ضئيل الحجم لا يزيد على حجم السنجاب قفز إلى أعلى ، وقذفنى بحجارة أصابت رأسى إصابة بالغة ، ألقت بى من فوق الغصن إلى ماء النهر ، وقبل أن أتمالك نفسى لأخرج من النهر . . » .

لم يشأ السنسار أن يزيد ، فلم يجد أمامه من يستمع إليه . . إذ تركه الثعلب ليقتفى أثر الإوز البرى .

فى هذه الأثناء . . طارت آكا صوب الجنوب ، بحثًا عن مكان جديد للنوم. كان الوقت وقت الغسق ، والقمر بدرًا ، مما أتاح لزعيمة الإوز أن تبصر طريقها مع بصيص النور . ولحسن الحظ أنها تعرف دروب هذا المكان ، إذ كثيرًا ماقذفت بها الرياح إلى هذا المكان أثناء رحلاتها مع مقبل الربيع فوق بحر البلطيق .

تتبعت مسار النهر وهى تراه يتلوى وسط الحقول فى ضوء النهار ، أشبه بثعبان أسود لامع . وواصلت طيرانها حتى بلغت منطقة يتوارى فيها النهر ويتخفى فى قناة تحت باطن الأرض ، ثم يبدو رائعًا صافيًا شفافًا، كأن مياهه قطع من البلّور ، تندفع عبر شق ضيق وتصطدم بقاعه ، فتنكسر وتتحول إلى قطرات تتلألأ وهى تتطاير ، وترقد بعض الحجارة عند قاعدة مساقط المياه بينها كشلال هادر جبار ووحشى . وفى هذا الموضع حطت آكا ، فهذا مكانٌ آخر ملائمٌ للنوم ، خاصةً فى وقت متأخر من الليل ، يسكن فيه البشر ، ولولا غروب الشمس ، لما حط الإوز هنا ، نظرًا إلى أن المنطقة خلو من أى عشب.

المكان هنا مثل سابقه . ولم يذهب الظن بأىٍّ من المسافرين بأنه قادم إلى مكان رائع الحسن ، ذائع الصيت ، بل استشعروا خوفًا وفزعًا من الوقوف والنوم فوق حجارة مبتلة زلقة وسط شلال هادر ، لكن كان عليهم أن يقنعوا بذلك إذا شاءوا توفير الأمن والحماية لأنفسهم من الوحوش المفترسة .

استسلم الإوز للنوم على الفور عدا نلز الذى لم يجد راحته فى النوم ، وآثر أن يقبع بجانب الإوز يحرسه .

بعد قليل ، أقبل الثعلب سمر يعدو على طول ضفة النهر . . وتحسس المكان الذى توقف فيه الإوز . . وأدرك أن الإوز اختار هذه المرة أيضا مكانًا حصينًا تحيط به شلالات وتيارات مائية هائجة هادرة مدمرة، وأنه لن يستطيع الاقتراب منه ، ولكنه أبى التخلى عن محاولته، بل ربض على الشاطىء يرقبه. وأحس بالخذلان والمهانة ، وضياع شهرته كقناص ماهر .

لمح سمر فجأة ثعلب ماء يخرج زاحفًا من بين الشلالات ، وفى فمه سمكة . . اقترب منه الثعلب سمر ، ولكنه توقف على بعد خطوتين ، ليبين له أنه لا يعتزم اختطاف فريسته منه .

قال له الثعلب سمر : « يدهشنى أن تقنع بصيد سمكة ، فى حين الإوز يملأ أنحاء الأرض من حولك » . . كان الثعلب سمر متلهفًا ، حتى إنه لم يحسن انتقاء وترتيب ألفاظه . ولم يلتفت ثعلب الماء ناحية النهر ، إذ كان صعلوكًا متشردًا مثل كل ثعالب الماء ، وسبق له أن اصطاد الكثير من السمك فى بحيرة فومب ، ولعله عرف هناك الثعلب سمر .

فقال : « أعرف سلوكك جيدًا حين تريد الخداع للحصول على سمكة من السلمون المرقط أيها الثعلب سمر» .

قال الثعلب سمر مبتهجًا : « أوه ، هل هو أنت جريب ؟ » لقد عُرف أن ثعلب الماء هذا ـ دون سواه ـ سباح سريع ماهر . . استطرد الثعلب سمر قائلاً : «لا يدهشنى عدم اكتراثك بالإوز البرى ، طالما أنك لا تملك

وسيلة للوصول إليه » ولكن ثعلب الماء أبى أن ينسب إليه العجز عن السباحة فى شلال ماء ، وهو السباح الماهر ، وله ذيل صلب يستخدمه كمجداف ، وجلد لا ينفذ منه الماء . واستدار ناحية النهر ، فما إن وقع بصره على الإوز البرى ، حتى ألقى السمكة بعيدًا من بين فكيه ، واندفع يعدو هابطًا المنحدر ، وألقى بنفسه فى النهر .

لو حدث فى وقت متأخر قليلاً من موسم الربيع ، وطيور العندليب تملأ المكان ؛ لغنت كلها أيامًا وأيامًا إعجابًا بصراع ثعلب الماء جريب مع تيارات النهر وشلالاته الهادرة ، ذلك أن الأمواج العاتية ردت بثعلب الماء بعيدًا ، وقذفته إلى أعلى النهر ، ولكنه ثابر وكافح فى إصرار وعناد، حتى اقترب من بعض الحجارة ، فتسلقها ودنا رويدًا رويدًا من الإوز البرى .

كانت رحلة خطرة مهلكة ، جديرة بأن تثنى عليها طيور العندليب ؛ فتملأ الجو غناءً وشوقًا .

جاهد الثعلب سمر فى اقتفاء أثر ثعلب الماء بعينيه قدر استطاعته ، ورأى أخيرًا ثعلب الماء يتسلق الجبل فى عناء ، ليصل إلى الإوز البرى . ولم يكد يقترب من بغيته ، حتى دوت صرخة حادة وحشية ، وارتد ثعلب الماء ساقطًا فى النهر ، كأنه قطة عمياء . وانطلقت على الفور قأقآت عالية متتابعة ، وصحبتها ضربات قوية بأجنحة الإوز فى الهواء ، الذى حلق عاليًا ، وطار باحثًا عن مكان آخر للنوم .

أسرع ثعلب الماء بالخروج إلى اليابسة ،وظل صامتًا لا ينبس ببنت شفة، يلعق إحدى قدميه الأماميتين . وعندما سخر منه الثعلب ، انفجر فيه قائلاً : « ليس خطأ سباحتى ياسيد سمر . لقد غلبت الموج ، وأسرعت

فى طريقى إلى الإوز ، وأوشكت على الإمساك به حين ظهر كائن صغير ضئيل الجسم ، وأقبل يعدو ، ووخزنى فى قدمى بشىء معدنى حاد. آلمتنى الوخزة ألمًا شديدًا ، حتى فقدت الإحساس بقدمى . ولم أكد أرفعها ، حتى جرفنى التيار » .

كف عن الكلام ، ولم يكن بحاجة إلى مزيد . . فقد تركه الثعلب سمر ، وانطلق يعدو فى أثر الإوز البرى .

مرة أخرى اضطرت آكا إلى أن تطير وسربها ليلاً . ولحسن الحظ . . لم يغب القمر . . فلا تزال بقية ضوئه ترسل نورها إلى الأرض . واستعانت آكا بضوء القمر للبحث عن مكان آخر للنوم ، وهى الخبيرة بدروب المنطقة . واتجهت جنوبًا ، متتبعةً مسار النهر الفضى الوضاء وواصلت طيرانها ، حتى حلقت فوق جنوب المدينة على مسافة قريبة من البحر ، حيث تقع مصحات نهر رونبى وحماماته ، والفندق الكبير ، وأكواخ عطلة الصيف ، التى تستقبل ضيوفًا أثناء فصل الربيع أيضًا . . بدت كل هذه الأماكن خاوية ، مقفرة ، مهجورة فى الشتاء ، وهى أماكن تعرفها الطيور جيدًا ، وتعرف متى ترتادها وهى تنشد مأوى لها فوق أسوار الشرفات وقت العواصف والأعاصير .

حط الإوز فوق إحدى الشرفات ، وأسلم نفسه ـ كما هى عادته ـ للنوم فورًا ، ولكن الصبى ـ على العكس من ذلك ـ لم ينم ، إذ أحس برغبة فى البقاء ، حيث هو تحت جناح ذاك الإوز ، ولا حاجة به لأن يزحف خارجا .

تطل الشرفة على البحر . . ووجد الصبى فرصته للتطلع إليه . . سرح

الصبى ، ممتعًا ناظريه بجمال البحر ، وسحر الطبيعة الأخاذ حين يلتقى البحر بالأرض .

ها أنت ذا ترى البحر واليابسة يلتقيان فى صور جد مختلفة . . ففى مواضع كثيرة ، تهبط الأرض للبحر فى صورة مروج منبسطة متشابكة ، وفى أماكن أخرى يلتقى البحر بالأرض برماله التى تتكدس فى صورة ربى وأكمات وتلال . ويخيل للرائى وكأن أيًا منهما يكره الآخر كراهية تدفعه إلى أن يكشف سوءات الآخر ، ولكن يحدث أحيانًا أن تهبط اليابسة إلى البحر فتقيم أسوارًا من التلال فى مواجهته ، وكأن البحر مخلوق قوى البأس ، شديد الخطر ، فتحاول أن تدفع عنها غائلته . . وإذا فعلت اليابسة ذلك . . صعد إليها البحر غاضبًا هائجًا ، يضرب ويلطم ويزأر ويجلد الصخور ، وكأنه يود لو يمزق التلال وينسفها نسفًا .

لكن لقاء البحر باليابسة مختلف عن هذا تمامًا فى بليكنج . هنا تتكسر الأرض على شكل ألسنة برية ممتدة فى الماء ، وجزر كبيرة وصغيرة ، ويوزع البحر نفسه ، وينقسم إلى خلجان وألسنة بحرية . ولعل هذا هو ما يدعونا إلى الظن بأن لقاءهما مزاجه السعادة والتناغم والاتساق .

لنتأمل أولاً البحر . . نراه على البعد مسطحًا واسعًا مهجورًا ، خاويًا ، لا يفعل شيئًا غير دفع موجاته الرمادية المتلاطمة فى جنون . . وإذا أقبلت نحو الشاطىء ، اصطدمت بأول الحواجز الصخرية ، فتقهرها وتمزقها ، وتفتت كل ماهو أخضر ، وتصبغه بلونها الرمادى . . ثم تلتقى بحواجز صخرية أخرى مرة ، وثانية ، وثالثة ، ويفعل البحر معها مثل مافعل مع الأولى . . ينتزعها ، ويقتلعها ، وكأنها وقعت فى يد قاطع طريق

. . ثم تتقارب الصخور أكثر فأكثر ، وتتلاحم معًا ، حتى يدرك البحر أن الأرض إنما بعثت أصغر أطفالها رسولاً ، يسأله الشفقة والرحمة . . فيهدأ البحر ويلين ، ويكون أكثر ودًا كلما ابتعد فى طريقه عن اليابسة ، ويخفف من أمواجه ، وتخف حدة عواصفه ، ويدع النباتات الخضراء فى شقوقها ، ويقسم نفسه إلى ألسنة بحرية تتخلل اليابسة ، ويصنع الجزر الصغيرة ، حتى ينام وديعًا على سطح الأرض ، فتتشجع القوارب الصغيرة على الاقتراب منه ، والطفو فوق سطحه . لقد تغير البحر تمامًا . . فلم يعد هو نفسه مثلما كان وديعًا ودودًا حانيًا .

لنتأمل الآن منحدر التل . إنه يبدو رتيبًا متماثلاً فى كل أنحائه ، تغطيه حقول حبوب منبسطة ، تتخللها بساتين من شجر البتولا ، تخاله لم يعبأ بشيء سوى الحبوب ونبات اللفت والبطاطس ، وأشجار الصنوبر والزان ، ثم يقطعه فليج بحرى ، ويبدو كأنه بحيرة عذبة . وتأتى بعد ذلك موجة تشق طريقها إلى الداخل ، ولا يكترث بها التل . ويتسع الخليج ، حيث يتخذ لنفسه مكانًا منفصلاً ، ويقول التل : « أحسب أن البحر قادم بنفسه ، فأتزين وأتجمل له ، فتكللنى الأزهار طولاً وعرضًا ، وتصنع الجزر فى البحر ، وتتجمل أشجار البلوط الضخمة ، وأشجار الكستناء والزيزفون ، وتعريشات البساتين المورقة المزهرة ، فيبدو كبستان بهى رائع فائق الجمال وإذا التقيت بالبحر ، أضحى شيئًا آخر تمامًا . . ومن شاء أن يمتع ناظريه بهذا الجمال الطبيعى الفتان ، فإن موعده فصل الصيف » .

ولقد أدرك نلز الطبيعة الفاتنة الودودة ، فأحس بهدوء وسكينة ، على عكس ما كان فى الليلة الماضية . وفجأة سمع نباحًا حادًا قبيحًا ينبعث من

البستان . انتصب نلز واقفًا ، فأبصر فى ضوء القمر ثعلبًا رابضًا فوق الإفريز تحت الشرفة . هاهو الثعلب سمر عاد أدراجه ، ليقتفى أثر الإوز مرة ثانية ، بيد أنه حين عرف مكان الإوز المختار ، أدرك ألاّ سبيل أمامه للوصول إليهم ، فلم يسعه إلاّ النباح يأسًا وخذلانًا .

استيقظت الزعيمة آكا من نومها على عواء الثعلب .. عرفته من صوته ، دون أن تراه ، وقالت : « إنه أنت يا سمر عدت إلينا الليلة » .

أجاب الثعلب سمر : « نعم ، إنه أنا . جئت لأسأل عن رأيك فى ليلة الأمس » .

سألته آكا : « هل تعنى أنك أنت الذى أرسلت السنسار وثعلب الماء لافتراسنا ؟ » .

قال الثعلب الجميل : « لا أنكر ذلك . لعبتم معى قليلاً لعبة الإوز . . وهاأنذا بدأت ألعب معكم لعبة الثعلب . ولقد اعتزمت ألا أمهلكم ، ولن أدع واحدة منكم تنعم بالحياة ، بل سأتعقبها حتى آخر العالم » .

قالت له آكا باستنكار : « بل أحرى بك أنت أيها الثعلب سمر أن تفكر فيما إذا كان من حقك ـ وأنت المسلح بأسنان ومخالب ـ أن تصطادنا على هذا النحو ، ونحن العزل بغير وسائل للدفاع !» .

ظن الثعلب سمر أن صوت آكا ينم عما حل بها من هلع ، فسارع بالقول : « إذا رأيت يا آكا أن تلقى بهذا المدعو توميتوت ، الذى اعتاد أن يقف فى طريقى ، وتركته لى ، فإننى أعدك بأن أعقد سلامًا معك . أقسم أننى فى هذه الحالة لن أتعقبك أنت أو أيًا من أفراد سربك » .

ردت آكا على الفور : « لا ، لن أعطيك توميتوت ، وسوف نفديه جميعًا ، ابتداءً من أكبرنا إلى أصغرنا » .

قال سمر : « إذًا أنتم معجبون به ، حريصون عليه ، لذا . . أعدك بأنه سيكون أول فريسة لى أثأر منها لنفسى » .

صمتت آكا ولم ترد . . وبعد أن عوى الثعلب سمر ، ساد الصمت قليلاً ، وظل نلز يقظًا طوال هذا الوقت ، فلقد استأثرته كلمات الثعلب ، وحالت بينه وبين النوم . لم يدر بخلده يومًا ، ولا رأى فى أحلامه أنه سيسمع كلامًا عظيمًا مثل الذى سمعه عمن يعتزم أن يفتديه بحياته ، ويخاطر بنفسه ، من أجله هو .

منذ هذه اللحظة . . لم يعد بالإمكان القول بأن نلز هولجرسون لن يعبأ بأحد .

* * *



الفصل الثالث

3

كانت ليلة مقمرة فى كارلسكونا ، هادئة جميلة . . بعد أن كانت فى مطلع النهار ممطرة عاصفة . . ويبدو أنه استقر فى روع الناس أن الطقس العاصف الممطر لايزال سائدًا ، إذ لم يخاطر أحدهم بالخروج إلى الطرقات .

وبينما رقدت المدينة ساكنة مهجورة ، أقبلت آكا زعيمة الإوز البرى ، ومن ورائها سربها ، يحلق صوب المدينة . كان الإوَزّ قد انطلق فى رحلته مع غروب شمس الأمس ، باحثًا عن مكان فوق الجزيرة يأوى إليه ، وينام فيه . لقد تعقبه الثعلب حيثما هبط ، مما أثار فى نفسه الخوف والفزع ، فهجر اليابسة ، وهرع طائرا ينشد مكانًا آخر .

وبينما حلق الصبى مع الإوزة عاليًا فى الهواء ، تطلع ببصره إلى البحر ، يتأمل الجزر التى تناثرت فوق سطحه أمام عينيه ، وبدا كل شىء غريبًا جدًا ، وكأنه أشباح . لم تعد السماء زرقاء ، بل كرة زجاجية خضراء . . والبحر أبيض فى لون اللبن . . والبصر على امتداده ، يرى موجات بيضاء صغيرة تدور وتلتف ، وقد تزينت بثنيات من فضة . ووسط هذا البياض الشاسع الفسيح ، ترقد جزر عديدة صغيرة ، وكأنها بقع سوداء . . حتى

البيوت والكنائس والطواحين التى كان يراها الصبى قبل ذلك حمراء أو بيضاء ، بدت سوداء تحت لون السماء الأخضر .

خيل إلى نلز أنه فى عالم آخر . طاف بخاطره أنه يريد أن يكون هذه الليلة شجاعًا . . لا يخاف ، وذلك حين أبصر شيئًا أدخل إلى نفسه الرعب حقًا . . أبصر جزيرة صخرية تغطيها كتل من الصخور الضخمة الخشنة المسننة ، ولمعت من بين الصخور بقع من الذهب المتألق البراق .

لم يتمالك نفسه من التفكير فى أقزام الجن التى تحكى عنها أساطير بلاده ، وكيف أقامت قصرًا فوق أعمدة عالية من الذهب . وقال فى نفسه : « لعله كان كذلك» .

لكن الحجارة لم تكن لتعنيه كثيرًا ، لولا تلك الأشياء البشعة التى تحف بالجزيرة من كل جانب . . إنها تبدو وكأنها حيتان ، وأسماك القرش ، وغيرها من وحوش البحر الضخمة الشوهاء ، إلاّ أن نلز تخيلها أقزام تسكن البحر ، وقد تجمعت حول الجزيرة ، معتزمة الزحف إلى اليابسة ، لكى تقابل أقزام الجن البرية التى تسكن الجزيرة . . وخيل إليه ، وكأن أقزام الجن البرية خائفة مذعورة ، لأنه أبصر ماردًا ضخمًا أعلى مكان فى الجزيرة ، وقد رفع ذراعيه إلى أعلى ، وكأنه يائس من سوء المصير الذى ينتظره فوق جزيرته .

تملك نلز خوف غير يسير ، حين أدرك أن آكا بدأت تهبط فوق هذه الجزيرة على وجه التحديد ، وقال فى نفسه : «لا ، لا ، الرحمة بى . يجب ألاّ تهبط هنا » .

لكن الإوز أخذ يهبط ويدنو من الأرض رويدًا رويدًا . وسرعان ما أدرك

الصبى فى دهشة وذهول أنه أخطأ تمامًا فى تصوره للأشياء . . فلم تكن كتل الصخر السوداء سوى بيوت ومنازل ! . . فالجزيرة كلها مدينة واحدة . وبقع الذهب المتلألئة هى مصابيح الطرقات ونوافذ البيوت . . والمارد الجبار الذى يعتلى قمة الجزيرة باسطًا ذراعيه ، ليس إلاّ كنيسة ذات برجين مربعين، وأقزام الجن البحرية ، ووحوش البحر التى تراءت له ، ماهى إلاّ قوارب وسفن ومراكب مختلفة الأنواع راسية حول الجزيرة .

رأى على الجانب المواجه للأرض قوارب تجديف ، ومراكب شراعية ، وسفنًا بخارية صغيرة ، وعلى الجانب الآخر المواجه للبحر ، ترسو سفن حربية ضخمة . . بعضها كبير سميك ، له مداخن مائلة ، والبعض الآخر طويل ضيق ، بنيت على نحو ييسر انزلاقها فى الماء مثل : السمك .

ترى أى مدينة هذه ؟ . . ظن نلز أنه يعرفها ، بعد أن رأى السفن الحربية، فقد أحب السفن طوال حياته ، على الرغم من أنه لم يتعامل مع أىٍّ منها ، فيما عدا السفن الورقية التى كان يلهو بها فى برك الماء فى الطرقات . أدرك أن هذه المدينة العامرة بالسفن الحربية لن تكون غير مدينة . . كاريسكرونا .

كان جد نلز بحارًا عجوزًا، لا يمل الحديث يوميًا عن كاريسكرونا، والسفن الحربية الضخمة ، وحوض السفن الكبير ، إلى غير ذلك من أشياء تميز المدينة . ومن هنا أحس الصبى أنه أمام شىء مألوف له ، وسَرّه أن رأى كل هذه الأشياء التى سمع عنها كثيرًا فى حياته .

لم يسعه قبل أن تهبط آكا فوق برج الكنيسة ، إلاّ أن يلمح البرجين والتحصينات التى تسد مدخل الميناء، و المبانى الكثيرة ، وحوض السفن .

كان المكان آمنًا تمامًا لمن ينشد الاختفاء عن أعين الثعلب . وبدأ الصبى يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، إذا كان يستطيع أن يقامر ويزحف من تحت جناح ذكر الإوز ، ليتجول فى أنحاء المدينة هذه الليلة . نعم ، هذا ما يستطيع أن يفعله آمنًا مطمئنًا . ولعل من الأفضل أن يغفو قليلاً ، ثم يحاول بعد ذلك أن يرى ما يشاء من السفن فى ضوء النهار .

استغرب نلز من نفسه ، إذ إنه لا يستطيع البقاء ساكنًا ينظر حتى الصباح الباكر ليشاهد السفن . إنه يقينًا لم ينم أكثر من خمس دقائق ، ثم انسل من تحت جناح ذكر الإوز ، وانزلق هابطاً إلى الأرض .

سرعان ماوجد نفسه فى ميدان فسيح ، تتصدره الكنيسة . كانت الأرض مغطاة بأعشاب طويلة ، فإن من ألفوا حياة البرارى أو الريف يضيقون إذا مادخلوا مدينة ، بيوتها عالية ، شاهقة ، متراصة . . وطرقاتها واسعة ممتدة. وهذا هو ما حدث مع نلز عندما وقف فى ميدان كاريسكرونا الضخم ، وصافحت عيناه كنائسها الشاهقة وبيوتها العالية ، ولم يسعه إلاّ أن يتمنى العودة إلى حيث كان .

لحسن الحظ أن كان الميدان خاليًا مهجورًا تمامًا ، فلم يقع بصره على أحد، إلاّ تمثالاً فوق نصب عال . حملق فيه الصبى طويلاً . كان التمثال صورة رجل ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، يرتدى معطفًا طويلاً ، وفوق رأسه قبعة مثلثة الأركان ، وينتعل حذاءً خشنًا . حدق فيه نلز مليّا يتأمله فى دهشة ، ويتساءل فيما بينه وبين نفسه : « أى إنسان هذا؟» . رآه ممسكا بعصا طويلة فى يده ، وبدا وكأنه يعرف فيم يستخدمها . كانت له ملامح قاسية صارمة . . أنف ضخم معقوف ، وفم قبيح .

تساءل نلز أخيرًا : « ترى ماذا يفعل هنا صاحب الشفاه الغليظة الطويلة ؟». لم يشعر يومًا بضآلته وتفاهته مثلما شعر الآن . حاول أن يرفع من روحه المعنوية بكلمات فيها جرأة وشجاعة ، ثم أدار ظهره للتمثال ، واتجه إلى طرق فسيحة طويلة ، تفضى إلى البحر .

لم يكد يمضى بعيدًا ، حتى سمع وقع أقدام تتعقبه . شخص ما يقتفى أثره ، يخطو خطوات ثقيلة الوقع على إفريز الشارع الحجرى ، ويضرب الأرض بعصا ذات طرف حديدى . خيل إليه وكأن الرجل العملاق الواقف فوق النصب وسط الميدان ترك مكانه ليتمشى .

استرق نلز سمعه للخطوات ، وهو يعدو على طول الطريق ، وازداد اقتناعه شيئًا فشيئًا بأن الرجل البرونزى يتعقبه . مادت الأرض واهتزت البيوت . لابد أنه هو بخطواته الثقيلة السبب فى ذلك ، واستبد الخوف بالصبى حين تذكر ما قاله عنه وهو واقف قبالته . لم تواته الجرأة ليدير رأسه، ليتأكد من صدق ظنونه .

قال نلز فى نفسه : « لعله خرج يتمشى ، و لا يقصد شيئًا غير النزهة » .

وبدلاً من أن يسير نلز فى طريقه ، قاصدًا حوض السفن مباشرة ، انحرف إلى شارع جانبى يتجه شرقًا . لم يكن يبغى شيئًا غير الهرب بعيدًا عن ذلك الذى يدق الأرض بقدميه ، ويقتفى أثره .

لكنه سمع وقع الأقدام وراءه . لقد اتجه الرجل البرونزى إلى ذات الطريق . وأصاب الصبى هلع ، إذ لم يعد يدرى ماذا يفعل ؟ ولا كيف يخلص نفسه ؟ وما أصعب البحث عن ملاذ أو مخبأ فى مدينة ، كل أبوابها مغلقة . ولمح عن يمينه كنيسة خشبية قديمة ، تقف غير بعيدة عنه، وسط

مجموعة من الأشجار . واندفع الصبى دون تردد ناحية الكنيسة ، وقال فى نفسه :

« آه لو أمكننى الوصول إلى هناك ، فسوف أكون آمنًا من كل خطر . . » .

جرى الصبى بأقصى سرعته . وبينما هو يعدو لمح رجلاً يقف عند طرف ممر يشير إليه . أحس الصبى بسعادة لمرآه ، وهرع إليه يُمنّى نفسه : «هاهو ذا شخص سوف يساعدنى يقينًا » .

بلغ به الخوف غايته ، حيث أحس بقلبه يدق بقوة وسرعة ، ويكاد يقفز من بين جنبيه . ولكن ما إن اقترب الصبى من الرجل الواقف عند طرف الطريق المغطى بالحصباء ، ويعتلى منصة وطيئة . . حتى توقف فى مكانه جامدًا مشدوهًا ، وتمتم قائلا : « يقينًا ليس هذا هو الرجل الذى لوح لى بيديه . لقد كان تمثالاً خشبيا » .

وقف الصبى أمامه يحملق فيه . . رجل قصير بدين ، عريض الجبهة ، متورد الوجه ، أسود الشعر ، صقيله ، كث اللحية ، تغطى رأسه قبعة خشبية سوداء ، ويرتدى معطفًا بنيًّا من الخشب ، ويحيط بخصره حزام أسود خشبى ، وفوق ساقيه سروال واسع فضفاض مصنوع من الخشب ، وكذلك حذاء خشبى .

بدا واضحا أنه طلى بدهان حديث ، إذ كان لامعًا صقيلاً ، يتألق فى ضوء القمر . . تأمل الصبى التمثال وارتاح له ، واطمأن إليه .

رآه ممسكا لوحًا خشبيًا بيساره ، نقشت عليه كلمات ، قرأها نلز :

في تواضع جم أسألك . .

وإن كنت حبيس الصوت . .

تعالَ ، وضع قرشًا بيدك ، تعال . .

هاهنا بعد أن ترفع القبعة !

أوه . . أوه ! . الرجل الخشبي عبارة عن صندوق صدقات . وأحس الصبي بخيبة أمل ، تذكر حكايات جده حين كان يحكي له عن الرجل الخشبي ، وعن ولع الأطفال به في كاريسكرونا . ولابد أنها حكايات صادقة ، فها هو لا يريد أن يفارق الرجل الخشبي .

أحسن نلز بمتعة شديدة وهو يتأمله ، حتى أنساه إعجابه ذلك الرجل الذي كان يطارده ، ويحاول هو الهرب منه ، بيد أنه سمعه الآن ثانية . لقد حاد عن الطريق ، ودخل الكنيسة . هاهو ذا يتبعه هنا أيضًا . آه . . إلى أين المفر ؟ .

فجأة أبصر الرجل الخشبي ينحني إليه ، ويبسط إليه راحته الضخمة العريضة . لم يتوقع منه الصبي غير الخير ، فقفز فوق راحته ، ورفعه الرجل الخشبي إلى قبعته ، ودسه تحتها .

توارى نلز ، وأعاد الرجل الخشبي ذراعه مكانها عندما وقف الرجل البرونزي بصوت جهوري رنان :

« من عساك أن تكون ؟ » .

ارتفع ذراع الرجل الخشبي ، حتى سمع له صريرًا ، ولمس طرف قبعته وأجاب :

«روزينوم ، بعد إذنكم يا صاحب الجلالة . كان يومًا ما قبطان البارجة الحربية ، ثم تراعيا فى كنيسة ، بعد أن أنهى خدمته العسكرية ، وأخيرًا . . تمثالاً منحوتًا من خشب ، معروضًا فى فناء الكنيسة كصندوق صدقات »

قفز نلز فى مكانه حين سمع الرجل الخشبى يقول : « يا صاحب الجلالة » ، إذ أدرك توًا أن التمثال القائم وسط الميدان تمثال الرجل مؤسس المدينة . لعله لا يقل مرتبة عن شارل الحادى عشر .

قال الرجل البرونزى : « إنك تقدم قائمة حساب طيبة عن نفسك . هل لك أن تخبرنى أيضًا إذا كنت قد أبصرت طفلاً مشاكسًا ضئيل الحجم ، يجرى فى طرقات المدينة هذه الليلة ؟ . . إنه متشرد ، أحمق ، طائش . آه لو أمسكت به . . سأعلمه معنى الأدب ، والأخلاق » ، ثم ضرب الأرض بعصاه ، وبدا عليه العبوس والغضب .

قال الرجل الخشبى : « بعد إذنكم ياصاحب الجلالة . نعم ،لقد رأيته». استبد الهلع بالصبى حين سمع ذلك ، وارتجف فى مكانه تحت القبعة ، وتطلع إلى الرجل البرونزى ،من خلال شق فى الخشب ،ولكنه هدأ حين واصل الرجل الخشبى كلامه قائلا :

« لقد أخطأتم الطريق يا صاحب الجلالة . أحسب أن هذا الطفل اتجه نحو حوض السفن ليخفى نفسه » .

علق الرجل البرونزى متسائلاً : « هل هذا هو رأيك ياروزينوم ؟ . حسن . . إذًا لا تقف جامدًا هكذا فى مكانك فوق قاعدتك . هيا تعال معى نبحث عنه ، فلا ريب ياروزينوم أن أربع عيون خير من اثنتين » .

لكن الرجل الخشبى أجاب بصوت حزين كئيب :

« أتوسل إليك أن تتركنى فى مكانى . حقًا أبدو صحيحًا معافى ، أنيق المظهر ، ناعم الملمس ، لأن طلائى جديد ، لكننى عجوز بال ، لا أقوى على الحركة ».

لم يكن الرجل البرونزى ممن يرتضون المعارضة ، فقال : « أى كلام هذا ؟ تعال معى » ، ورفع عصاه وانهال بضربة على كتفه ، ثم أردف قائلاً :

« ألا ترى أنك قوى متماسك ؟ ».

توقفا هنا عن الكلام ، وانطلقا معا عبر طرقات كاريسكرونا الطويلة الضخمة الرائعة ، حتى بلغا بوابة عالية تفضى إلى حوض السفن ، ويقف على حراستها واحدٌ من رجال البحر . ولكن الرجل البرونزى مضى أمامه فى زهو وخيلاء ، دون أن يعره أدنى اهتمام ، ودفع البوابة بقدمه ؛ فانفتحت على مصراعيها .

ما إن دخلا فناء حوض السفن ، حتى رأيا أمامهما ميناءً فسيحًا ممتدًا ، تفصل ما بينه مجموعة من الجسور . وترقد فى أحواض الميناء المختلفة سفن حربية ، تبدو الآن أضخم وأكثر رهبة مما رآها الصبى وهو يحلق فى الهواء ، وقال فى نفسه : « إذًا ، لم يكن جنونًا خالصًا حين تخيلت أنها عملاقة وخرافية» .

قال الرجل البرونزى : « ترى أن نبدأ بحثنا ؟ » .

أجاب الرجل الخشبى : « أظن أنه سيكون من اليسير على شخص مثله الاختفاء داخل قاعة النماذج » .

أبصر الرجلان مجموعة من المبانى القديمة قائمة على شريط ضيق من الأرض ، يمتد على يمين البوابة بطول الميناء كله . . تقدم الرجل البرونزى

ناحية مبنى وطىء الجدران ، صغير النوافذ ، عريض السطح . ودق الباب بعصاه ، واشتدت ضرباته ، حتى انفتح على مصراعيه ، ثم خطا خطوتين حذرتين إلى الأمام ، فوجد أمامه قاعة فسيحة مليئة بسفن صغيرة . وفطن الصبى إلى أن هذه هى نماذج السفن التى شيدت لحساب الأسطول .

امتلأت القاعة بكثير من السفن متباينة الأنواع . . سفن حربية قديمة انتصبت المدافع على جانبيها ، وامتدت جدرانها الحديدية العالية من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها . وأثقلت سواريها مجموعات الأشرعة والحبال ، وقوارب صغيرة ذات مجاديف ومراكب شراعية حاملة للمدافع ، وفرقاطات تمثل نماذج للسفن التى استخدمها الملك فى رحلاته ، وأخيرًا . . سفن ثقيلة ضخمة مدججة بالسلاح ذات أبراج ، وكذلك قوارب طوربيد ، تشبه السمك الطويل الأسطوانى الدقيق .

طاف الصبى محمولاً بكل هذه الأنواع من السفن ، وامتلأت نفسه رهبة. كان لديه وقت كافٍ ليشهد كل ما يمكن مشاهدته هناك ؛ لأن الرجل البرونزى حين رأى نماذج السفن ؛ نسى كل ماعداها . . تفحصها جميعها من أولها إلى آخرها ، وسأل عنها واحدة واحدة . . وأجابه روزينوم وأفاض بمعلوماته كرجل من رجال البحر ، خبر السفن وعرفها ، كما حدثه عن بناة السفن . . وجنودها ، الأحداث التى يصادفونها فى حياتهم .

كان لديه هو والرجل البرونزى الكثير من المعلومات التى تحدثا بها عن السفن الخشبية القديمة ،ولكن يبدو أن معلوماتهما عن السفن الحربية الحديثة كانت ضئيلة .

قال الرجل البرونزى : « أحسب أنك لا تعرف شيئًا عن هذه الأشياء

حديثة الطراز ، ولهذا . . دعنا نمضى لنرى أشياء أخرى ، فإننى أستمتع بما أراه هنا » .

نسى الرجل البرونزى هنا أنه يبحث عن نلز ، الذى أحس بالأمن والهدوء والطمأنينة حيث يجلس تحت القبعة الخشبية .

طاف الرجلان بعد ذلك بأنحاء المؤسسة الضخمة . . أماكن لصناعة الأشرعة ، وورش حدادة لصناعة الهلب ، ومحال لعمال الميكانيكا والنجارة، ومخازن واسعة ،ومستودع أسلحة ، ومصنع للحبال . . وسارا فوق الجسور ، حيث ترسو سفن الأسطول الحربى ، وارتقيا سطح كل سفينة يتفحصاها بدقة ، وأبديا دهشتهما ، وتساءلا ، واتفقا ، واختلفا .

كان نلز قابعًا آمنًا تحت القبعة الخشبية ، واستمع إلى أحاديثهما ، وكيف عملا وناضلا فى هذا المكان ، لكى يجدا الأسطول الذى ولّى زمانه ، وعرف كيف خاطر الناس بحياتهم من أجل بلدهم ، وكيف ضحت البلاد بآخر فرس تملكه ، لكى تبنى أسطولاً حربيًا قويًا ، وكيف جاهد الخبراء ، وبذلوا كل ماقى طاقتهم لتطوير هذه السفن التى أضحت الحارس الأمين لأرض الآباء والأجداد . وترقرقت عينا الصبى بالدمع مرتين لسماع كل هذه القصص .

أخيرًا دخل الرجلان فناءً ، اصطفت فيه تماثيل البوارج الحربية القديمة ، وشاهد الصبى مالم تره عيناه من قبل ، ولم يدر بخاطره أبدًا . . أبصر وجوهًا تفيض قوة ، وشجاعةً ووحشية ، تسرى فيها روح الكبرياء . . إنها وجوه لرجالٍ من زمنٍ آخر غير زمانه ، وأحس برجفة فى جسده وهو يتطلع إليها .

لكنه سمع الرجل البرونزى يقول حين دخل هذا المكا ن : « ارفع قبعتك

يا روزينوم إجلالاً لأولئك الواقفين هناك . لقد حاربوا جميعًا دفاعًا عن أرض الآباء » .

نسى الرجلان السبب الذى أتيا من أجله إلى هذا المكان ، ودون أن يدرى رفع الرجل الخشبى قبعته وصاح : « إنى أرفع قبعتى تحية وإجلالا لمن اختار الميناء ، وأسس حوض السفن ، وجدد الأسطول للملك الذى بعث الحياة فى كل ما أرى » .

ـ « شكرًا روزينوم . أحسنت القول . . أنت رجل مرهف الحس . ولكن ما هذا يا روزينوم ؟ » .

كان نلز يقف فوق قمة رأس روزينوم الأصلع . . ولم يعد يخاف شيئًا ، وما إن رفع قلنسوته ، صاح :

« مرحى ... مرحى . . » .

ضرب الرجل البرونزى الأرض بعصاه ، ولم يدر الصبى ما الذى يعتزم أن يفعله ، إذ أشرقت الشمس ، ولم تكد تبسط نورها على الأرض ، حتى اختفى الرجل البرونزى ، والرجل الخشبى ، وكأنهما كانا مصنوعين من الضباب . وبينما وقف الصبى يحملق مذهولاً ، حلق الإوز البرى طائرًا من فوق برج الكنيسة يروح ويجىء فوق المدينة . لمح الإوز البرى نلز واقفًا؛ فانقض ذكر الإوز فى حركة سريعة رشيقة هابطًا إلى الأرض ، حيث يقف نلز ، والتقطه ، ثم حلق عاليًا .

انطلق الإوز البرى إلى جزيرة نائية عن الشاطىء ، ليجد طعاما . تصادف أن التقوا هناك بعدد من الإوز الرمادى ، الذى دهش لمرأى الإوز

البرى ، لأنه يعرف أن إخوته من الإوز البرى يسافر عادةً محلقًا فوق اليابسة بعيدًا عن البحر .

استبد بهم الفضول وحب الاستطلاع ، ولم يقبلوا أقل من أن يحكى لهم الإوز البرى عن مضايقات الثعلب سمر له . . وبعد أن فرغ الإوز البرى من حكايته ، انبرت إوزة رمادية ، يبدو أنها بلغت من العمر والحكمة ما بلغته الزعيمة آكا ، وقالت : « من سوء حظكم أن صدر إعلان أن الثعلب سمر خارج عن القانون فوق أرضه هو . وإنى على يقين من أنه سيحاول الالتزام بكلمته ، وينفذ وعيده ، ويتعقبكم حتى لايلاند . لو كنت مكانك يا أخت آكا ، لما اتجهت شمالاً إلى سمالاند ، بل اتخذت طريقا أخرى إلى أولاند، حتى يضل سبيله تمامًا . . إذا شئت أن تضلليه حقًا الآن، فسوف يتعين عليك البقاء يومين فى جنوب أولاند . . هناك ستجدين طعامًا وفيرًا لك ولرفيقاتك . وأحسب أنك لن تندمى إذا ماقصدت هذا المكان الذى أشرت عليك به » .

كانت نصيحة مقنعة يقينًا ، وقرر الإوز البرى الالتزام بها . وبعد أن فرغ من الطعام ، لم يتمهل ، بل بدأ رحلته على الفور إلى أولاند . لم يسبق لإحداهن أن ذهبت إلى هناك ، لكن الإوزة الرمادية زودتهن بالمعلومات الكافية. ليس عليهن سوى الاتجاه جنوبًا ، والطيران حتى يبلغ مسار الطير الواسع الذى يمتد بطول ساحل البحر ، ذلك أن كل الطيور التى قضت الشتاء على الساحل الغربى ، وتعتزم السفر الآن إلى فنلندا وروسيا سترحل إلى هناك ، وتتوقف عادة فى أثناء مرورها فوق أولاند ، هذا فضلاً عن أن الإوز البرى لن يجد مشقة فى الاهتداء إلى دليل يرشده .

كان الجو دافئًا ساكنًا ، مثل يوم من أيام صيف الشمال ، هذا هو أفضل طقس لرحلة بحرية . ولعل أخطر شيء ، هو أن الجو غير صافٍ تمامًا . . فالسماء ملبدة بالسحب الداكنة ، حيث يقع البصر هنا وهناك على سحابات ضباب ضخمة تحجب الرؤية .

بعد أن تجاوز الطير المسافر الصخور المتناثرة قرب الشاطئ ، امتد البحر أمام أعينهم بساطًا ناعمًا صقيلاً ، كأنه مرآة ، حتى إن نلز حينما نظر تحته ظن أن الماء قد اختفى ، كما لم تعد ثمة أرض تحته ، ولا شيء أمامه غير ضباب وسماء يحيطان به من كل جانب . بدأ يحس بدوار ، فتشبث بظهر ذكر الإوز ، وقد تزايد خوفه عما كان فى أول الأمر ، وخيل إليه أنه عاجز عن أن يمسك بقوة ، وأنه سيسقط ويهوى حتمًا إلى البحر .

ساء الأمر أكثر عندما بلغوا مسار الطير الواسع الذى حدثتهم عنه الإوزة الرمادية . حقًا تتابعت الأسراب ، وأقبلت تترى سربًا وراء سرب من مختلف أنواع الطير لتسير فى الاتجاه ذاته . . بط ، وإوز بنى ، وبط بحرى ، وطائر الغواص السامك ، والبلبول ، والغلموت ، والبلقشة ، والبط الغواص ، وصائد المحار ، وطبهوج البحر . ومال الصبى قليلاً يتأمل موكب الطير منعكسًا على مرآة ماء البحر ، وأحس بدوار ، حتى إنه لم يدرك معنى لما يراه . . ظن أن موكب الطير يحلق فى الهواء مقلوبًا بطنه إلى أعلى ، ولكنه لم يدهش كثيرًا لما رآه لأنه هو نفسه لم يعرف فوقه من تحته .

تعبت الطيور ، وسئمت طول الطيران ، وران صمت . . فلم يعد منها من يطلق نكتة ، أو مزحة ، أو دعابة ، مما ضاعف من الملل وبدا كل شيء كئيبًا .

حدث نلز نفسه قائلاً : « لست أدرى ، هل انطلقنا بعيدًا عن الأرض؟ وهل أخذنا طريقنا إلى السماء ؟ » .

لم يعد يرى شيئًا حوله غير سحابات ضباب وطيور تحيط به ، وبدا يتطلع إليها ، وقد غلب عليه الظن بأنها صاعدة إلى السماء .. غمره إحساس بالسعادة والفضول ، وتساءل : « ترى ماذا عساى أن أرى هناك فى السماء ؟ . . » وتضاعف شعور السعادة والبهجة حين تصور أنه راحل عن الأرض فى طريقه إلى السموات العلى .

وبينما هو شارد مع خواطره ، أصمّت أذنيه طلقتان مدويتان ، وأبصر عمودين من الدخان يتصاعدان .

حدثت صحوة مفاجئة ، وسرى قلق بين الطيور ، وصاحت الطيور: «قناصة . . صيادون . . قناصة . . صيادون . . أسرعوا حلقوا عاليا . . طيروا بعيدًا عن هذا المكان » .

وأخيرًا أدرك الصبى أنهم كانوا يحلقون طول هذا الوقت فوق البحر ، وأيقن أنهم ليسوا فى الطريق إلى السماء وأبصر صفًا طويلاً من القوارب الصغيرة مملوءة بصيادين يطلقون الأعيرة النارية . ولم تستطع أسراب الطير الأولى ملاحظة ذلك فى الوقت المناسب إذ كانوا يحلقون على ارتفاع منخفض، وتساقطت أجساد سوداء كثيرة نحو البحر ، ومع كل جسم يسقط تصدر من ذلك الكائن المسكين صرخة ألم حادة .

كان غريبًا على من ظن نفسه فى طريقه إلى نعيم السماء أن يصحو فجأة على صرخات الخوف والنواح . انطلقت آكا بسرعة عاليًا إلى عنان السماء بأسرع ما تستطيع ، وفى أثرها سربها ، يحاول اللحاق بها . ابتعد الإوز البرى

إلى طريق آمن، ولكن الصبى لا يزال فى ذهوله . . « لا أتصور أن هناك من يسعى لإطلاق النار على آكا ورفيقاتها ! . ما أغرب البشر وما أقساهم ، إنهم لا يعلمون ما يفعلون » .

واصل الطير رحلته فى الهواء الساكن ، وقد أصبح كل شىء من تحته هادئًا إلاّ من صيحات بعض الطير الذى نال منه التعب ونفاد الصبر . .

ـ « ألم نصل إلى المكان بعد ؟ هل أنتم على يقين من أننا فى الطريق الصحيح ؟» وأجاب من فى الوسط : «نعم ، نحن فى الطريق إلى أولاند » .

نال التعب من البط البرى ، وتجاوز طير الغواص السامك . . وصاح البط : « لا تندفعوا بهذه السرعة . . ستجهزون على كل الطعام هناك، ولن يبقى شىء لنا » .

أجاب طير الغواص السامك : « أوه . . لا عليكم . . الطعام وفير ، وسيكفينا جميعًا » .

وهبت رياح خفيفة ضدهم ، حملت معها ما يشبه سحابات ودخان أبيض ، وكأن حريقا ضخماً بعث بها من بعيد .

عندما رأى الطير عمود الدخان الأبيض الحلزونى ، أحسوا بالقلق ؛ وضاعفوا من سرعتهم . . بيد أن ما ظنوه دخانا ، بدأ يتكاثف أكثر فأكثر ، ثم أحاط بهم جميعًا . لم يشموا رائحة دخان ، ولم يكن الدخان جافًا أسود اللون ، بل أبيض رطبًا ، وأدرك نلز فجأة أنه ضباب لا غير .

اشتدت كثافة الضباب ، حتى تعذرت الرؤية على مدى طول إوزة واحدة . وبدأ الإوز يتحرك فى طيرانه كالمجنون . كل الطيور التى ألفت السفر فى مثل هذا الطقس شرعت تجاور بعضها بعضا وسط الضباب ،

وتحوم هنا وتحوم هناك ، وتحاول هذه أن تضلل تلك . وانطلقت صيحة : «حذار ، فإنكم تدورون حول أنفسكم . .

عودوا رحمة بنا . . لن تصلوا إلى أولاند عن هذه الطريق ! » .

كانت الطيور جميعها تعرف الطريق إلى الجزيرة يقينًا ، ولكنها سعت جاهدة لتضلل بعضها بعضا . ورن صوت وسط الضباب : « انظروا إلى هذا البط ذى الرِّيش الطويل فى ذيله . إنه عائدٌ إلى بحر الشمال » .

صاح واحدٌ من الطير فى اتجاه آخر : « حذار أيها الإوز البرى ، إذا واصلت سيرك فى هذا الاتجاه ، فسوف تصل إلى روجن » .

لم يكن ثمة خطر بطبيعةالحال على الطير الذى ألف السير فى هذا الطريق ، ولا خوف عليه من أن يضلله أحد ، ولكن الأزمة العصيبة هى أزمة الإوز البرى ، إذ أدرك المهرجون من الطير أنه مرتاب طريقه ، غير واثق منها ؛ فبذلوا جهدهم للتشويش عليه .

ونادت عليهم إوزة عراقية : « إلى أين العزم أيها الطيبون ؟» واقتربت من آكا ، وتطلعت إليها فى عطف وجدية .

ظنت آكا أنها طائر جدير بالثقة ، فقالت : « نحن فى طريقنا إلى أولاند ، ولكننا لم نذهب إلى هناك من قبل » .

قالت الإوزة العراقية : « آه واأسفاه ، لقد غرروا بك ، ودلوك على الاتجاه الخاطىء . إنك فى طريقك إلى بليكنج . تعالِ معى ، وسوف أدلك على الطريق الصحيح » .

طاروا جميعًا وراءها ، حتى قادتهم بعيدًا عن الطريق ، حيث تلاشت الأصوات ، ثم اختفت الإوزة العراقية وراء الضباب .

حوم الإوز البرى فترة ، وهو لا يتبين طريقه . . وظلوا يضربون فى الهواء على غير هدى ، حتى عثروا على الطيور ثانية حينما دنت منهم بطة ، وقالت لهم : « من الخير أن تهبطوا على سطح الماء ، حتى ينقشع الضباب ؛ إذ من الواضح أنكم لا تعرفون الطريق جيداً » .

لقد نجح هؤلاء المتشردون فى التشويش على آكا ، وجعلوا رأسها يدور . ولحظ الصبى أن الإوز البرى يحوم حول نفسه ، ويدور ويدور فترة طويلة .

صاح بهم طائر من الغواص السامك : « حذار ألا تروا أنكم تطيرون مقلوبين ؟ » أحاط الصبى بذراعيه حول رقبة ذكر الإوز ، فهذا هو ماكان يخشاه .

سمعوا صوت طلقة مدوية . . مدت آكا رقبتها ، وضربت بجناحيها بقوة، واندفعت بكل سرعتها . . هاهى قد وجدت ما تهتدى به . . لقد حذرتها الإوزة الرمادية من الذهاب إلى جنوب أولاند ، ونهتها عن الهبوط هناك ، لأن الناس فى هذا المكان لديهم مدفع اعتادوا إطلاقه عندما يتكاثف الضباب . وهكذا عرفت طريقها بنفسها ، ولن يستطيع أحد أن يضللها بعد الآن .

توجد فى الطرف الجنوبى من أولاند أرض مملوكة للملك . وهى مقاطعة واسعة تمتد من الشاطىء إلى الشاطىء عبر الجزيرة ، واشتهرت هذه الأرض، لأنها مأوى للعديد من الحيوانات ، وتحولت فى القرن السابع عشر إلى مكان يؤمه الملوك لصيد الغزلان . وأنشئت بها فى القرن الثامن عشر مزرعة لتربية سلالات من الخيول الأصيلة ، بالإضافة إلى مزرعة لتربية الأغنام ، تضم عدة مئات منها ، ولكنك اليوم لن تجد بها الخيول ، أو

الأغنام ، بـل سترى قطعان مـن الخيول الصغيرة الـتى يستخدمهـا الفرسـان .

ليس على الأرض مكان أفضل من هذا المكان مأوى للحيوانات ، إذ تمتد المروج الخضراء على طول الساحل الشرقى ، حيث ترعى وتلهو الحيوانات البحرية ، وكأنها تمرح فى البرارى الواسعة . وترى هناك بستان أوتينى الشهير بأشجار البلوط المعمرة ، التى تجاوز عمرها المائة عام، فهى ظل يقى من الشمس الحارقة ، وملاذ من ريح أولاند العاتية .

جدير بنا ألاّ ننسى هنا سوق أوتينى الطويل الذى يمتد بطول الجزيرة من الشاطىء إلى الشاطىء ، ويفصل الجزيرة ، حتى تعرف الحيوانات مدى اتساع الأرض الملكية القديمة ، وتحذر من الدخول إلى أرض أخرى لن تجد فيها الحماية اللازمة .

وترى هناك عديدًا من الحيوانات الأليفة ، ولكن ليس هذا هو كل شىء، إذ إن الحيوانات البرية تجد مع الحيوانات المستأنسة فى أرض الملك مأوى وملاذًا ، وهى تغامر بالحياة هناك بأعداد غفيرة .

لازال هناك بقية قليلة من السلالة القديمة لحيوان الأيل . وتعشق الحياة هناك حيوانات وطيور أخرى ، مثل : الأرانب البرية، وبط الشهرمان، وطائر الحجل ، ولكنها زيادةعلى هذا . . تمثل استراحة لآلاف من الطيور المهاجرة التى تقصدها فى الربيع وأواخر الصيف . وهى أيضًا فوق ذلك تمثل الساحل الشرقى الملىء بالمستنقعات . ويقع هذا الساحل بعد المروج الخضراء التى ترعى فيها الأغنام ، وتهبط الطيور المهاجرة فوق هذا الساحل للراحة والطعام .

لكل الطيور الأخرى على الشاطىء القريب من مرعى الحيوانات . كان الضباب كثيفًا فوق الجزيرة ، مثلما كان كثيفًا فوق البحر . . ولايزال الصبى مذهولاً من كثرة الطيور المتباينة الأنواع والألوان ، التى استقرت فوق شريط ضيق من الساحل .

كان ساحلاً رمليًا وطينيًّا ، تغطيه أحجار، وحصباء ، وغدران، وطحالب بحرية . . ولو خُيّر نلز ، لما اختار الهبوط فى هذا المكان، ولكن الطيور تراه جنة حقيقية . البط والإوز يمشى متهاديًا ، ويقتات على العشب . وبالقرب من الماء يجرى طائر الشنقب ، وغيره من طيور الساحل . . واتخذت طيور الغواص السامك مكانها فى البحر لتصطاد السمك ، ولكن الحركة والحياة تفيضان على طول الشريط المغطى بالطحالب بامتداد الشاطى . هناك تقف الطيور جنبًا إلى جنب متلاصقة تلتقط ديدان الأرض ، التى تتوافر بكميات لاحد لها ، إذ لم تحدث يومًا شكوى من الطيور بسبب نقص فى الغذاء .

تعتزم الغالبية الساحقة من الطيور السفر إلى مواطن أخرى أبعد من ذلك، ولكنها حطت هنا لتنعم براحة قصيرة . وكلما أحس زعيم سرب أن رفاقه قد رفهوا عن أنفسهم وانتعشوا بما فيه الكافية ، قال : « إذا كنتم على استعداد الآن ، فهيا بنا نرحل » .

يقول الأتباع : «لا ، انتظر . لم نأخذ بعد كفايتنا . . » . ويجيب القائد : « يبدو أنكم غير مصدقين أننى لا أريدكم أن تأكلوا كثيرًا وتفرطوا ، فتصيبكم تخمة تعجزكم عن الطيران » ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ، وانطلق إلى أعلى ، ولكنه لا يلبث أن يعود أدراجه ، لأن رفاقه لم يلحقوا به .

تجمع سرب من البجع على طول المنطقة المليئة بالطحالب . لقد قنعوا

بالبقاء حيث هم يهتزون ويتأرجحون ويرقدون على الماء ، دون حاجة إلى الذهاب إلى الشاطىء تراهم بين الحين والآخر يمدون رقابهم الطويلة ، ويلتقطون طعامهم من القاع . وكلما التقطوا شيئًا ثمينًا انطلقت صيحات عالية ، يتردد صداها كأنها دقات الطبل .

عندما سمع نلز صيحاتهم، وأدرك أن البجع موجود فى الأرض الضحلة أسرع نحوه ، إذ لم يسبق له أن شاهد البجع عن قرب . وقد أسعده الحظ ليكون قريبًا منه .

لم يكن نلز هو الوحيد الذى سمع صيحات البجع ، إذ سمعه الإوز البرى ، والإوز الرمادى ، وطائر الغواص السامك ، فسبحوا جميعًا فى موكب ، أحاطوا بالبجع يحملقون فيه . نفش البجع ريشه ، ورفع أجنحته كأنها أشرعة منتصبة ، واشرأبت رقابه عالية فى الهواء . وحدث أن سبحت بين الحين والآخر واحدة من البجع ، قاصدةً طائر الغواص السامك ، أو إوزة ، أو بطة ، وأسرت إليها بكلمات قليلة .

لكن بطة صغيرة شديدة الخبث والدهاء لم تحتمل كل هذا الحفل فغطست فجأة تحت الماء ، وتوارت عن الأنظار ، وسرعان ما أطلقت بجعة صرخة حادة ، وهرولت سابحة وقد ابيضّ الماء من كثرة الزبد . . وانطلقت صرخة من بجعة ثانية ، وثالثة .

طفت البطة فوق سطح الماء ، إذ لم تستطع البقاء طويلاً . اندفع البجع نحوها ، ولكن حين رآها صغيرة ضئيلة الحجم ، تراجع ، ورأى أنه أكرم خُلقًا من أن يتشاجر مع كائن صغير كهذا . وغطست البطة ثانية ، ووخزت قدم بجعة ، وثالثة ، ورابعة . وتتابعت الصرخات ، وعجز البجع عن أن

يحافظ على هيبته وكبريائه . . وهنا قرر البجع اتخاذ موقف ، فضربوا الهواء بأجنحتهم حتى تردد صوت ضرباته كهزيم الرعد ، وتقدم قليلاً وبدا وكأنه يجرى فوق الماء . وأخيرًا . . جمع الهواء تحت أجنحته ، وارتفع محلقًا فى الفضاء .

بعد أن غاب البجع ، أحست الطيور بوحشة لفراقه ، وانقلبت الطيور التى سرّها سلوك البطة الصغيرة ،فعادوا يلومونها ويوبخونها على تصرفها الأرعن غير الحميد .

عاد نلز إلى اليابسة ثانية ، وتوقف هناك يتأمل طائر الشنقب ، إنه شبه طائر الكرتى . . أجسام صغيرة ، وسيقان ورقاب طويلة ، وحركات خفيفه رشيقة متمايلة . الفارق الوحيد أن طائر الشنقب بنى اللون ، وليس أسود . وقفت مجموعات منه صفًا طويلاً على امتداد الشاطىء تحفل بموجات البحر المتعاقبة ، إذا ما أقبلت زاحفة إلى الشاطىء، ارتد كل الصف إلى الوراء مسرعًا . . وإذا انحسرت ، عاد صف الطيور كله وراءها يقتفى أثرها . وظلوا هكذا رواحًا وجيئة لساعات طويلة .

لعل أكثر الطيور روعة وبهرجة : بط الشهرمان . إنه دون شك قريب البط العادى الذى نعرفه جميعا فى بيوتنا وقرانا ، لأنه مثله ، له جسم قصير بدين ، ومنقار عريض ،وقدم ذات وترات ، إلاّ أنه أقوى بنية ، وأعلى قامة . . يكسو جسمه ريش أبيض ، وحول رقبته عصابة عريضة فى لون الذهب ، وعلى جناحيه بقعة تتلألأ بألوانها المتداخلة ، مابين الأخضر، والأحمر ، والأسود ، وحواف الجناحين سوداء ، والرأس أخضر داكن ، يومض كأنه حرير لامع .

كلما ظهر واحد من هذا البط على الشاطىء قالت الطيور الأخرى :

« هيا انظروا إلى هؤلاء . إنهم يعرفون كيف ينتقون أجمل الثياب» .

قالت بطة برية بنية اللون : « لولا هذه البهرجة اللافتة للنظر ، لما حفروا أعشاشهم فى باطن الأرض ، ووضعوا بيضهم فوق سطح الأرض مثل غيرهم من الطيور » .

قالت إوزة رمادية : « ليحاولوا التزين كما يحلو لهم ، فلن تكون لبطة منهم أنف جميل مثل هذا» . وهذا صحيح ، إذ إن بط الشهرمان له عقدة ضخمة عند أول المنقار ، تفسر جمال منظره .

قريبًا من الشاطىء كانت طيور النورس وسنونو البحر تتحرك هنا وهناك فوق سطح الماء ، وتصطاد .

سألت إوزة برية : « مانوع السمك الذى تصطادونه ؟ » .

قالت واحدة من طيور النورس : « إنه سمك أبو شوكة . وهو أفضل أنواع هذا السمك فى العالم كله . هل لك رغبة فى تذوق واحدة ؟ » . وطار الطائر النورس إلى الإوزة ، وقد ملأ فمه بسمكات صغيرة من هذا النوع ، وحاول أن يعطيها بعضه .

قالت الإوزة البرية : « هل تظننى أطعم مثل هذا القذر » .

جاء صباح اليوم التالى والسماء ملبدة بالغيوم . . كان الإوز البرى يقتات وسط المروج ، فى حين ذهب نلز إلى الشاطىء ، ليجمع بلح البحر . وجد نلز الكثير منه هناك ، وحين فكر فى طعام اليوم التالى . . قال : « ربما نكون غدًا فى مكان آخر ، يتعذر فيه الحصول على الطعام » . ولهذا . . قرر أن يصنع بنفسه حقيبة صغيرة يملأها ببلح البحر .

عثر وسط المروج على بعض من نبات البردى القديم ، وهو نبات قوى متين، ونسيج منه يصلح ليكون حقيبة ظهر ،ولذلك انكب عدة ساعات يصنع الحقيبة ، وما إن فرغ منها بدت عليه علامات الرضا.

أقبل عليه الإوز البرى يعدو وسأله إن كان قد رأى ذكر الإوز الأبيض .

أجاب الصبى : «لا ، إنه لم يكن معى».

قالت آكا : « لقد كان معنا طوال النهار حتى فترة قريبة . . وفجأة لم نجده بيننا ، ولا نعرف أين هو الآن ؟» .

قفز نلز من مكانه ، وقددهمه إحساس بالخوف شديد . . وتساءل : إن كان قد ظهر ثعلب أو صقر ، أو أى إنسان من بنى البشر فى هذا المكان ، ولكن لم يلحظ أحد أى مصدر للخطر . ربما ضل ذكر الإوز الأبيض طريقه وسط الضباب .

أحس نلز عمق الكارثة لو فقد ذكر الإوز الأبيض ، وهب على الفور ليبحث عنه . كان الضباب يحيط به من كل مكان ، بحيث يمكنه السير هنا أو هناك ، دون أن يلحظه أحد ، وإن كان هذا حجب عنه هو أيضًا الرؤية. جرى صوب الجنوب على طول الشاطىء ناحية الفنارة ، ومدفع الضباب القائم على الطرف الجنوبى الأقصى للجزيرة ، ورأى حشودًا ضخمة من طيور مختلفة الأنواع والألوان ، ولكنه لم يجد بينها ذكر الإوز الأبيض . ظل يبحث عنه فى كل مكان تحت شجر البلوط ، وفى كل بستان؛ ولكنه لم ير أثرًا له .

ظل يبحث ، حتى ولّى النهار ، بدأت تزحف الظلمة . وأصبح لزامًا عليه أن يعود أدراجه إلى الشاطىء الشرقى . سار بخطوات ثقيلة بائس

النفس ، شارد الفكر ، لم يعد يدرى شيئًا عن مصيره . . ذلك أنه إذا لم يهتد إلى ذكر الإوز الأبيض ، فلن يجد عوضًا عنه .

وبينما كان يتجول فوق مرعى الماشية ، أقبل نحوه شيء ضخم الجسم ، أبيض اللون ، لم يتبينه وسط الضباب ، لكن ماذا عساه أن يكون ، لو لم يكن ذكر الإوز الأبيض ؟ . . كان على حق فى تخمينه ، وأحس بسعادة غامرة، إذ عرف ذكر الإوز الأبيض طريق العودة إلى رفاق رحلته . وقال ذكر الإوز أن الضباب أصابه بدوار بعد تجوال وسط المروج طول النهار . وألقى الصبى بذراعيه حول رقبته سعيدًا مبتهجًا ، وألح عليه راجيًا ألا يترك نفسه هكذا وألاّ يتجول بعيدًا عن رفاقه ، ويأخذ حذره ، وينتبه لنفسه . ووعده ذكر الإوز أنه لن يعود إلى ذلك ثانية ، قائلاً : « لا . . لا ، لن أفعل ذلك أبدا » .

لكن فى الصباح التالى ، وبينما كان نلز عند الشاطىء يصطاد بلح البحر، أقبل عليه الإوزالبرى يعدو ، وسأله مرة أخرى إن كان قد رأى ذكر الإوز .

هكذا تاه ذكر الإوز ثانية . ضل طريقه فى الضباب ، مثلما فعل بالأمس .

أخذ الصبى يعدو فى فزع شديد ، وبدأ يبحث عنه من جديد . . بحث عنه أولاً عند الشاطىء ، ثم فوق الهضبة المنبسطة وسط الجزيرة ، وهى خالية من المبانى تمامًا ، ولا يوجد بها سوى طواحين هواء ، وتتميز بأن تربتها ناعمة ، ويغلب عليها الحجر الجيرى الأبيض الذى يضوى تحتها .

لم يعثر نلز على أثر له ، ومع اقتراب المساء ، اضطر إلى العودة صوب

الشاطىء ، وقد أيقن أنه فقد رفيق رحلته . غلبه الحزن والأسى ، ولم يعد يدرى ماذا يفعل بنفسه ؟ .

بعد أن تسلق السور عائدًا إلى مكانه ، سمع صوت حجر يرتطم بالأرض قريبًا منه . استدار ليتبين ماذا حدث ، وخيل إليه أنه يرى شيئًا يتحرك فوق كومة من الحجارة قريبة من السور ، دنا من المكان أكثر وأكثر متسللاً فى حذر ، وإذا به يبصر ذكر الإوز يمشى مجهدًا متعبًا فوق كومة الحجارة، وفى منقاره بعض جذور النباتات . لم ير ذكر الإوز الصبى ، ولم يناده الصبى ، وإنما آثر أن يكتشف أولاً لماذا يختفى ذكر الاوز من حين إلى آخر على هذا النحو ؟ .

سرعان ماعرف السبب . . عرف أن إوزة رمادية صغيرة ترقد فوق كومة الحجرة ، وذلك حين سمعها تقأقىء فرحة مسرورة عندما أقبل عليها ذكر الإوز الأبيض . زحف الصبى واقترب منهما ليسمع حديثهما ، وعرف أن الإوزة الرمادية أصابها جرح فى أحد جناحيها ، مما أقعدها وأعجزها عن الطيران ، وعرف كذلك أن سربها رحل بعيدًا عنا ، وتركها وحدها . كانت على وشك الموت جوعًا ، عندما سمع ذكر الإوز صياحها بالأمس ، فسعى لإنقاذها . . ولهذا . . ظل يعودها ، ويحمل إليها الطعام ، وتمنى نلز ـ مثلما تمنى ذكر الإوز ـ أن تبرأ الإوزة الصغيرة ، ويلتئم جرحها قبل أن يغادر الجزيرة ، ولكنها لا تزال عاجزة عن الطيران أو المشى . ولهذا . . كانت الإوزة الصغيرة قلقة على نفسها ، ولكن ذكر الإوز طمأنها بأنه باقٍ هنا فوق الجزيرة فترة طويلة . وأخيرًا . . قال لها : « طاب مساؤك » ، ووعدها بأن يأتى إليها فى اليوم التالى .

ترك نلز ذكر الإوز يمضى دون أن يراه ، وبعد أن اطمأن إلى أنه ابتعد ، زحف متسللاً إلى قمة كومة الحجارة . كان غاضبًا لإحساسه بالخديعة ، وأراد أن يقول صراحة للإوزة الرمادية أن ذكر الإوز له هو وحده ، وأنه ملكٌ له ، وعليه أن يعود به إلى لايلاند ، ولهذا . . لا داعى للحديث عن بقائه هنا . ولكنه بعد أن دنا من الإوزة الرمادية الصغيرة ، فهم لماذا ظل ذكر الإوز يحمل لها الطعام عل مدى يومين ، ولماذا أيضًا لم يشأ الحديث عن مساعدته لها . . ذلك أن لها أجمل رأس ، وريشها أشبه بالحرير الناعم ، عيناها فيهما حنان واستعطاف .

عندما أبصرت الصبى ، أرادت الهرب ، ولكن أحد جناحيها كان مفكوكًا من مفصله ، وظلت تجره على الأرض ، وهو يعوقها عن الحركة .

قال الصبى ، وقد زايله الغضب : « لا تخافى منى ، أنا توميتوت ، رفيق ذكر الإوز الأبيض » ، ثم جمد فى مكانه ، ولم يعد يدرى ماذا يقول ؟

يحدث أحيانًا أن يجد المرء شيئًا فى الحيوانات ، يجعله يتعجب منها ، ويتساءل : أى نوع من الحيوانات هى حقيقة ؟ وكثيرًا ما يخاف المرء أن تتحول إلى كائنات بشرية . وهذا هو ماحدث للصبى وهو يتأمل الإوزة الرمادية . . فبعد أن ذكر توميتوت اسمه وعرفت من هو ، خفضت رأسها ورقبتها أمامه فى سحر ودلال ، وقالت بصوت جميل رقيق جعله لا يصدق أن التى تتحدث إليه إوزة حقًا : « سعيدة لمجيئك إلى هنا لكى تساعدنى حدثنى عنك ذكر الإوز الأبيض ، حيث قال : ليس هناك من هو أحكم منك عقلاً وأطيب نفسًا » .

قالت كلماتها هذه بثقة وإجلال ، حتى استشعر الصبى حرجا وخجلاً ،

قال فى نفسه : « لا يمكن أن تكون هذه إوزة . لابد أنها أميرة مسحورة » .

تملكته رغبة عارمة فى مساعدتها ، ومسح بيديه فى حنان على ريشها ، وتحسس برقة مكان مفصل الجناح . لم يكن المفصل مكسورًا ، وإن كان فيه خط ما . وضع إصبعه فى التجويف الموجود تحت الجناح ، وقال : « انتبهى الآن » ، وأمسك عظمة الجناح بقوة ، وثبتها فى مكانها الصحيح . فعل كل هذا بسرعة شديدة ، وعلى نحو سليم ، وذلك وعلى الرغم من أن هذه هى أول مرة يحاول فيها عمل شىء كهذا . . ولكن لابد أنها تألمت كثيرًا لأن الإوزة الصغيرة المسكينة أطلقت صيحة حادة واحدة ، ثم غاصت وارتمت بين الحجارة ، وقد اختفت كل معالم الحياة .

أحس الصبى بخوف مروع . لم يكن يبتغى غير مساعدتها ، ولكن هاهى ذى ماتت بين يديه . قفز قفزة عالية من فوق كومة الحجارة ، وركض بعيدًا . خيل إليه وكأنه قتل إنسانًا .

كان الصباح التالى رائقًا صافيًا خاليًا من الضباب ، وقالت آكا إن عليهم مواصلة رحلتهم . . كل الإوز أبدى رغبته فى السفر ، إلاّ ذكر الإوز الأبيض ، الذى حاول أن ينتحل المعاذير . . وفيهم الصبى ـ أيضًا ـ إنه لا يريد أن يترك الإوزة الرمادية الصغيرة ، بيد أن آكا لم تستمع إليهما ، وانطلقت فى رحلتها .

قفز الصبى فوق ظهر ذكر الإوز الذى اقتفى أثر السرب فى بطء وعلى كره منه . أحس الصبى بسعادة ، لأنهم طاروا بعيدًا عن الجزيرة . كان يحس بوخز ضمير بسبب الإوزة الرمادية الصغيرة . . ولم يشأ أن يحكى لذكر الإوز ما أصابه حين حاول تخفيف آلام الإوزة الصغيرة وعلاجها . وقال فى نفسه :

« لعل من الخير ألاّ يعرف شيئًا عما حدث » ، وإن كان قد دهش فى الوقت ذاته ، وتساءل : «كيف طاوعه قلبه على ترك الإوزة الرمادية ؟ »

فجأة استدار ذكر الإوز . فقد استبدت به صور الإوزة الرمادية الصغيرة .

أحس بالعجز عن مواصلة الرحلة ، فى حين الإوزة الصغيرة ترقد وحيدة مريضة ، توشك أن تموت جوعًا .

ضرب الهواء بضع ضربات قوية بجناحيه ، فكان فوق كومة الحجارة ، ولكنه لم يجد الإوزة الصغيرة راقدة بين الحجارة ؛ فصاح بأعلى صوته : « آه ، أين أنت؟» .

قال الصبى فى نفسه : « لعل الثعلب جاء إلى هنا واقتنصها . . ولكنه سمع صوتًا جميلاً رقيقًا يجيب على ذكر الإوز : «هاأنذا يا ذكر الإوز . . هاأنذا ... كنت آخذ حمام الصباح » ، وخرجت من بين الماء الإوزة الرمادية الصغيرة منتعشة مبتهجة ، وقصت حكايتها ، وكيف أصلح توميتوت جناحها وثبته فى مكانه الصحيح . ثم قالت فى سعادة : « هاقد أصبحت على مايرام ، قادرة على متابعة الرحلة » .

بدت قطرات الماء على ريشها الوضاء كأنها حبات لؤلؤ متناثرة ، وخيل للصبى ثانية أنها حقًا أميرة صغيرة مسحورة .

سافر الإوز طائرًا بمحاذاة ساحل الجزيرة الطويلة التى تبدو له واضحة المعالم . كان نلز أثناء الرحلة مسرورا منشرح الصدر . بدأ اليوم سعيدًا راضيًا ، على عكس ما كان بالأمس مكتئبًا عابسًا .

كان قد جلس ليستريح قليلاً بالقرب من طاحونة هواء عندما أقبل

راعيان وبجوارهما كلبهما ، ثم قطيع ضخم من الأغنام . لم يخش الصبى شيئًا ، لأنه كان مختبئًا في مكانٍ آمن قرب سلم الطاحونة ، ولكن جاء الراعيان وجلسا عند السلم نفسه ، ولم يكن أمامه إلاَّ أن يبقى ساكنًا فى مكانه لا يتحرك .

كان أحدهما شابًا صغير السن يشبه عامة الرعاة ، والآخر عجوزًا غريب الأطوار ، بدينًا ، مليئًا بالعقد . . وإن كان دقيق الرأس ، وقسمات وجهه تنم عن حساسية مفرطة . وبدا وكأن الرأس لا يتلاءم أبدًا مع الجسم .

ظل صامتًا لحظة فى الضباب ، وعلى ملامحه علامات الإرهاق الشديد ، فى الوقت الذى أخرج الآخر من حقيبة الظهر جبنًا وخبزًا ليتناول طعام العشاء . لم يكن يجيب على شىء تقريبًا ، وإن ظل ينصت فى صبر شديد .

قال الراعى العجوز : « سأقص عليك حكاية الآن يا أريك . . لقد اكتشفت أنه فى الأزمان السحيقة ، عندما كان البشر والحيوانات أضخم حجمًا مما هم عليه الآن ، كانت الفراشات هى الأخرى ضخمة . وحدث أن كانت هناك فراشة طولها عدة أميال ، وجناحاها بعرض البحر . كان الجناحان زرقاوين ، يلمعان مثل الفضة ، لهما جمال ساحر فتان ، حتى إنه إذا ما بسطتهما الفراشة ، وهمت بالطيران ، جمدت كل الحيوانات الأخرى فى مكانها تحدق فيهما ، ولكن ضخامتها كانت عائقًا لها ؛ وكان من الممكن أن يبقى كل شىء على مايرام ، لو أن الفراشة آثرت العقل والحكمة ، ورضيت بالبقاء على الأرض ، بيد أن هذا لم يحدث ، وإنما خاطرت بالطيران فوق بحر البلطيق . وقبل أن تنأى بعيدًا فى رحلتها ، هبت عاصفة عاتية مزقت جناحيها . ونستطيع أن نفهم يا إريك بسهولة كيف تصير الأمور عندما تبدأ العاصفة صراعها مع جناحى الفراشة الضعيفين الهشين . .

لم يمض وقت طويل حتى تكسر الجناحان و تناثرا إربًا ، وكان طبيعيًا أن تسقط الفراشة فى البحر ، وقد تقاذفتها الأمواج هنا وهناك أول الأمر ، ثم استقرت أخيرًا فوق بعض الصخور وهاهى ترقد كما تراها الآن ، ضخمة طويلة مثلما كانت .

أحسب يا إريك لو أن الفراشة سقطت على الأرض ، لبليت وتهرأت ، وتحولت إلى نثار ، ولكن لأنها سقطت فى البحر ، فقد تشربت الجير ، وأصبحت صلبة كالحجر . وتعرف بطبيعة الحال أننا عثرنا على حجارة فوق الشاطىء ، التى لم تكن شيئًا سوى ديدان متحجرة . . وأعتقد أن هذا هو ما حدث بالنسبة للفراشة العملاقة . أخالها تحولت إلى جبل طويل ضيق ، حيث ترقد فى بحر البلطيق . ألا تظن ذلك ؟ » .

سكت لحظة ينتظر إجابة رفيقه الذى أومأ برأسه ، وقال : « امض فى حديثك إلى نهايته » .

استطرد قائلاً : « اعلم يا إريك أن أولاند هذه التى نعيش أنا وأنت فوقها ، ليست شيئًا آخر سوى هذه الفراشة القديمة . لو تأملت ما أقول ، ستلحظ أن الجزيرة فراشة . . الشمال هى مقدم الفراشة ، ورأسها المستدير جنوب الجزيرة هو مؤخرتها ، حيث يتسع فى الوسط ويضيق فى النهاية .

ثم سكت مرة ثانية ، وتطلع إلى رفيقه فى قلق ، ليرى أثر حديثه على وجهه ، ولكن الشاب استمر فى تناول طعامه فى هدوء شديد ، وأومأ إليه برأسه (علامة : نعم ، استمر) . .

ـ « بعد أن تحولت الفراشة إلى صخور جيرية ، هبت عليها رياح محملة بمختلف أنواع بذور الأعشاب لتستقر عليها ممتدة جذورها فيها ، ولكن

تعذر على البذور البقاء فوق صخور قاحلة زلقة ، ومضى زمن طويل لم ينبت فوقها سوى نبات البردى ، ثم ظهرت نباتات أخرى ، مثل : نبات الحماض ، والشجيرات الشوكية . وليس هناك من يفكر فى حرث هذه الأرض وبذورها ، نظرًا إلى أن قشرة التربة رقيقة جدًا ، ولكن إذا سلمت معى بأن الأرض والسور الصخرى المحيط بها من بقايا جسم الفراشة ، فإن لك أن تسأل : ومن أين أتت الأرض الموجودة تحت هذه الصخور ؟ » .

قال الشاب المنهمك فى تناول طعامه : « نعم ، هذا هو السؤال الذى أريد أن أعرف إجابته » .

ـ « حسن ، يجب أن تعلم أن أولاند ظلت راقدة فى البحر سنين طويلة جدًا، ومع الزمن تراكمت فوقها كل الأشياء التى حملتها الأمواج إليها . . طحالب، ورمل ، وقواقع ،ورخويات . تجمعت كل هذه الأشياء حولها ، وبقيت فى مكانها . . وتساقطت الحصباء والحجارة فوقها من السور الصخرى الشرقى والغربى ، وهكذا اتسع شاطىء الجزيرة الذى تنمو فوقه حبوب وأزهار وأشجار .

لا تجد هنا فوق ظهر الفراشة الصلبة سوى الأغنام والبقر والخيل ترعى ، وتعيش هنا طيور الهدهد والأقزاق ، ولا تجد من المبانى غير طواحين الهواء ، وبعض الأكواخ الحجرية ولكن هناك على الشاطىء قرى واسعة ، وكنائس ، ومستوطنات لصيادى السمك ، ومدينة كاملة » .

تطلع فى تساؤل إلى الرجل الآخر الذى فرغ من طعامه ، وأخذ يحزم حقيبة ظهره .

قال له الشاب : « لست أدرى ما الذى تريد أن تصل إليه ؟ » .

قال الراعى بصوت خفيض ، وكأنه ينطق الكلمات همسًا ، ويحدق فى الضباب بعينيه الضيقتين ، وقد بدا عليهما الإنهاك من كثرة التأمل والبحث وراء شيء غير موجود . .

قال : « شيء واحد أريد أن أعرفه » ، ثم صمت لحظة ، وعاود الحديث قائلا : « هذا هو فقط ما أريد أن أعرفه : هل الفلاحون الذين يعيشون على المزارع الممتدة تحت الأسوار الصخرية أو الصيادون الذين يصطادون أسماك الرنجة من البحر ، أو التجار فى يورغوم ، أو الضيوف الذين يفدون إلى هنا كل صيف للاستجمام ، أو السائحون الذين يطوفون بالقلاع ، أو الرياضيون الذين يأتون فى الخريف للصيد ، أو الرسامون الذين يجلسون هنا لرسم لوحاتهم عن الماشية وطواحين الهواء ، أقول أريد أن أعرف : هل أيٌّ منهم يدرك أن هذه الجزيرة كانت فراشة ذات جناحين كبيرين لهما وميض ؟» .

قال الراعى الشاب : « . . آه ، أحسب أن بعضهم أدرك ذلك ، نظرًا إلى أنهم يجلسون إلى حافة السور الصخرى عند المساء ، يسمعون غناء العندليب بصوته المرتعش فى البساتين الممتدة تحتهم . ولهذا . . عرفوا أن الجزيرة لا يمكن أن تكون قد ظهرت إلى الوجود بنفس الطريقة التى ظهرت بها الجزر الأخرى » .

قال الراعى العجوز : « أريد أن أسأل سؤالاً : ترى ألم يفكر أحد فى أن يصنع لطاحونة الهواء الدوارة جناحين كبيرين جدًا يبلغان عنان السماء ، ويكونان من الضخامة ، بحيث يحملان كل الجزيرة ، ويحلقان بها بعيدًا عن البحر ، وتظل تطير مثل فراشة بين الفراشات ؟» .

قال الراعي الشاب : « ربما كان في كلامك بعض الصدق ، لأنني أرى السموات في ليالي الصيف تتسع وتتفتح فوق الجزيرة وأخالها وكأنها تريد أن تهم وترتفع بعيدًا عن البحر ، وتطير إلى عنان السماء » .

بعد أن استطاع العجوز أن يشد الشاب إلى الحديث ، لم يعد ينصت إليه مليًّا .

قال العجوز بصوت خفيض : « أود أن أعرف : هل هناك من يفسر لي سر الحنين الطاغي الذي أشعر به هنا ؟ . ظل هذا الشعور الذي ينتابني كل يوم من أيام حياتي ، وأحسب أنه يراود كل من يأتي إلى هذا المكان . أريد أن أعرف : هل هناك غيري أدرك أن كل هذا الحنين إنما يرجع إلى أن الجزيرة كلها ليست سوى فراشة مشتاقة لجناحيها ؟» .

قضى الإوز البري ليلته في شمال أولاند ، وهاهو الآن في طريقه إلى القارة. هبت ريح جنوبية قوية ،دفعت به شمالاً ، ولكنه لا يزال يكد ويشق طريقه بسرعة ملائمة . وما إن اقترب الإوز البري من الشاطىء، حتى دوى صوت دمدمة شديدة ،كأن طيورًا ذات أجنحة قوية أقبلت تضرب الهواء بعنف . واستحال ماء البحر من تحتها إلى لون أسود قاتم . توقفت آكا فجأة عن تحريك جناحيها ، وبدت وكأنها ساكنة في الهواء .

دنت آكا قليلاً من الأرض لتحط على شاطىء البحر . . وقبل أن يهبط الإوز ، ويحط على الماء ، لحقت به العاصفة الغربية التي دفعت قبلها بسحابات غبار ، وزبد مالح ، وطور صغيرة ، وانتزعت كذلك الإوز البري وطوحت به بعيدًا ، ثم ألقت به ناحية البحر .

كانت عاصفة عاتية . حاول الإوز البري العودة ، وجاهد في ذلك مرة

ثانية ، وثالثة ، ولكنه عجز تمامًا ، ووجد نفسه مدفوعًا بقوة العاصفة نحو بحر البلطيق . بدا البحر تحته خاليًا مهجورًا ، وليس أمام الإوز إلاّ أن يطير فى اتجاه الريح .

عندما لحظت آكا أنهم عاجزون عن العودة ، رأت ألاّ حاجة بها لتسلم نفسها للريح تدفعها هى وسربها فوق بحر البلطيق ، وبهذا هبطت ودنت من البحر . كان البحر غاضبًا هائجًا ، يزداد عنفًا كل دقيقة ، والأمواج تتدافع بسرعة ، يكسوها زبد أبيض . . كل موجة تندفع وتعلو فوق الأخرى، كأنها فى سباق لترى أى الأمواج أعلى وأعنف وأكثر زبدًا ، ولكن الإوز البرى لم يخش الأمواج العالية ، بل على العكس . . يبدو أنه وجد فيها متعة وتسرية ، فكان يهبط إلى أطرافها ، يغمس جسمه فى زبدها ليستحم بمائها مسرورًا مثل الأطفال فوق الأرجوحة . . ولم يقلقهم سوى الخوف من أن يتباعد أفراد السرب ويتفرق الإوز . . وصاحت الطيور التى تعيش فوق اليابسة ، وقد دفعتها العاصفة أمامها . . : «لا خطر عليكم يا من تجيدون السباحة » . .

لكن الإوز البرى لم يكن حقيقةً فى مأمن من أى خطر ، ذلك أن أرجحة الموج جعلته فى غفوة عاجزًا . . وكثيرًا ماحاول الإوز أن يدير رأسه، ويدس منقاره تحت جناحه ، ويسلم نفسه للنوم ، وليس هناك ما هو أخطر من النوم فى هذه الحالة ، ولذلك كانت آكا تنادى عليهم بين الحين والآخر :

«لا تستسلموا للنوم . . إن من ينام ، سيتركه بقية السرب . . ومن يبعد عن السرب سيضل الطريق » .

على الرغم من كل محاولات المقاومة ، إلاّ أن الإوز استسلم للنوم ،

الواحدة تلو الأخرى ، حيث إن آكا نفسها كادت تغفو وتنام ، لولا أنها أبصرت فجأةً شيئًا داكنًا مستديرًا يرتفع فوق قمة الموجة .

صاحت آكا صيحةً عاليةً حادة : « عجول البحر !! عجول البحر !!»، وضربت بجناحيها الهواء بقوة ، وارتفعت إلى أعلى . . وقد حدث هذا فى اللحظة الحاسمة ، إذ قبل أن تتمكن آخر إوزة برية من الارتفاع بعيدًا عن الماء ، اقتربت منها عجول البحر ، وأمسك أحدها بقدم إوزة . إلاّ أنها تمكنت بصعوبة من الإفلات .

هكذا حلق الإوز عاليًا فى الهواء ثانية ، ليواجه العاصفة التى دفعته أمامها إلى عرض البحر . لم يعد هناك مجال للراحة ، وغابت اليابسة عن الأنظار ، ولا شيء غير بحر مهجور.

وحط الإوز ثانية فوق الماء حالمًا وأتته الجرأة على ذلك ، وأسلمته أرجحة الأمواج للنوم من جديد . . وبعد أن استغرق الإوز فى النوم ، أقبلت عجول البحر تسبح فى البحر . . ولولا يقظة آكا ، لما أفلت الإوز من بين أسنان عجول البحر .

احتدمت ثورة العاصفة طوال اليوم ، وأثارت فوضى مروعة بين حشود الطيور الصغيرة التى اعتادت على هذه الهجمة فى هذا الوقت من السنة . دفعت العاصفة بعض الطيور إلى تغيير مساره نحو بلاد غريبة ، حيث مات جوعًا، ونال الإرهاق من الطيور الأخرى ، وهوى إلى البحر ، حيث مات غرقًا . . واصطدم كثير من الطير بالأسوار الصخرية ، ووقع الكثير فريسة سهلة لعجول البحر .

بدأت آكا تتساءل أخيرًا ، إذا كانت هى وسربها سيهلكون ويموتون؟ . .

فلقد بلغ منهم التعب غايته ، ولم يقع بصرهم على مكان يحطون فوقه ليأخذوا بعض الراحة . . وأقبل المساء ، ولم تواتها الجرأة لكى تدعو سربها ليحط فوق سطح البحر ، إذ فاض البحر فجأة بكميات هائلة من الطوف الجليدى ، الذى أخذ يصطك بعضه ببعض ، وخشيت أن يسحقهم بين أطرافه. وحاول الإوز البرى مرتين أن يحط فوق الطوف الجليدى ، ولكن العاصفة طوحت به ذات مرة إلى الماء ، وزحفت عجول البحر فى المرة الثانية فى محاولة للانقضاض عليه بدون رحمة .

حين غابت الشمس ، حلق الإوز مرة أخرى فى الهواء ، وواصل الطيران ، وقد تملكه الخوف من الليل . بدت ظلمة الليل وكأنها تزحف بسرعة تلاحقه فى هذه الليلة المحفوفة بالمخاطر .

اشتد به الروع ، إذ لم يبصر أرضًا . ترى ماذا يحدث لو اضطر للبقاء فوق البحر طوال الليل ؟ . . إمّا أن تطحنه قطع الطوف الجليدى ، وإمّا إن تلتهمه عجول البحر ، أو أن تغرقه العاصفة .

تلبدت السماء بالغيوم السوداء ، وتوارى القمر ، وأقبل الليل بظلمته مسرعًا ، وامتلأت الدنيا خوفًا وفزعًا ، وكان هذا كفيلاً بأن يملأ أشجع القلوب جبنًا . وترددت فى جنبات البحر صرخات الطيور المهاجرة ، هلعًا من هول المحنة ، دون أن تجد من يلقى إليها بالاً أو يعبأ بها . . واصطدمت كتل الطوف الجليدى بعضها ببعض فوق سطح البحر محدثةً أصواتًا كأنها هزيم الرعد. . وغنت عجول البحر أغانيها الوحشية التى تطلقها وقت الصيد . . وبدت السماء توشك أن تنطبق على الأرض .

ظل نلز فترة يتطلع إلى البحر من عليائه ، وأحس فجأة أن البحر بدأ

يزأر أشد مما كان . . رفع ناظريه ، وتطلع أمامه ، فرأى على بعد مترين فقط جرارًا أجرد وعرًا ، والأمواج تلطم قاعدته بقوة ، فتتحول إلى زبد متناثر . . طار الإوز البرى صوب الجرف الصخرى مباشرة ، والصبى لا يدرى كيف يمكن تجنب الارتطام به ، فيتحول الجميع إلى شظايا متناثرة . وبدأ يتساءل فى نفسه : ترى هل أدركت آكا الخطر فى الوقت المناسب عندما كانوا جميعًا بالقرب من الجبل ؟ ولحظ أنهم أمام فتحة نصف مستديرة لكهف . . دخل الإوز عبر هذه الفتحة ، وأحس بعد ذلك بالأمن .

قبل أن يتمتع الإوز بمشاعر الأمن ، بدأت آكا تطمئن على سلامة كل رفاقها . اطمأنت إليهم جميعًا ، فيما عدا الإوزة كاكى ، التى تبين أنها مفقودة ، ولا أحد يعرف شيئًا عن مصيرها ، ولكنهم لم يحزنوا كثيرًا لأن الإوزة كاكى عجوز حكيمة ، تعرف كل الطرق والمسالك ، وسوف تهتدى إلى طريق العودة ، واللحاق بهم .

وأخذ الإوز البرى يفتش كل جوانب الكهف ، ليطمئن . كان ضوء النهار يتسلل من فتحة الكهف ، فيشيع داخل الكهف نورًا كافيًا ليروا كل ناحية فيه ، ويعرفوا مدى عمقه واتساعه .

ابتهج الإوز لعثوره على هذا المأوى ، ليقضى فيه يومه . ولمحت إوزة عند فتحة الكهف نقطتين خضراوتين لامعتين ، تتألقان فى ركن معتم .

صاحت آكا : « هاتان عينان . . توجد حيوانات ضخمة هنا . واندفع الإوز ناحية فتحة الكهف ، إلاّ أن نلز صاح بهم : « لا يوجود ما تخافونه وتهربون منه . . إنها بعض الأغنام الراقدة بجوار جدار الكهف » .

رأوا الأغنام بوضوح . . الأغنام الكبيرة عددها يساوى عدد الإوز ،

وبجانبها بعض الحملان، وكان بينهم كبش كبير له قرنان طويلان ملتويان، تبدو عليه ملامح العظمة ، وكأنه يؤكد أنه كبير القطيع وزعيمه .

ذهب الإوز البرى إليه ، وانحنى أمامه ، ومسح الأرض بمنقلره إلى الوراء تعبيرًا عن التحية والإجلال ، وقال له :

« لقاء طيب فى البرية » . ولكن الكبش ظل ساكنًا فى مكانه ، ولم ينطق بكلمة ترحيب . وظن الإوز البرى أن الأغنام غاضبة لأنه أخذ منهم الكهف الذى يأوون إليه .

قالت آكا : « ربما ساءكم أننا دخلنا إلى هنا ؟ لكننا جئنا هنا رغمًا عنا ، إذ دفعتنا الريح إلى هذا المكان ، وقضينا النهار كله نحلق فى الفضاء مع العاصفة الهوجاء ، وكم هو جميل منكم لو سمحتم لنا بأن نقضى الليلة هنا» .

مضى وقت طويل قبل أن يجيب بعض الأغنام بكلمة واحدة . . كانت آكا تعرف عن يقين أن الأغنام دائمًا خجولة غريبة الأطوار ، ولكنها أدركت أيضًا أن هذه الأغنام لا تدرى كيف تتصرف ! . وأخيرًا ، تقدمت نعجة لها وجه طويل يثير الشفقة ، وقالت بصوت حزين :

« ليس بيننا من يرفض إقامتكم هنا ، ولكن عندنا فى هذا المكان مأتم ، واليوم يوم حداد ، ولا نستطيع استقبال ضيوفٍ مثلما كنا نفعل فى الأيام السابقة » .

قالت آكا : « لا عليكم ، لا تزعجوا أنفسكم بشىء كهذا . . لو عرفتم ما قاسيناه اليوم ، لأدركتم أننا رضينا بمجرد الاهتداء إلى مكانٍ آمن ننام فيه» .

عندما فرغت آكا من كلامها ، وقفت البجعة العجوز وقالت : «أعتقد أن من الأفضل لكم الطيران فى العاصفة الهوجاء المدمرة عن البقاء هنا ، ولكننا لن ندعكم ترحلون من هنا ، قبل أن يكون لنا شرف استضافتكم » .

قادتهم إلى حفرة فى الأرض مملوءة ، وبجانبها كومة من الحب والقشر والتبن ، وطلبت منهم أن يأكلوا من الطعام مايشاءون . وقالت النعجة : «قضينا شتاءً قارصًا قاسيًا هذا العام فوق الجزيرة ، وأحضر إلينا أصحابنا الفلاحون كميات من التبن وقشر الشوفان ، حتى لا نموت جوعًا . . وهذه هى البقية الباقية من الطعام الذى أحضروه » .

اندفع الإوز إلى الطعام على الفور . . و أحس أنه حقق نجاحًا طيبًا ، وأصبح فى أحسن حالاته المزاجية . ولابد أن الإوز لحظ قلق الأغنام . ولم يكن الإوز يعتقد أن هناك خطرًا حقيقيًا قريبًا . وبعد أن فرغ من طعامه ، اعتزم الوقوف لينام كالعادة ، إلاّ أن الكبش الضخم نهض من مكانه ، واتجه ناحية الإوز. خيل للإوز أنه لم ير فى حياته كبشًا بمثل هذه الضخامة، وله مثل هذه القرون الطويلة المخيفة ، فضلاً عن شكله المميز، إذ له جبهة عالية ممتلئة ، وعينان حادتان فيهما ذكاء ووحشية ، وفيهما خيلاء وجاذبية ، كأنه حيوان متكبر جسور .

قال الكبش : « أنا لا أستطيع حمل مسئولية بقائكم أيها الإوز هنا ، دون أن أخطركم أن المكان هنا غير آمن ، ونحن لا نستطيع استقبال ضيوف ليلاً» .

أدركت آكا أن الأمر جدّ خطير ، فقالت :

« سنرحل من هنا ، مادامت هذه هى رغبتك ، ولكن هل تخبرونا أولاً

عما يثير قلقكم ؟ فنحن لا ندرى شيئًا عنه ، بل إننا لا نعرف أين نحن ؟ ولا فى أى مكان ؟ » .

قال الكبش : « هذه جزيرة ليلا كارلسون . . ولا يعيش هنا غير الأغنام وطيور البحر » .

سألت آكا : « وهل أنتم أغنام متوحشة ؟ » .

أجاب الكبش : « نحن أقرب إلى ذلك . . لا علاقة لنا بالبشر ، وهناك اتفاق قديم بيننا وبين بعض فلاحى المنطقة بأن يمدونا بالعلف إذا جاء شتاء ثلجى ، ونعطيهم مقابل ذلك من الأغنام الزائدة عن الحاجة ، التى لا ضرورة لها ، لأن الجزيرة صغيرة ، ولا نستطيع أن نطعم أعدادًا كبيرة، وفيما عدا ذلك . . فإننا نتولى مهام الدفاع عن أنفسنا طوال أيام السنة ، ولا نسكن بيوتًا ذات أبواب وأقفال ، بل كهوفًا مثل هذا الكهف » .

سألت آكا فى دهشة : « وهل تبقون هنا فى الشتاء أيضًا ؟ » . . أجابها الكبش: « نعم ، فلدينا علف كافٍ بالقرب من الجبل ، يكفينا العام كله» .

قالت آكا : « أحسب أن حالكم أفضل من حال أغنام أخرى كثيرة ، ولكن ماهى الكارثة التى حلت بكم ؟ » .

ـ « كان الشتاء الماضى قارصًا . تجمد البحر وأقبل ثلاثة ثعالب ، سارت فوق الجليد . مكثوا هنا منذ ذلك الحين، ولولاهم، لما كان هناك أى خطر على حيوانات الجزيرة » .

قالت آكا : « ياه . . وهل تجرؤ الثعالب على مهاجمة حيوانات ضخمة مثلكم؟ وقال الكبش ، بعد أن هز قرنيه : «لا . . لا . . لا يحدث ذلك

نهارًا، ثم إننى أستطيع أن أحمى نفسى وقطيعى ، وعلى الرغم من أننا نحاول أن نظل يقظين ، إلاّ أن النوم يغلبنا حينًا فتنقض الثعالب علينا . لقد هاجمت الثعالب الأغنام التى تسكن الكهوف الأخرى ، وكانت منها قطعان ضخمة كثيرة العدد مثلنا ».

قالت النعجة العجوز : قد لا يكون جميلاً أن أقول لكم أننا عاجزون لا حيلة لنا ، فنحن لا نستطيع أن نساعد أنفسنا ، تمامًا كأننا أغنام مستأنسة».

سألت آكا : « هل تظن أن الثعالب قد تأتى الليلة ؟» . أجابت النعجة العجوز: « هذا ما نتوقعه . . كانوا هنا بالأمس ، وسرقوا الكثير من بيننا ، وستأتى الثعالب إلى هنا مابقى أحدنا حيًّا . . فهذا ما فعلوه فى الأماكن الأخرى ».

قالت آكا : « ولكن لو تمادوا فى أسلوبهم ، فسوف يقضون عليكم ، ويستأصلونكم تمامًا » . . أجابت النعجة :« لن يمضى وقت طويل قبل أن تفنى الأغنام هنا ، ولن يبقى لها أثر فوق الجزيرة ».

وقفت آكا مترددة ، وقالت فى نفسها : « يكن من الملائم أن نخاطر بالطيران وسط العاصفة ، كما أنه ليس من السليم أن نبقى فى بيت نتوقع أن يحضر إليه مثل هؤلاء الضيوف» . أطرقت رأسها حينًا تفكر مليّا ، ثم التفتت إلى توميتوت وقالت له :

« لست أدرى . . هل تستطيع أن تساعدنا مثلما فعلت كثيرًا من قبل؟». أجاب : « نعم ، هذا ما أحب أن أفعله ... » . قالت الإوزة البرية : « حقًا إنه من المؤسف ألاّ تنال قسطًا من النوم ، ولكن هل تستطيع أن تظل يقظًا ، حتى إذا ما أقبلت الثعالب ، توقظنا لكى نهرب بعيدًا » .

لم يعجب الصبى هذا الرأى ، ولكن رأى أنه أفضل من الخروج إلى العاصفة . لهذا . . وعد بأن يظل يقظًا ويسهر عليهم .

ذهب نلز إلى فتحة الكهف ، وزحف وراء حجر ليحتمى من العاصفة ، وقبع فى مكانه المختار يرقب ما حوله .

أحس الصبى وهو فى مكانه بعد فترة من الزمن أن العاصفة أخذت تخف وتهدأ تدريجيًا . تفرقت السحب شيئًا فشيئًا ، وتسلل من بينها ضوء القمر ليداعب الأمواج . وخطا الصبى خطوات نحو الفتحة ، ليطل على الخارج . عرف أن الكهف فى مكان مرتفع من الجبل ، وأن الطريق إليه عبارة عن ممر ضيق ، وتوقع أن تأتى الثعالب من هذا الطريق .

لم تظهر الثعالب حتى الآن ، ولكن كان هناك شىء آخر ، أثار فى نفسه الرعب أكثر من الثعالب ! ؛ إذ أبصر الصبى تحت سفح الجبل بعض المردة ، أو ربما بعض جان الأساطير ، أو لعلهم كائنات بشرية حقيقية ، خيل إليه أول الأمر أنه يحلم ، ولكنه الآن على يقين من أنه لم ينم . . هاهو يرى الناس العمالقة بوضوح شديد . . فليس فى الأمر وهم . بعضهم يقف على الشريط الأرضى الضيق ، وآخرون على يمين الجبل ، وكأنهم يعتزمون تسلقه . . بعضهم له رؤوس ضخمة غليظة ، وبعضهم الآخر له أرداف من أمام ومن خلف . يا للهول . . إنه لم ير فى حياته شيئًا غريبًا كهذا !

وقف نلز يحدق ، وشغلته حالة الذعر التى استبدت به بسبب تلك المردة الخرافية ، حتى نسى مراقبة الثعالب . . ولكنه يسمع الآن خربشة أظافر فى الحجر . رأى ثلاثة ثعالب تتسلق المنحدر ، وأدرك أن أمامه خطر حقيقى يجب التعامل معه . عاد الهدوء إليه ، وزايله الخوف . . لم يشأ أن

يوقظ الإوز ، ورأى أن يوجه مسار الأحداث على نحو آخر .

أسرع إلى الطرف الآخر من الكهف ، وهز قرنى الكبش الكبير بقوة ، حتى أيقظه ، ثم قفز فوقه ، وامتطى ظهره .

قال الصبى : « قم يا كبش ، قم فسوف نحاول أن نخيف الثعالب» . حاول أن يتمالك نفسه ويبدو هادئًا قدر المستطاع ، ولكن لابد أن الثعالب سمعت بعض الضوضاء ، لأنها حين وقفت أمام فتحة الكهف ، ثبتت فى مكانها لحظة ، ثم أخذت تخطو خطوات بطيئة مترددة .

قال أحدهم : « أكاد أجزم أن أحدهم يتحرك هناك بالداخل . لست أدرى . . ربما كانوا يقظين » . .

وقال آخر : تقدم وادخل . على أية حال ، هم أعجز من أن يفعلوا شيئًا ، أو يصيبونا بسوء .

تقدمت الثعالب إلى داخل الكهف ، ثم توقفت تتشمم حولها ، وهمس أول الداخلين : « ترى من سنقتنصه الليلة ؟ » .

قال الأخير : « الليلة دور الكبش الكبير ، ثم من بعده بقية القطيع . . فسوف يكون بقية القطيع فريسة سهلة لنا بدون الكبش » .

جلس الصبى فوق ظهر الكبش العجوز ، ورأى كيف تتسلل الثعالب خلسة . همس الصبى . . هيا الآن . . اندفع بقوة إلى الخارج ، وانطح مباشرة .

نطح الكبش ، وغرز قرنه فى الثعلب الأول ؛ فسقط رأسه مكان ذيله عند فتحه الكهف .

أدار الصبى رأس الكبش ناحية اليسار ، وصاح به :

« انطح يسارًا » .

قفز الكبش قفزة مروعة طوحت بالثعلب الثانى بعيدًا . . وتدحرج الثعلب مرات ومرات فوق الأرض قبل أن يقف ثانية على قدميه ويهرب بجلده . وحاول الصبى أن يعطى الثعلب الثالث نصيبه من النطحات ، ولكنه كان قد هرب واختفى ، ولم يعد له وجود .

قال الصبى : « أحسب أنهم نالوا ما يكفيهم هذه الليلة » .

قال الكبش : «أظن هذا . الآن استلق فوق ظهرى ، واستدفىء بصوفى. تستحق أن تنعم بالدفء والراحة بعد كل ما عانيت بسبب الريح والعاصفة» .

فى اليوم التالى خرج الكبش الكبير فى جولة ، والصبى فوق ظهره ، وطاف به كل أنحاء الجزيرة . . إنها عبارة عن كتلة جبلية واحدة ، وهى أشبه ببيت كبير له جدران عمودية وسطح مستو . سار الكبش ـ أول الأمر ـ فوق سطح الجبل ، ليرى الصبى مناطق العشب ، حتى ظن الصبى أن الجزيرة خلقت للأغنام وحدها ، ومن أجلهم ، إذ لم يكن هناك غير العشب، وبعض نباتات قليلة من النوع الذى تحبه الأغنام أيضًا .

لكن هنا شىء آخر غير علف الأغنام ، يمكن أن يتطلع إليه كل من يتسلق الجبل ، ويصل إلى هذه المرتفعات . وأول هذه الأشياء . . ذلك الامتداد الشاسع اللانهائى للبحر ، الذى يبدو الآن أزرق ينعكس عليه ضوء الشمس الذهبى ، وتعلو وتهبط فوق سطحه الأمواج المتلألئة . .

بدا البحر ساجيًا . هدأت أمواجه ، وقلّ نثار الزبد ، إلاّ فى مواضع قليلة . ترى ناحية الشرق مدينة جوتلاند بساحلها الطويل الممتد ، وتقع فى الجنوب الغربى جزيرة كارلسون التى شيدت حسب نفس طراز الجزيرة . وعندما ركض الكبش ناحية طرف الجبل ، استطاع الصبى أن يشهد جدران الجبل ، ولحظ أن بطن الجبل ملىء بأعشاب الطيور ، وقد تزين سطح البحر من تحته بالعديد من الطيور مختلفة الألوان ، مثل : البط البحرى ، والنورس، وطائر الغلموت . . وبدت الطيور هادئة ، وديعة ، مسالمة ، شغلت نفسها باصطياد صغار سمك الرنجة .

قال الصبى : « يالها من أرض جميلة تهفو إليها النفس . إنكم تعيشون فى مكان ساحر جميل ، أغبطكم عليه أيتها الأغنام » .

أجاب الكبش : « أوه ، نعم ، إنه حقًا جميلٌ جدًا ، ثم صمت لحظة ، كأنه يريد أن يضيف شيئًا ، ولكنه (اكتفى بأن تنهد)، ثم قال بعد قليل : «إذا تجولت بمفردك . . فحذار من المنحدرات والشقوق المتناثرة هنا وهناك فى كل أنحاء الجبل » . وكان هذا تحذير فى موضعه ، نظرًا لكثرة هذه الشقوق والمنحدرات فوق الجبل . ويسمى أكبر هذه الشقوق حفرة الجحيم، وحدّثه عنها الكبش قائلاً : « إنها حفرة عميقة جدًا ، لو سقط فيها أحد ، فهذه هى نهايته » .

أحس الصبى وكأن فى كلامه معنًى خاصًا . ثم سار بالصبى إلى الشريط الساحلى الضيق . استطاع الصبى الآن أن يرى الجن ، أو المردة الذين أثاروا فى نفسه الخوف والرعب بالأمس . لم تكن الجن سوى أعمدة صخرية طويلة ، أطلق عليها الكبش اسم « جلاميد الشاطىء » . لم ير

الطفل مثلهم من قبل ، وقال فى نفسه : « لو أن جنًا تحولوا إلى حجارة ، فلن يكونوا إلاّ على هذه الصورة » .

على الرغم من جمال الشاطىء عند السفح ، إلاّ أن الصبى أعجبته المرتفعات أكثر . بدا السفح مروعًا ، إذ حيثما يخطو تقع عينيه على أغنام ميتة . هاهنا تجد الثعالب بغيتها ، فقد رأى هياكل عظمية منهوشة اللحم ، جثثًا التهمت الثعالب نصفها ، وجثثًا أخرى لم تمس . وحز فى نفسه أن يرى كيف تنقض الوحوش المفترسة فوق الأغنام ، لا لشىء أحيانًا إلاّ قصد اللعب والرياضة ، تقنع فقط بصيدها وتمزيقها ، وتلقى بها للموت .

لم يتوقف الكبش أمام جثث الموتى ، بل سار بجانبها فى صمت حزين . ولم يقو الصبى على مشاهدة كل الآثار التى تثير الخوف والهلع .

وعاد الكبش يتسلق الجبل صاعدًا إلى قمته ، ولمّا بلغ القمة ، توقف لحظة ، وقال : « إن أى قادر عاقل يشهد كل هذه المآسى السائدة هنا ، لن يهدأ له بال ، حتى ينزل العقاب بهذه الثعالب » .

قال الصبى : « أولى بالفلاحين أصحاب الجزيرة أن يأتوا إلى هنا ويساعدوكم » .

رد الكبش : « جاءوا إلى هنا مرارًا ، ولكن الثعالب كانت تختفى فى الكهوف والشقوق ، فيعجزون عن صيدها » .

قال صغير الغنم : « لا أظنك يا أبى تعنى أن مخلوقًا ضئيلاً مسكينًا مثلى يمكنه التصدى لهم فى حين لم تنجح أنت ولا الفلاحين فى التخلص منهم » .

قال الكبش : « إن الصغير النشط قادر على أن يضع أمورًا كثيرة فى نصابها » .

أمسك كلاهما عن الحديث فى هذا الموضوع ، وذهب الصبى ليجلس بين الإوز البرى الذى يقتات هناك . وعلى الرغم من أنه لم يحرص على الإفصاح عن حقيقة مشاعره أمام الكبش ، إلاّ أنه كان شديد الحزن على الأغنام ، ويحس بأنه سيكون سعيدًا غاية السعادة لو استطاع أن يساعدهم، وقال فى نفسه : « إننى أستطيع ـ على أقل تقدير ـ أن أتحدث فى هذا الموضوع مع آكا ، ومع ذكر الإوز الأبيض . ربما يساعدا باقتراح جيد» .

بعد قليل ، حمل ذكر الإوز الأبيض الصبى فوق ظهره ، وحلق فوق الجبل ناحية حفرة الجحيم .

ظل يحوم سعيدًا مبتهجًا فوق الجبل ، غير واعٍ بحجمه ولونه . لم يحاول أن يحتمى وراء شجيرة ، أو أى مأوى ، بل طار فى طريقه مندفعًا . كان غريبًا أنه لم يأخذ حذره على الرغم من متاعب العاصفة بالأمس . بدا فى سلوكه كأنه آمنٌ مطمئن ، لا يستشعر خطرًا ، يلتقط ورقة عشب هنا ، وأخرى هناك . وتمدد نلز فوق ظهره مستلقيًا ، يتطلع إلى السماء والنجوم . . لقد اعتاد نلز على الركوب فوق ظهر ذكر الإوز ، حتى بات يتحرك ويرقد ويقف وهو فوق ظهره دون خوفٍ أو وجل .

وبينما كان كلاهما مرحًا خالىَ البال ، لم يلحظا أن ثعالب ثلاثة أخرى قد عادت إلى عادا إلى قمة الجبل .

إن الثعالب تدرك أنه من المستحيل صيد إوزة فوق أرض منبسطة ، ولذلك عزفوا أول الأمر عن مطاردة ذكر الإوز ، ولكن لأنه لا يشغلهم شىء

آخر ، قرروا أخيرًا التسلل إلى أحد الممرات ، لعلهم يمسكوا به . وساروا إلى المكان بحذرٍ شديد ، حتى إن ذكر الإوز لم يحس بهم .

كانوا على مقربة من ذكر الإوز ، وعندما حاول أن يهم ليحلق فى الهواء ، بسط جناحيه ، لكنه أخفق فى رفع نفسه . وعندما أدركت الثعالب حقيقة عجزه عن الطيران ؛ أسرعت نحوه فى شهية وشغف . لم تحاول إخفاء نفسها ، بل ظهرت له واضحة فوق الهضبة المنبسطة ، واقتربت من ذكر الإوز شيئًا فشيئًا ، دون أن يلحظ أنه يوشك أن يقع فريسة بين مخالبهم. وأخيرًا أصبح لا يفصل بينه وبينهم غير مسافة قفزة واحدة . وبالفعل قفزوا ثلاثتهم معًا فى وقتٍ واحد قفزة طويلة ناحية ذكر الإوز .

لكن يبدو أنه فى آخر لحظة أحس بشىء ما ، وذلك لأنه جرى بعيدًا ؛ فأخطأته الثعالب . وأخذ المسكين يعدو ويعدو بكل قوته ، وصرخ الصبى الجالس فوق ظهره : « لقد أكلتم حتى شبعتم أيها الثعالب ، وأتخمت بطونكم بخروف سمين ، ولكنكم لن تنالوا إوزة واحدة » .

أغاظهم الصبى ، حتى جن جنونهم ، واستشاطوا غضبًا ، واندفعوا وراءهما . ظل ذكر الإوز يجرى بأقصى سرعته تجاه الشق الجبلى الكبير . وما إن بلغه ، حتى ضرب بجناحيه الهواء ضربة واحدة ؛ فقفز فوق الشق .

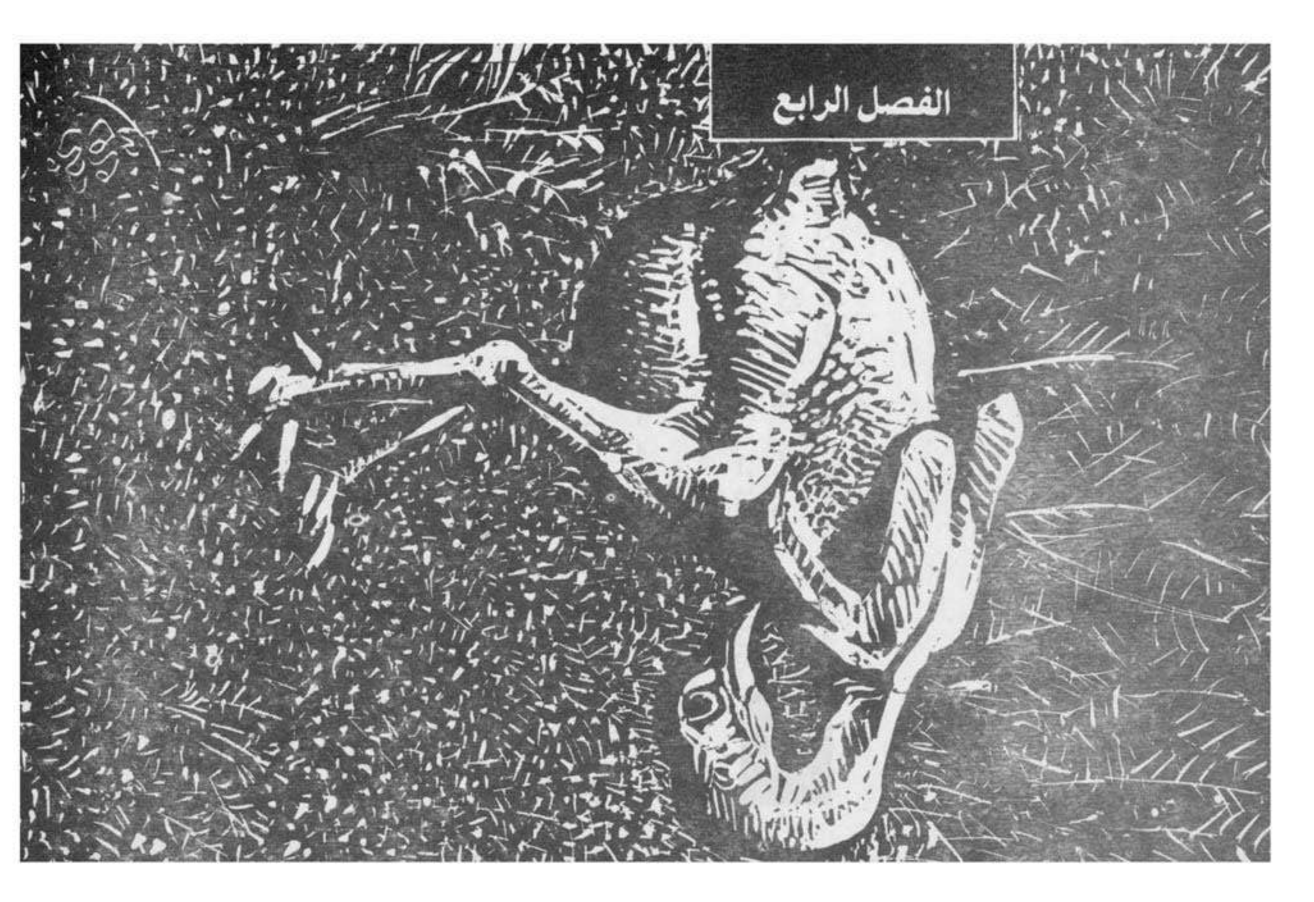
واصل ذكر الإوز عدوه بنفس السرعة ، حتى بعد أن تجاوز حفرة الجحيم، ولكن الصبى ربت على رقبته ، وقال : « الآن نستطيع أن نتوقف، وتكف عن الجرى يا صديقى » .

تناهى إلى سمعهما فى هذه اللحظة أصوات عواء وحشى ، ومخالب تحك الصخر ، وحجارة تتساقط ، ولكنهما لم يرا الثعالب ثانية .

وفى صباح اليوم التالى ، وجد حارس الفنار المقام فوق الجزيرة قطعة من لحاء الشجر تحت الباب ، مكتوب عليها بحروف كبيرة .. « سقطت الثعالب فى حفرة الجحيم . احذرهم» .. وأخذ حارس الفنار حذره منهم أيضًا .

* * *

الفصل الرابع



4

كانت ليلة هادئة صافية ، لم يتحمل الإوز البرى أى متاعب للبحث عن مأوى داخل كهف من الكهوف، بل قنع بالوقوف لينام فوق قمة الجبل . ورقد نلز بجوار الإوز وسط العشب القصير الجاف .

كانت ليلة مقمرة ، يتألق فيها القمر بنوره الفضى الساطع ، حتى أحال الظلمة نورًا ، وتعذر النوم على الصبى . رقد الصبى يتأمل رحلته ، والأيام التى يعرفها . . وحسب الأيام ، فكانت ثلاثة أسابيع منذ أن بدأ الرحلة ، وتذكر أن الليلة عيد القيامة .

سرح بفكره ، وضحك فيما بينه وبين نفسه ، وقال : « فى هذه الليلة يعود كل السحرة إلى وطنهم » . . كان لايزال يشعر ببعض الخوف من جنيات البحر ، والمردة المسحورين ، وإن كان لا يؤمن بالسحر أبدًا .

هو على يقين من أنه لو كان هناك سحرة فى تلك الليلة ، فإنه سيراهم بكل تأكيد . وهاهو ذا القمر ساطع ينير السماء ، بحيث إنه سيرى أى بقعة سوداء ، مهما كانت صغيرة ، إذا ما تحركت فى الهواء .

وبينما كان الصبى مستلقيًا على ظهره ، ووجهه إلى السماء ، يفكر فى

هذه الأمور ، استقرت عيناه على شيء محبب إلى نفسه . . كان القمر بدرًا، مكتمل الاستدارة ، عاليًا فى سمائه ، وأقبل طائر يحوم فوقه . لم يحلق الطائر عبر القمر ، بل بدا وكأنه انطلق خارجًا منه . رآه الصبى أسود اللون، ومن ورائه خلفية القمر المضيئة ، وقد بسط جناحيه ، وامتد من طرف قرص القمر إلى الطرف الآخر . ظل الطائر يطير فى نفس الاتجاه فى توازن واطراد، كأنه مرسوم على صفحة القمر . . جسمه صغير ، ورقبته طويلة مستديرة ، وساقاه الطويلتان النحيلتان معلقتان تحته . . إنه طائر اللقلق بكل تأكيد ، وليس شيئًا آخر .

لم تمض لحظات قليلة ، حتى حط طائر اللقلق السيد أرمنرخ بجانب الصبى وانحنى أمامه ، وهزه بمنقاره ليوقظه .

اعتدل الصبى جالسًا على الفور ، وقال : « لست نائمًا ياسيد ارمنرخ . كيف خرجت فى منتصف الليل ، وكيف حال قلعة جليمنج ؟ . . هل تريد التحدث إلى الأم آكا ؟ » .

أجاب طائر اللقلق : « إنها ليلة مقمرة ، ساطعة النور ، يستحى معها النوم . لهذا قررت أن أذهب إلى جزيرة كارل لألحق بك وأراك ياصديقى توميتوت . إننى لم أعد إلى قلعة جليمنج ، فمازلت أعيش فى يومرن » .

أحس نلز بسعادة طاغية ، لأن طائر اللقلق جدٌ فى البحث عنه ، واهتدى إليه . قضيا بعض الوقت فى الثرثرة حول موضوعات شتى ، مثل أى أصدقاء من العجائز ، وأخيرًا . . سأل طائر اللقلق صديقه إن كان يحب أن يركب فوق ظهره للتنزه فى هذه الليلة المقمرة الجميلة .

ـ « أوه . . نعم» . هذا هو مايتمناه الصبى إذا استطاع طائر اللقلق أن

يعود إلى رفاقه من الإوز البرى قبل شروق الشمس ، وهذا هو ماوعده به ، وانطلقا .

عاد طائر اللقلق طائرًا فى اتجاه القمر مباشرة ، وأخذ يرتفع ويرتفع ، ويعلو فى السماء ، والبحر من تحته يغوص بعيدًا ، ولكن طيرانه كان سهلاً خفيفًا ، حتى خيل للصبى وكأنه ساكن فى الهواء لا يتحرك .

عندما بدأ السيد أرمنرخ فى الهبوط ، ظن الصبى أن طيرانها فى الفضاء لم يستغرق أكثر من ثوانٍ قليلة .

هبطا على ساحل مهجور تغطيه رمال ناعمة .. وتعلو الشاطىء سحابات من الغبار التى يثيرها الهواء . لم تكن سحابات الغبار المتطايرة عالية ، وإنما حجبت عن الصبى رؤية أى شىء فى الداخل .

وقف السيد أرمنرخ فوق تل رملى ، ورفع إحدى ساقيه ، وثنى رأسه إلى الوراء ، حتى يدس منقاره تحت جناحيه . .

وقال للصبى : « يمكنك يا توميتوت أن تتجول قليلاً فوق الشاطىء ، حتى آخذ قسطاً من الراحة ، ولكن لاتمش بعيدًا ، حتى لا تضل طريقك ؛ ولا تستطيع العودة لى ثانية » .

كانت البداية أن اعتزم الصبى تسلق التل الرملى ، ليلقى نظرة على طبيعة الأرض من ورائه ، ولكن ما إن خطا خطوتين حتى اصطدم طرف حذائه بجسم صلب . انحنى ليرى ما الذى اصطدم بقدمه ، فرأى عملة نحاسية صغيرة ملقاة على الرمل . كانت بالية صدئة لا تغرى الصبى بأن يكلف نفسه عناء الانحناء ليلتقطها ، وإنما اكتفى بأن ركلها بقدمه بعيدًا عن طريقه .

ولكن ما إن اعتدل فى وقفته حتى أصابه الذهول ، إذ أبصر على بعد خطوتين منه جدارًا أسود عاليًا ، له بوابة واسعة ذات أبراج .

حينما انحنى الصبى منذ لحظة ، كان البحر هادئًا متألقًا وديعًا ، ولكنه لا يراه الآن . اختفى البحر من أمام عينيه ، وكأنه توارى خلف جدار طويل له أبراج وفتحات . لم يعد الصبى أمام عينيه مباشرة غير هذا الجدار ، بعد أن كان فى هذا المكان شاطىء ملىء بطحالب البحر . وكانت بوابة الجدار الواسعة مفتوحة .

أدرك الصبى جيدًا أن هذه لعبة من ألاعيب الأرواح ، وقال لنفسه : « لا عليك . . ليس فى هذا ما يخيف ، طالما أنهم ليسوا جانًا شريرين مثل هذا النوع الذى كنت أخاف أن ألتقى به ليلاً » . الجدار والبوابة مبنيان بطراز معمارى جميل . جذبه جمال طرازهما وحدثته نفسه بالدخول ، ليمتع نفسه برؤية ما فى الداخل وقال : « لابد أن أكتشف ما بالداخل ، وسوف أبدأ بالدخول من البوابة » .

رأى على طول المدخل المغطى بالأقواس حراسًا يرتدون ملابس موشاة بالقصب ، وسترات منتفخة ذات ثنايا ، وبجوار كلٍّ منهم رمح طويل . كان الحراس جالسين يلعبون النرد . لم يكن يشغل بالهم شىء غير اللعب ، ولم يلحظ أحدهم الصبى الذى جرى بالقرب منهم .

ورأى بعد المدخل فناءً واسعًا مرصوفًا بحجارة طويلة ملونة ، وتحف بالفناء مبانٍ شاهقة ، بالغة الروعة والجمال ، تفصل بينها طرقات طويلة ضيقة . واحتشدت جماهير غفيرة من الناس فى الميدان المقابل للبوابة ، وقد ارتدى الناس قبعات طويلة ذات حواف من الفرو فوق

سترات من الحرير ، وعلى صدورهم سلاسل زاهية فاخرة . تَزَيّوا جميعًا بهذا الزى الرائع ، حتى تخالهم جميعا ملوكًا .

تزين النساء بثياب طويلة ذات أكمام ، تصل إلى الرسغين ، وفوق رؤوسهن غطاء رأس طويل ، ولباسهن رائع الجمال ، وإن كان لا يبارى فى جماله جمال لباس الرجال .

قال نلز فى نفسه : « إن ما أراه يشبه تمامًا القصة التى اعتادت أمى أن تحكيها لى من كتاب قصص قديم تحتفظ به فى الصندوق» . ولكن نلز لم يصدق عينيه .

لقد كان جمال المدينة فائق الروعة والإبداع ، يشد إليه الأنظار ويضفى على جمال لباس الرجال والنساء رونقًا وبهاءً ، وكان الجمالون يغطى كل بيت مشيد ، بحيث يطل الجمالون على الطريق العام . . وتتميز الجمالونات بارتفاعها ، وجمال زينتها، وروعة زخرفتها ، حتى يخال المرء أنها تتنافس فيما بينها ، لتثبت أيها أروع طرازًا ، وأجمل زينة .

إذا رأى الإنسان فجأة أشياء كثيرة جدًا جديدة عليه تماما ، فإنه لا يستطيع أن يختزن منها فى ذاكرته غير القليل . والصبى يذكر على أقل تقدير أنه رأى جمالونات مدرجة ، وفوق كل درجة تماثيل للمسيح والرسل ، وأيقونات فوق كل فتحة من الفتحات الموجودة على طول الجدار، وجمالونات مزينة بقطع الزجاج المعشق ، وجمالونات عليها خطوط من الرخام الأبيض والأسود ، وبينما كان الصبى يتأمل ـ فى إعجاب ـ جمال كل هذه الأشياء ، انتابه فجأة شعور بالرغبة فى الجرى بسرعة .

أخذ يردد فيما بينه وبين نفسه : « هذا مالم تره عينيّ من قبل ، ولم يخطر على بالى » وأخذ يعدو نحو المدينة من شارع إلى شارع .

كانت الشوارع طويلة مستقيمة وضيقة ، ولكنها ليست خالية ولا كئيبة . الناس هنا وهناك جماعات كثيرة . . جلست النساء على عتبات الأبواب المفتوحة يغزلن بدون مغازل ، فليس معهن شيء غير المكوك ، والحرفيون يعملون بهمة خارج محالهم . ترى فى أحد المحال عمالاً يغلون الز... الخام ، وفى محل آخر يدبغون الجلود ، وفى ثالث يصنعون الحبال .

لو أن نلز لديه وقت كاف ، لتعلم كل هذه الحرف وغيرها ، إذ رأى كذلك صانعى الأسلحة ، وكيف يطرقون الحديد ويصنعون الدروع ، ورأى الخراطين يشكلون الحديد ، وصانعى الأحذية يصنعون النعال متعددة الألوان ، والصائغين يطرقون سبائك الذهب ويشكلونها ، والنساجين يطرزون الملابس بخيوط من الذهب والفضة .

لكن الصبى لا يملك الوقت الكافى ليبقى هنا حتى يتعلم . واندفع فى طريقه ، حتى يتسنى له أن يرى أكثر وأكثر ، قبل أن يختفى كل شيء من أمام عينيه .

كان السور العالى يحيط بالمدينة كلها ، كأنه حزام أو سياج حول حقل زراعى . ورآه عند نهاية كل طريق ، وقد زينته الأبراج والفتحات التى يقف عندها الحراس . وفوق الجدار يسير حراس بدروعهم الصقيلة اللامعة .

بعد أن اجتاز المدينة إلى الطرف الآخر ، أبصر بوابة ثانية فى الجدار ، ووراء البوابة يمتد البحر والخليج . ورأى الصبى فى الميناء سفناً قديمةً ذات

مجاديف ، بعضها محمل على أهبة الرحيل ، وبعضها الآخر ألقى مراسيه . وجال بعينيه فى الميناء ، فرأى الحمالين والتجار يهرعون هنا وهناك . . كل ماحوله نشاط صاخب ، وحياة حافلة بالحركة والعمل .

وعلى الرغم من كل هذه الحياة والصخب ، أحس الصبى أنه ليس لديه وقت ليبطىء أو يتوانى . واندفع يعدو نحو المدينة ثانية ، وعاد إلى السوق. تطل على السوق كاتدرائية ذات ثلاثة أبراج شاهقة ، وقباب تحيط بها التماثيل . وتميزت جدران الكاتدرائية بجمال زخرفتها ، وحسن زينتها ، لما عليها من رسوم ونحت ،حتى إنك لا تجد حجرًا واحدًا فيها بغير زخارف . ويرتفع قبالة الكنيسة بيت له سطح مدرج ، يعلوه برج واحد أسطوانى ، يرتفع عاليًا إلى عنان السماء . وقال الصبى فى نفسه : « لعل هذه هى دار العدالة » . وتحيط بالميدان من كل جانب ـ بين الكاتدرائية ودار العدالة ـ البيوت ذات الجمالونات رائعة الحسن والجمال بزينتها وزخارفها .

أحس نلز بالدفء والتعب ، وقال فى نفسه : « لقد رأيت أهم الأشياء وأبرزها » . وتهادى فى مشيته . . اتجه إلى شارع يعتبر الشارع التجارى الذى يشترى منه سكان المدينة ثيابهم . أبصر حشودًا من البشر أمام الأكشاك ، حيث يعرض التجار مختلف أنواع الأقمشة ، من الحرير ، والساتان ، وأقمشة مطرزة بالقصب والفضة ، والجوخ الناعم ، والمخدات التى تشبه نسيج العنكبوت رقة ودقة ... إلخ .

لم يكن الناس فيما قبل تلحظ الصبى وهو يجرى مسرعًا ، إذ لابد أنهم كانوا يظنونه فأرا صغيرًا يفلت منهم ، ولكنه الآن وهو يمشى متهاديًا

على مهل ، كان من اليسير أن يلحظه أحد المارة . وبالفعل أبصره بائع ، وأشار بإصبعه نحوه .

أحس نلز بالقلق والخوف أول الأمر ، وهم ليجرى هاربًا ، ولكن البائع اكتفى بأن أشار إليه ، وابتسم فقط ، ثم بسط على مائدة البيع ثوبًا من الحرير الدمشقى الرائع ، وكأنه يريد أن يغريه .

هز الصبى رأسه ، وحدث نفسه قائلاً : « لن يبلغ بى الغنى يومًا إلى الحد الذى أشترى فيه مترًا واحدًا من هذا القماش » .

لكن الباعة لحظوه جميعًا . . وحينما التفت ، رأى جماعة منهم يشيرون إليه . لقد تركوا زبائنهم الأثرياء ، ولم يفكروا فى شىء آخر سواه . ورأى كل واحد منهم يجرى إلى داخل الكشك، يفتش فى أركانه ، ليخرج بأجمل مما حوى من ثياب ليعرضها عليه بيد مرتعشة ، وكانوا جميعًا يبسطونها على مائدة البيع فى شغف وعجلة .

وبينما واصل الصبى سيره ، قفز أحد التجار فوق مائدة البيع ، وأمسك به ، وبسط أمامه قماشا فضيًا ، ونسيجًا مزدانًا بالرسوم والصور، يتلالأ بألوانه الزاهية .

لم يفعل نلز شيئًا ، بل اكتفى بأن ضحك إليه . . ويبدو يقينًا أن البائع أدرك أن مخلوقًا ضئيلاً كهذا لا يمكنه شراء مثل هذه البضائع الفاخرة . ظل نلز واقفًا ساكنًا فى مكانه ، باسطًا يديه الفارغتين ، حتى يدركوا أنه صفر اليدين ، لا يملك شيئًا ، وعليهم أن يتركوه فى سلام .

لكن التاجر رفع إصبعه ، وأومأ إليه ، ودفع بكوم البضائع الجميلة كله أمام نلز . وكان التاجرعلى استعداد لبيع كل هذا بقطعة ذهب واحدة .

أخرج التاجر قطعة بالية باهتة ، هى أصغر عملة يمكن أن يراها . . وعرضها على الصبى . وبدت عليه اللهفة لكى يبيع ، حتى إنه ضاعف كوم البضاعة بكميات إضافية من الكئوس الفضية .

دس الصبى يديه فى جيبيه يبحث عن شىء فيهما . إنه يعلم جيدًا أنه لا يملك حتى عملة واحدة ، ولكنه لم يجد أمامه إلاّ أن يفعل ذلك على الرغم منه .

وقف التجار الآخرون جميعهم ساكتين بلا حراك ، يتطلعون إليه ، منتظرين ما تسفر عنه عملية البيع . وعندما أبصروا الصبى يبحث فى جيوبه ، انتشروا جميعًا فوق موائد البيع ، وملأوا أيديهم بزينات وزخارف من ذهب وفضة ، وقدموها إليه . وأوضحوا له أنهم لايريدون منه مقابل كل هذا ، المطلوب فقط أن يدفع قرشًا واحدًا ، لا أكثر .

لكن الصبى قلب جيوبه إلى الخارج ، ليروا أنه لايملك شيئًا . وإذا به يرى عيون التجار قد فاضت بالدمع .

ساد الوجوم والاكتئاب وجوههم ، مما دفعه إلى الابتعاد عنهم ، وهو يتفكر مليًّا لعله يهتدى إلى وسيلة لمساعدتهم أو التسرية عنهم . . ثم تذكر العملة المعدنية الصدئه التى عثر عليها وهو يمشى على الشاطىء .

شرع يجرى فى الطريق ، وقد أحس أن الحظ حالفه ، حتى بلغ البوابة التى صادفها أول مرة . اندفع خارجًا منها ، وبدأ يبحث بعينيه وسط الرمل عن العملة النحاسية الصدئة .

اهتدى إليها على الفور . . والتقطها من على الأرض ، واستدار ليجرى عائدًا بها إلى المدينة ، ولكنه لم ير غير البحر أمامه .

اختفى جدار المدينة . . واختفت البوابة ، واختفى الخفراء والحراس . . لا شوارع ، ولا بيوت . . لاشىء سوى البحر الممتد أمام عينيه .

لم يتمالك الصبى نفسه ، وفاض الدمع من عينيه أيضًا . . ظن أول الأمر أن ما رآه ليس سوى تخيلات وهلوسة ، ولكنه أهمل ظنه هذا الآن ... فلم يعد يفكر إلاّ فى روعة جمال ما شاهدته عيناه ، وأحس بأسى عميق لاختفاء المدينة .

استيقظ طائر اللقلق (السيد أرمنرخ) فى تلك اللحظة ، ونهض يبحث عنه . . ناداه ، ولكن الصبى كان شارد الفكر ، فلم يسمعه . . هزه بمنقاره ليثوب إلى رشده .

قال الطائر : « أحسبك واقف هنا لتنام مثلما أفعل . . » . قال الصبى : « أوه ياصديقى . . ماتلك المدينة التى كانت هنا منذ لحظات؟» .

قال طائر اللقلق « هل رأيت مدينة ؟ . . صدق كلامى . . لقد نمت وراودتك أحلام سعيدة » .

وقال توميتوت : « لا ، لم أنم ، ولم أحلم » . وقص على طائر اللقلق كل ماشاهده وماحدث له .

ثم قال السيد أرمنرخ : « من ناحيتى أنا ياصديقى توميتوت ، أعتقد أنك نمت هنا ، وحلمت بكل ما تحكى عنه . ولكننى لن أخفى عليك أن صديقنا الغراب الأسحم باتاكى هو أعلم الطيور وأعرفها بشئون المكان ، وقص علىّ ذات يوم أنه كان فى هذا المكان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، مدينة على هذا الشاطىء اسمها فينيتا . كانت

مدينة شديدة الثراء ، شديدة البذخ والترف ، ولم يعرف مدينة أخرى تدانيها غنًى ، وتضارعها مجدًا وفخامة ، ولكن سوء الحظ أسلم أهلها أنفسهم للترف والغطرسة وحب اللهو والتظاهر . وقال لى الغراب باتاكى أن المدينة نالت عقابها جزاء ذلك ،إذ فاض البحر وطغى ؛ فابتلع المدينة، وغاصت فى الأعماق . . إلاّ أن السكان لم يموتوا ، والمدينة لم تدمر . وفى ليلة من كل مائة عام تطفو المدينة على السطح بكل روعتها وجمالها وزينتها . . وتظل كذلك ساعة واحدة فقط .

قال توميتوت فى لهفة : « نعم ، لابد أنها هى التى رأيتها » .

بعد أن تنقضى الساعة ، تغوص المدينة إلى قاع البحر ، إذ لم يستطع أى تاجر من تجارها بيع أى شىء لمخلوق حى . . لو أنك يا تومى كنت تحمل قرشًا واحدًا، ودفعته للتجار ، لبقيت مدينة فينيتا الآن على الشاطىء ، ولعاد أهلها للحياة العادية ، يعيشون ويموتون مثل بقية البشر ».

قال الصبى : « فهمت الآن ياصديقى لماذا أتيت لتبحث عنى فى منتصف الليل . لعلك اعتقدت أن بإمكانى أن أنقذ المدينة . . يؤسفنى أن الأمور لم تسر كما كنت تحب وتهوى » .

وضع الصبى وجهه بين راحتيه وبكى . . ولم يكن يسيرًا أن تحدد أيهما أكثر حزنا وأشد أسى من غيره ؟! .

وفى عصر يوم الاثنين من عيد القيامة ، كان الإوز البرى ، ومعه توميتوت يحلقون عاليًا فى السماء ، وعبروا فوق جوتلاند .

رأوا الجزيرة الكبيرة راقدة فى هدوء وسكينة من تحتهم ، وبدت الأرض

مرقطة مثلما بدت لهم فى مدينة سيكان ، إذ كانت مليئة بالبيوت والكنائس، والمزارع . . ولكن لم يكن هناك غير فارق واحد ، وهو وجود مروج مورقة بين الحقول . ولم تكن هناك عزب وحدائق كبيرة ، أو قلاع قديمة ذات أبراج مزخرفة .

اتخذ الإوز البرى طريقة فوق جوتلاند ، لكى يتيح لتوميتوت فرصة مشاهدتها ، والتسرية عن نفسه . . ذلك لأنه قضى يومين وهو فى غير حالته الطبيعية ، واجمًا لا ينبس بكلمة مبهجة . . وسبب هذا أنه لم يكن يفكر فى شىء ، إلاّ فى تلك المدينة التى ظهرت له بصورة غريبة ، ثم اختفت . إنه لم ير فى حياته ما هو أروع وأفخم من ذلك ، ولن يرضى عن نفسه لإخفاقه فى إنقاذها . وها قد استبد به حزن عميق من أجل المبانى الجميلة ، وأهل المدينة ذوى الجلال والبهاء .

حاولت آكا ـ كما حاول ذكر الإوز الأبيض ـ إقناع توميتوت بأنه فريسة حلم أو هلوسة ، ولكن الصبى عزف عن السماع لكلام كهذا . إنه واثق من أنه رأى بالعين مايحكى عنه ، ولن يزحزحه أحد عن اقتناعه بذلك . . لقد تفطر قلبه حزنًا ، وتملكه الغم ، حتى قلق عليه رفاق الرحلة .

بعد أن بلغ اكتئابه غايته ، أقبلت الإوزة العجوز كاكى لتلحق بالركب كانت قد طارت صوب كوتلاند ، ثم اضطرت إلى أن تعبر الجزيرة بطولها ، وعندما علمت بحال توميتوت ، وما صار إليه ، قالت باندفاع وقوة : «إذا كان توميتوت حزينًا على المدينة القديمة ، فإننا قادرون على أن نعيد إلى نفسه الراحة والسكينة فورًا . هيا يا تومى تعال معى ، وسأصحبك إلى مكان شاهدته بالأمس ، هيا . . سوف يزول عنك الحزن سريعًا » .

حيا الإوز البرى الأغنام تحية الوداع ، واتخذوا طريقهم إلى المكان الذى أرادت الإوزة العجوز كاكى أن تريه لصديقهم توميتوت . إنه لم يستطع ـ وهو الحزين المكتئب ـ أن يرفع عينيه عن الأرض التى يحلق فوقها .

خيل إليه وكأن الجزيرة فى البداية تشبه جرفًا صخريًا شديد الارتفاع ، وعر الانحدار ، وإن كانت أكبر من جزيرة كارل الصغيرة ، ولكنها انبسطت بعد ذلك ، وتمددت ، كأن شخصًا ما أمسك بمرقاق العجين ، وسار به ليرققها وكأنها كتلة عجين ضخمة . وليس معنى هذا أن الجزيرة أصبحت منبسطة مستوية ، مثل : الكعكة أو رغيف الخبز ، فهى ليست كذلك بالضبط .

وبينما كان السرب يحلق فوق الشاطىء ، أبصر أسوارًا جيرية بيضاء ، وكهوفًا وصخورًا شديدة الوعورة والانحدار فى كل الاتجاهات .

كانت جزيرة كوتلاند فى وقت راحة الظهيرة ، فبدت هادئة مسالمة . سادها جو الربيع الحانى . وقد أنبتت الأشجار براعمها .. وزينت أزهار الربيع أرض المروج المورقة ، وتأرجحت ضفائر أشجار الحور الرشيقة ، واخضر نبات عنب الثعلب الذى تناثر حول الأكواخ .

أغرى الدفء وأزهار الربيع المتفتحة الناس بالخروج إلى الحدائق والطرقات وتجمع بعضهم فى لهو ومرح . ولم يكن الأطفال وحدهم الذين يلعبون، بل الكبار أيضًا .. كانوا يلقون الحجارة ويصوبونها على نقطة محددة ، ويقذفون الكرات عالية فى الهواء ، حتى لتكاد تلمس الإوز البرى. وإن من دواعى السرور والبهجة أن جماعات غفيرة من الناس تلهو وتلعب . ولا ريب فى أن نلز كان له أن يبتهج ويتمتع بهذا اللهو ، لو استطاع أن ينسى حزنه الذى تملكه بسبب فشله فى إنقاذ المدينة .

لكنه قال على أية حال إن الرحلة أثلجت صدره ، وأدخلت بعض البهجة إلى نفسه ، لتلك الأغانى والأصوات الرقيقة التى ملأت الهواء . . الأطفال يرقصون فى دوائر ، ويغنون وهم يلعبون . وأبصر جماعة من الناس تزينت بثياب حمراء وسوداء ، وجلست فوق مقاعد خشبية ، بعض يعزف الجيتار ، وبعض الآخر يعزف على آلات نحاسية ، وأقبل حشد من الناس عائدين من رحلة ترفيهية . عرفهم بأعلامهم الكبيرة التى ترفرف فوقهم ، وعليها كتابات بخيوط الذهب . كانوا يرددون الأغنية تلو الأغنية ، وهو يستمع إليهم .

لم يعد الصبى يفكر فى جزيرة كوتلاند ، دون أن يفكر فى الألعاب والأغانى فى ذات الوقت .

قضى زمنا طويلاً جالسًا فى مكانه يتطلع إليهم . . ولكنه هاهو الآن يرفع ناظرية مصادفة . أصابته دهشة تجل عن الوصف . . كان الإوز قد تجاوز داخل الجزيرة ، واتجه غربًا . . ناحية شاطىء البحر . رأى البحر الأزرق الواسع ممتدًا أمام عينيه ، ولكن لم يكن البحر هو الذى أذهله ، بل المدينة التى ظهرت فوق الشاطىء .

أقبل نلز من ناحية الشرق ، فى حين كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فى المغرب .

عندما اقترب أكثر فأكثر من المدينة ، أى أسوارها ، وأبراجها ، وبيوتها ، وكنائسها . . وجدها سوداء تماما ، ومن خلفها صفحة السماء ساعة الغسق تبدو وضيئة بالمقارنة بها . لذلك . . تعذر عليه أن يراها على حقيقتها ، وظن للوهلة الأولى أن المدينة لابد أن تضارع فى جمالها المدينة التى رآها ليلة عيد القيامة .

لكنه عندما أصبح فوقها مباشرة ، تبين له أنها لا تشبه المدينة المستقرة فى قاع البحر . . إن الاختلاف بينهما مثل الاختلاف بين رجل رأيته يومًا يرفل فى أفخر الثياب ، ويتحلى بأروع الجواهر ، ثم رأيته يومًا آخر وقد ارتدى لباسًا مهلهلاً مرقعًا .

نعم ، لعل هذه المدينة كانت يومًا ما تضارع فى جمالها وبهائها تلك المدينة التى جلس يفكر فيها . . فها هى أيضًا يحيط بها سور له أبراج ، وبوابات ، إلاّ أن أبراج هذه المدينة التى قدر لها أن تبقى على سطح الأرض، بغير سقوف ، وخاوية ، وفارغة تمامًا ، والبوابات بدون أبواب، والحراس والخفراء والمحاربون غير موجودين . . فقد اختفوا ، ولا أثر لهم. لقد ذهب عنها كل بريق ، وكل مظهر من مظاهر الجمال ، ولم يبق منها غير هيكل حجرى رمادى .

تقدم نلز أكثر فأكثر فى المدينة ، ورأى أن أكبر جزء فيها يتكون من بيوت صغيرة منخفضة ، وإن تناثرت هنا وهناك بضع بيوت عالية ذات جمالونات ، وبضع كنائس قديمة الطراز . ولحظ أن أسوار البيوت ذات الجمالونات مدهونة بالجير الأبيض ، وعارية من أى زينة ، أو زخرف ، ولكن الصبى رأى منذ قليل المدينة المطمورة ، حيث استطاع أن يتخيل صورة لهذه المدينة الجديدة وهى فى كامل زينتها .

بعض البيوت تزينها تماثيل ، وبعضها الآخر جدرانه من الرخام الأبيض والأسود ، وكذلك كان حال الكنائس القديمة ، أكثرها غير مسقوف ، عارى الجدران . وكانت فتحات النوافذ خاوية ، والأعشاب تغطى السقوف ، ونبات اللبلاب يتسلق الجدران . وبعد أن تخيل الآن كيف كانت فى يوم من الأيام ، تخيلها وقد تزينت بالتماثيل ، وتحلت

بالرسوم والزخارف ، ورجال الدين يروحون ويجيئون فى ثيابهم الموشاة بالذهب . ورأى الصبى الشوارع الضيقة التى يهجرها الناس أثناء وقت الراحة بعد الظهيرة ، ولكنه عرض طوفان البشر الذين كانوا يعمرونها فى وقت ما ويسيرون فيها الهوينى . وعرف أنها كانت يومًا ما أشبه بالمشاغل والمصانع الضخمة التى تزخر بمختلف أصحاب المهن والعاملين .

لكن الشىء الذى لم يره نلز هو أن المدينة لا تزال حتى اليوم جميلة تشد الأنظار ، فهو لم ير الأكواخ الجميلة التى تسر الناظرين ، والمقامة على الطرقات الجانبية بأسوارها السوداء ، وأركانها البيضاء . ولم ير كذلك الحدائق الغناء ، والطرقات الجميلة ، حيث إن عيونه قنعت بمجد الماضى ، فلم تعد ترى شيئًا من جمال الحاضر .

حوم الإوز البرى مرات ومرات فوق المدينة ، حتى يرى الصبى كل شىء ، وأخيرًا حط الإوز فوق سطح كنيسة قديمة تغطيها الأعشاب ، ليقضى ليلته هناك .

وبينما كان الإوز يتهيأ للنوم ، ظل نلز يقظًا . . يمد بصره عبر الأقواس المفتوحة ، يتطلع إلى السماء بلونها القرمزى الشاحب ساعة الغسق . وبعد فترة أحس أنه لم يعد هناك ما يبرر حزنه الذى لازمه بسبب عجزه عن إنقاذ المدينة المطمورة .

لا ، إنه بعد أن رأى مارأى ، لم يعد يريد لها أن تظهر على سطح الأرض . . فلو أن المدينة التى رآها لم تغرق فى البحر ثانية ، لأصابها ما أصاب هذه المدينة من دمار وخراب . ومن يدرى . . فربما تعجز عن مقاومة غوائل الزمن ، وعوامل التحلل وتتحول إلى أطلال خربة : كنائس

غير مسقوفة ، وبيوت عارية الجدران ، وطرقات خاوية مهجورة . . تمامًا مثل هذه المدينة الماثلة أمام عينيه . نعم ، أفضل شيء أن تبقى بكل مجدها وروائها محفوظة فى الأعماق .

قال فى نفسه : « الخير كل الخير فيما حدث . لو أننى أملك القدرة على إنقاذ المدينة ، لما أقدمت على إنقاذها » .

لعل الكثيرين من الشباب يفكرون بنفس الطريقة . ولكن حينما يتقدم السن بالناس ويصيرون شيوخًا ويألفون القناعة بالقليل ، فإن سعادتهم بالأطلال القائمة على سطح الأرض تكون أكثر من سعادتهم بالمدينة الجميلة الرائعة المستقرة فى قاع البحر .

فرغ الإوز البرى من رحلة ساحرة فوق البحر ، ثم حط فى ناحية نجست شمال سمالاند . . ويبدو أن هذه الناحية لم تحسم أمرها بعد . . هل تكون أرضًا ، أم بحرًا ؟ . . الفيوردات (أزقة بحرية ، تكتنفها مرتفعات جبلية شديدة الانحدار) متناثرة فى كل مكان ، وتقسم الأرض إلى جزر وخلجان ، وألسنة ، ورؤوس بحرية . . كان البحر قويًا غلابًا ، فلم تستطع سوى التلال والجبال أن تتماسك فوقه ، وتوارت كل الأراضى الواطئة تحت الماء .

كان الوقت مساءً عندما أقبل الإوز البرى من ناحية البحر ، وانبسطت الأرض والتلال الصغيرة فى دلال وجمال بين الفيوردات الوضاءة . سرح الصبى وأبصر هنا وهناك الأكواخ فوق الجزر ، وكلما امتد البصر إلى الداخل ؛ كبر حجم الأكواخ ، وازداد جمالاً ، حتى أضحت بيوتًا ، ثم أصبحت أخيرًا قصورًا ريفية بيضاء . ورأى الأشجار على طول الشاطىء ، كأنها سياج ، وتقع خلفها بعض المزارع الصغيرة ، ثم أشجارًا ثانية تعلو

التلال المنخفضة . هاهو ذا مكان آخر يلتقى فيه البحر بالأرض فى جمال ساحر ووداعة وسلام . وكان كل منهما يجاهد ليبرز أجمل مالديه .

حط الإوز البرى فوق جزيرة جرداء ، ولحظوا للوهلة الأولى أن الربيع تقدم بخطوات واسعة أثناء غيبتهم بعيدًا عن الجزيرة . . أورقت الأشجار، وتغطت الأرض من تحتها بشقائق النعمان ، فبدت كأنها بساط متعدد الألوان .

عندما شاهد الإوز ذلك البساط الوردى ، ظن أنه أبطأ كثيرًا فى الجنوب. وقالت آكا : « إنه ليس لديهم وقت كافٍ للبقاء هنا ، وأن عليهم أن يرحلوا شمالاً » .

حزن نلز ، لأنه لن يجد الفرصة لمشاهدة سمالاند . . كان قد سمع الكثير من الأقاصيص عن سمالاند ، وتمنى لو استطاع أن يشاهد كل ذلك بعينيه ، وتذكر كيف أنه فى الصيف الماضى ، حين كان يعمل حارسًا للإوز عند فلاح قريب منهم ، التقى بولدين من سمالاند يرعيان الإوز أيضًا . . واعتاد الصبيان إغاظته بأقاصيصهما عن سمالاند .

سأل أحدهما نلز ذات يوم : « هل سمعت ياراعى الإوز كيف كان حال الدنيا قبل خلق سمالاند؟ » . . وإذا قال نلز : « لا . لم أسمع » . . شرع الصبى على الفور يحكى له أسطورة قديمة تجىء على ألسنة العامة .

فى الركن الجنوبى الغربى من سمالاند تقع بلدة سانيربو ، وهى بلدة سهلة منبسطة ، ومن يزورها فى الشتاء ، حين يغطيها الجليد ، لا يتخيل أن هناك أى شىء تحت الجليد ، سوى أرض بور ، ونباتات برية وأعشاب ، كما هى الحال دائما بالنسبة للبلدان المنبسطة . ولكن عندما يحل الربيع ،

ويذوب الثلج ، ويكشف عما يخفيه تحته . . ترى أراضى رملية ، وصخورًا جرداء، ومستنقعات ضخمة مليئة بالوحل والأعشاب ، وتتناثر الحقول هنا وهناك ، لكنها فى الحقيقة مساحات صغيرة جدًا ، حتى إنها لا تستحق الذكر . ويرى الزائر كذلك بيوت الفلاحين حمراء أو رمادية ، مصنوعة من خشب أشجار البتولا ، وتحس كأن البيوت تتوارى بعيدًا ، خشية أن يراها أحد .

تلامس منطقة سانيربو حدود منطقة هالاند ، وتقع عند منطقة التماس هذه أرض بور رملية شاسعة ، لاتحدها العين ، ولا تنبت فى هذه الأرض غير نباتات برية ، كما أنها لا تصلح لزراعة نباتات أخرى . ويتطلب استزراعها جهودًا كبيرة لاستئصال هذه النباتات البرية ، وإخراج جذورها من الأرض بعد حرثها . والنباتات البرية هنا قصيرة الجذور . . قصيرة الفروع . . قصيرة الأوراق ، ولكنها تبدو فى صورة شجرة متكاملة .

لهذا . . فإنها تسلك سلوك الشجر ، حيث تنتشر على هيئة غابة فوق مساحات واسعة من الأرض وتتشابك بعضها مع بعض ، وتقتل كل نبات آخر غريب يريد أن يزاحمها .

المنطقة الوحيدة التى يضعف فيها العرعر ، هى منطقة منخفضة حجرية، وتنبت فوقها نباتات مثل : أعشاب العرعر ، ورماد الجبل ، وبعض أشجار البتولا .

وبينما كان نلز يطوف فوق المنطقة مع الإوز ، أبصر كوخًا صغيرًا ، حوله مساحة صغيرة من أرض خالية من الأعشاب . . ويبدو أن سكان هذا الكوخ قد رحلوا لسبب أو لآخر عن هذا المكان . لهذا . . كانت العشة خاوية ، والأرض جرداء غير مستعملة .

عندما رحل الفلاحون ـ نزلاء هذه العشة ـ أغلقوا مكان الموقد ، وأحكموا إغلاق النافذة والباب . ولم يفكر أحد فى لوح الزجاج المكسور ، ووضعوا بدلاً منه قطعة قماش ، ويبدو أن وابل المطر الذى تساقط مرات عديدة على مدى عدة فصول الصيف أدى إلى أن تهرأت قطعة القماش ، ونجح أخيرًا غراب فى ثقبها وتمزيقها .

لم تكن حواف هذه الأرض البور مهجورة تمامًا كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل كانت تسكنها أسراب عديدة من الغربان . وطبيعى أن الغربان لا تعيش هناك طول السنة ، ولا تنتقل وترحل إلى مناطق أخرى أثناء الشتاء . كذلك فإنها فى الخريف تنتقل من حقل إلى حقل تلتقط طعامها . وإذا أقبل الصيف انتشرت فوق المزارع تقتات البيض والتوت ، وإذا حل الربيع تعود إلى الأرضالتى أخضرت بعد أن كانت بورًا ؛ لأن هذا هو موسم العيش .

الغراب الذى خطف قطعة القماش غراب ذكر اسمه جارم أبو ريشة بيضاء ، ولكن لا يناديه أحد إلاّ باسم الشهرة ، وهو (الجبان الربكة) ، لأنه لا يتصرف أبدًا إلاّ على نحو جبان وغبى ، ولا يصلح لشىء إلاّ لكى تسخر منه ، وكان هذا الغراب أضخم وأقوى من أى غراب آخر ، إلاّ أنه لم يفده هذا فى شىء على الإطلاق . . فقد كان ـ ولا يزال ـ أضحوكة ، وموضوعًا للسخرية . ولم يفده أيضًا أنه سليل أسرة كريمة الحسب ، عظيمة الثراء . ولو أن الأمور سارت على سجيتها ، لكان هو زعيم قطيع الغربان والقائد الأوحد لها ، ذلك لأن جده الأول « أبو ريشة بيضاء » كان قد استأثر بهذا الشرف العظيم منذ زمن سحيق ، وخص به أسرته وحدها ، ولكن قبل أن يولد الغراب الجبان (الربكة) ، كانت السلطة قد انتقلت من أسرته إلى غراب وحشى قاس اسمه (الإعصار) .

يرجع انتقال السلطة إلى أن الغربان فى مملكة الغربان المتحدة أرادت أن تغير من سلوكها ونظام حياتها ، لعل هناك كثيرين يظنون أن كل ما هو على هيئة غراب يعيش عيشة الغربان ، وبنفس الطريقة ، ولكن الأمر على عكس ذلك . . فالغربان ليسوا سواء . . فهناك قطيع غربان بأكمله يعيش حياة شريفة جديرة بالتكريم . . لأنهم لا يأكلون غير الحَب ، والديدان ، والفراش ، والحيوانات الميتة . وهناك قطعان أخرى من الغربان تعيش حياة العصابات وقطاع الطرق ، حيث ينقضون على أطفال الأرانب المولودة ، وعلى فراخ الطير ، وينهبون كل ماتقع عليه عيونهم من أعشاش الطير .

لقد كان الجد الأول (أبو ريشة بيضاء) حاكمًا صارمًا معتدلاً فى شهواته، كابحًا لنزواته . هكذا كات أسرته الحاكمة وهى فى قمة السلطة ، واضطرت الغربان ـ فى ظل زعامة هذه الأسرة ـ أن تلتزم بقواعد السلوك المحددة ، وتتحكم فى شهواتها على نحو لم يدع فرصة للطيور الأخرى لكى تذم فيهم ، أو تتقول عليهم ، ولكن الغربان تكاثرت ، وانتشر الفقر بينهم، واشتد أثره . وأخيرًا . . لم يعد فى استطاعتهم تحمل هذه الحياة الصارمة ، ولهذا . . تمردت جماهير الغربان ، وثارت ضد أسرة (أبو ريشة بيضاء) ونقلوا السلطة إلى الغراب المدعو (الإعصار) الذى كان بحق أسوأ نهاب لأعشاش الطير ، و أخطر قناص وقاطع طريق يمكن تصوره ، إلاّ زوجته ، واسمها (الطاحونة) ، فقد تضارعه خطورة وقسوة . وبدأت الغربان ـ فى ظل هذه السلطة الجديدة ـ حياة النهب والسلب ، حتى أضحت الطيور والحيوانات تخشاها أكثر من خشيتهم للصقور والنسور .

لم يكن لدى الغراب الجبان (الربكة) شيئًا يقوله بين القطيع . وكانت كل الغربان تؤمن أنه لا يشبه أسلافه فى شىء ، ولا يصلح لكى يكون

زعيمًا، ولم يكن يأتي ذكره على لسان أى غراب ، إلاّ إذا عرف كيف يقتنص فريسة . واعتادت بعض الغربان ـ التى تنعم بقدر من الذوق والحساسية ـ أن تقول أحيانًا : ربما كان الغراب الجبان (الربكة) محظوظًا ؛ لأنه أخرق أبله ، فلولا ذلك ماسمح له الغراب (الإعصار) وزوجته (الطاحونة) بالبقاء بين القطيع .

لكن الغربان ـ من ناحية أخرى ـ كانت ودودة معه ، وتدعوه لمصاحبتها فى غاراتها ، وذلك فى الوقت الذى لم يكن أى واحد من الغربان يعرف أن الجبان (الربكة) هو الذى نتش قطعة القماش من على النافذة ، ولو بلغهم ذلك . . لأصابهم الذهول ، إذ إن من رابع المستحيلات أن يصدقوا أن غرابًا واتته الجرأة على الاقتراب من مسكن آدمى ، واحتفظ الغراب الجبان (الربكة) بهذا الأمر سرّا ، وكتمه عن الآخرين ، وكانت لديه أسباب تدعوه إلى ذلك . . لقد كان الزعيم (الإعصار) وزوجته (الطاحونة) يعاملانه معاملة حسنة أثناء النهار، وحين يكون وسط الغربان . ولكن ذات ليلة حالكة الظلام ، وبينما كان رفاقه فوق فروع الشجر نائمين ، هاجمه غرابان ، وكادا يقتلانه . واعتاد منذ تلك الليلة أن ينأى بنفسه كلما حل الظلام ، ويذهب إلى الكوخ لينام هناك .

فى عصر ذات يوم، وبعد أن نسقت الغربان أعشاشها استعدادًا للنوم، لحظوا شيئًا أثار انتباههم . . رأوا زعيمهم (الإعصار) ، وزوجته (الطاحونة)، ومعهما زوج من الغربان يحلقون فى الهواء ، ثم يهبطون داخل حفرة كبيرة بعيدة فى أحد أركان المنطقة . لم تكن هذه الحفرة سوى حفرة من الحصى ، إلاّ أن الغربان لم تقنع بهذا التفسير البسيط ، فظلوا يطيرون ويهبطون داخلها ، ويقلبون كل حبة رمل ، رغبة فى اكتشاف السبب الذى

دفع بنى البشر إلى حفرها . وبينما هم منهمكون فى عملهم هذا ، تساقط عليهم بعض الحصى من أحد الجوانب . اندفعوا ناحيتها ، وأسعدهم الحظ ، إذ وجدوا بين الحجارة المتساقطة جرة من الفخار أحكم غلقها بقطعة من الخشب حاولوا فتحها ، ولكنهم فشلوا تمامًا .

وقفوا أمامها حيارى ، وبين الحين والحين يعاودون نقر الجرة ، ومعالجة المشبك . وبينما هم كذلك ، سمعوا صوتًا يقول :

« هل أنزل وأساعدكم ؟ » .

ألقوا نظرة سريعة ناحية الصوت ، فرأوا ثعلبًا جالسًا على حافة الحفرة، ويطل عليهم يراقبهم . كان ثعلبًا حسن الصورة ، من أجمل الثعالب منظرًا ، سواءٌ من حيث اللون ، أو الشكل . لم يروا مثله من قبل ، و لم يكن يعيبه سوى شىء واحد ، هو أنه فقد إحدى أذنيه .

قال الغراب (الإعصار) : « إذا شئت أن تخدمنا ، فلن نمانع » .

فى الوقت نفسه طار هو والغربان الأخرى بعيدًا عن الحفرة ، وقفز الثعلب مكانهم ، أخذ يعض الجرة ، ويشد المشبك ، ولكنه أخفق ، وعجز عن فتحها .

قال له (الإعصار) : هل تستطيع أن تخمن ما الذى بداخلها ؟ » .

هز الثعلب الجرة يمينًا وشمالاً ، وأنصت إليها بانتباه شديد ، ثم قال : « أظن أن بها نقودًا فضية » .

كان هذا أكثر مما توقعته الغربان .

قالوا ، وقد كادت عيونهم تخرج من رؤوسهم من شدة النهم ، إذ لا

شيء في العالم يعادل الفضة في حب الغربان لها : « هل تظن أنها فضة فعلاً ؟ » .

قال الثعلب ، وهو يدحرج الجرة : « هاهي ، اسمع خشخشتها . . ولكن الذى لا أعرفه هو كيف نحصل عليها » .

قالت الغربان : « نحسب أن هذا مستحيل » .

وقف الثعلب ، وهرش رأسه بقدمه اليسرى ، وفكر مليًّا . إنه قد ينجح ـ بمساعدة الغربان ـ فى الحصول على هذا الكنز الذى يغريهم بلونه دائماً .

ثم قال الثعلب : « أوه . . أعرف من يستطيع أن يفتح هذه الجرة » . جن جنون الغربان لسماعهم هذا الكلام ، وتدافعوا حتى سقطوا فوق بعضهم داخل الحفرة ، وهم يقولون: « قل لنا من ؟ من هو ؟قل من هو؟» .

قال الثعلب : « هذا ما سأفعله ، ولكن إذا وعدتمونى أولاً بأنكم توافقونى على شروطى » .

قالوا : « نعم ، نحن على استعداد ... » .

حدثهم الثعلب عن توميتوت ، وقال : « إذا استطعتم إحضاره إلى هنا ، فإنه هو الوحيد الذى سيفتحها ، ولكنه طلب فى مقابل هذه المشورة أن يسلموه توميتوت ، بعد أن يسلمهم الفضة . لم يكن هناك ما يدعو الغربان للخوف على توميتوت . . لذلك وافقوا على هذا العرض ، ولكن المشكلة هى أن يعثروا على تومى ويعرفوا أين هو والإوز البرى ؟ .

سافر زعيمهم (الإعصار) بنفسه مع خمسين غرابًا للبحث عنه ، وقال إنه سيعود فورًا ، ولكن مضت الأيام يومًا بعد يوم، دون أن ترى غربان الناحية ظلاله .

استيقظ الإوز من طلوع الفجر ، حتى يجد وقتا لتناول بعض الطعام ، قبل أن يبدأ رحلته . لقد كانت الجزيرة التى ناموا فيها صغيرة جرداء ، وإن كثرت النباتات فى المياه المحيطة بها . . لذا . . وجدوا بين هذه النباتات مايملأ حويصلاتهم . ولكن الأمر كان فى غاية السوء بالنسبة للصبى ، إذ لم يجد ما يصلح طعامًا له .

وقف الصبى بينهم جوعان يغالبه النعاس . وأخذ يتطلع حواليه، فوقع بصره على زوج من السنجاب يلعبان فى مكان مقابل للجزيرة الصخرية . قال فى نفسه : « من الممكن أن يكون قد تبقى لديهما بعض من طعام العشاء » . لذلك . . : طلب من ذكر الإوز أن يحمله إلى المكان الذى يلعب فيه زوج السنجاب ، إذ ربما يجد عندهما بعض ثمار الجوز .

لبى ذكر الإوز الطلب على الفور ، وسبح عبر اللسان البحرى ، حاملاً الصبى إلى حيث أراد ، ولكن لسوء حظه . . أخذت السناجيب تطارد بعضها بعضًا ، وتقفز من شجرة إلى شجرة ، ولم يسمع أحدهم نداء الصبى . وابتعدوا عنه ، وجرى الصبى وراءهم، حتى أصبح بعيدًا عن أعين ذكر الإوز ، الذى ظل ينتظره عند الشاطىء .

خاض نلز بين جذور نبات شقائق النعمان ، التى تصل فى ارتفاعها إلى طول قامته . وبينما كان يجرى . . أحس بشىء أمسك به من الخلف ، ويحاول رفعه إلى قامته أعلى . تلفت وراءه ، فرأى غرابًا يقبض بمنقاره على

طرف القميص . . حاول الإفلات منه ، وقبل أن ينجح فى محاولته ، جاء غراب آخر وأمسك به أيضًا من سرواله ، وطرحه أرضًا .

لو كان نلز قد صاح على الفور طالباً النجدة ، للحق به يقينًا ذكر الإوز الأبيض وأنقذه ، إلاّ أن الصبى على ما يبدو ظن أنه قادر على أن يحمى نفسه، دون مساعدة أحد . حاول أن يرفس ويركل ويضرب ، ولكن الغرابين تشبثا به ، ونجحا أخيرًا فى الارتفاع به عن الأرض ، والتحليق فى الهواء . مما زاد الطين بلة ، إنهما طارا دون اكتراث بما يحملاه ؛ فاصطدم رأسه بفرع شجرة . كانت ضربة قوية ؛ فأظلمت الدنيا فى عينيه ، وفقد وعيه .

عندما فتح عينيه بعد فترة ؛ وجد نفسه عاليًا فى الهواء ، بعيدًا عن الأرض . استعاد حواسه تدريجيًا ، ولكنه لم يعرف أول الأمر أين هو ؟ ولا ماذا ترى عيناه ؟ وألقى نظرة إلى أسفل ، فوجد تحته بساطًا واسعًا من الصوف ، يغطى مساحة شاسعة ، يجمع بين اللونين : الأخضر والأحمر فى غير انتظام .

بدا له البساط كثيفًا ، وإن ساءه عدم الإتقان فى صنعه ، فضلاً عن استعماله استعمالاً سيئًا ، إذ رآه ممزقًا . أغرب شىء دهش له الصبى ، أن رآه منشورًا فوق سطح زجاجى لأنه رأى مساحات من الزجاج تلمع وتتلألأ تحت الثقوب والشقوق .

الشىء الثانى الذى لحظه الصبى ، هو أن الشمس دارت سريعة على صفحة السماء . وبدت المرايا الموجودة تحت الثقوب والشقوق تتلألأ على المنشور بلون أحمر وذهبى . بدت الأرض رائعة البهاء ، فائقة الجمال ،

وأحس الصبى بالبهجة وهو يتأمل هذه الصورة الجميلة متعددة الألوان ، وإن كان لا يفهم بدقة مايراه . لكن بعد أن هبطت به الغربان ، رأى البساط الفسيح ليس شيئًا آخر سوى الأرض ، وقد ارتدت ثيابًا من أشجار الصنوبر الخضراء ، وأن الثقوب والشقوق ماهى إلاّ فيوردات متألقة وبحيرات صغيرة .

تذكر أول مرة سافر فيها محلقًا على ظهر الإوز فى الهواء ، وكيف تخيل الأرض من منطقة سيكان أشبه بقطعة قماش مرقطة . . ولكن ماذا تكون ياترى هذه المنطقة التى تشبه بساطاً ممزقًا ؟ماذا عساها أن تكون ؟ . .

وبدأ يسأل نفسه كثيرًا من الأسئلة : « لماذا لا يجد نفسه جالسًا على ظهر ذكر الإوز ؟ أين الإوز ؟ . لماذا تحيط به أسراب الغربان ؟ لماذا يتقاذفونه يمينًا وشمالاً ، حتى ليكادون يقطعونه إربًا ؟» .

ثم وضحت الصورة فى ذهنه وأدرك الحقيقة ... أدرك أن زوجًا من الغربان اختطفاه ، وأن ذكر الإوز لايزال ينتظره عند الشاطىء ، وأن الإوز يعتزم الليلة الرحيل . وعرف أن الغربان حملته إلى الجنوب الغربى ، وعرف كل هذا ، لأن قرص الشمس أصبح وراءه ، وأدرك أن هذا البساط الفسيح الممتد تحته هو منطقة سمالاند .

تساءل الصبى فيما بينه وبين نفسه : « ترى ماذا سيحدث لذكر الإوز الأبيض الآن بعد أن فقدنى ، ولم أعد قادرًا على رعايته ؟ » . وشرع ينادى الغربان ويستصرخهم أن يعودوا به إلى الإوز البرى . . لم يكن قلقًا على نفسه ، إذ ظن أن مافعلوه معه مسألة من باب الشقاوة والمزاح السخيف .

لم تعبأ الغربان باستغاثاته ، بل طاروا به بأسرع ما تستطيع . وبعد قليل

ضرب أحدهم فى جناحيه ، كمن يريد أن يحذر قائلاً : « انظروا الخطر !»، وسرعان ما هبطت الغربان وسط غابة صنوبر كثيفة الأشجار ، و أخفوه عن الأنظار تمامًا ، بحيث لا يستطيع أن يراه صقر ثاقب البصر . وأحاط به خمسون غرابًا ، كل منهم يصوب منقاره نحوه ، يحرسه ويمنعه من الحركة .

قال الصبى : « لعلى فهمت الآن قصدكم أيها الغربان حين حملتونى بعيدا » .

ولكن الغربان لم تدعه يكمل الجملة ، أسكته غراب كبير قائلاً :

« اسكت ، وإلاّ فقأت عينيك » .

كان واضحًا أن الغراب يعنى مايقول ، ولم يكن أمام الصبى إلاّ أن يطيع . . لذلك . . آثر الصمت ، وهو يحدق بعينيه فى الغربان ، والغربان تحدق فيه .

كلما أطال النظر إليهم ازدادت كراهيته لهم . وياهول منظرها . . ريشها منفوش أشعث ، وأجسامها مغبرة ، كأنها لم تعرف فى حياتها شيئًا عن الاستحمام والتطيب ، ومخالبها وأقدامها جافة ، يغطيها الوسخ والطين ، وأطراف مناقيرها تتدلى منها فضلات الطعام . إنها طيور مختلفة تمامًا عن الإوز . وقال فى نفسه : « يالبشاعة منظرها . إنها قاسية حقيرة ، تشبه السفاحين والمتشردين . . إنها حقًا عصابة لصوص وقطاع طريق ، وقعت بين أيديها » . . وبينما هو يفكر، سمع صوت الإوز فوقه ينادى :

ـ « أين أنت ؟ . . هاأنذا . . أين أنت ؟ . . هاأنذا . . » .

أدرك أن آكا ورفيقاتها خرجن للبحث عنه ، ولكن قبل أن يجيب على ندائهن ، وقف أمامه غراب ضخم ، يبدو أنه رئيس العصابة . وحدق فيه

وحذره قائلاً : « اسكت وفكر فى عينيك ، إن كنت فى غنى عنهما » . ومرة أخرى . . لم يكن أمامه إلاّ أن يسكت .

لم يعرف الإوز أنه قريب منهم ، وإنما حوم مصادفة فوق الغابة ، وسمع الصبى النداء مرتين ، ثم خفت وتلاشى .

قال فى نفسه : « أصبح لزامًا عليك يا نلز أن تخلص نفسك بنفسك . لابد أن تثبت أنك استفدت من رحلتك هذه » .

بعد لحظة ، أعطى كبير الغربان إشارة الاستعداد للرحيل . واستعدت الغربان لكى تحمله ، مثلما حملته أول مرة . ولكن الصبى قال :

« ألا يوجد بينكم غراب قوى يقدر على حملى فوق ظهره ؟ . . لقد أسأتم حملى ، وكاد جسمى يتمزق . دعونى أركب فوق ظهر أحدكم ، وأعدكم بأنى لن أهرب » .

تقدم أضخم الغربان حجمًا ، وهو غراب أشعث فظ ، له ريشة بيضاء فى جناحه ، وقال :

« من الأفضل لنا يقينًا يا سيادة الزعيم (الإعصار) أن يصل توميتوت سليمًا غير ممزق ، وإلاّ فلا فائدة منه . . ولهذا . . أحمله أنا على ظهرى » .

قال(الإعصار) : إن كنت تستطيع ذلك أيها الغراب الجبان الربكة ، فلا مانع ، ولكن حذار أن يضيع منك » .

ارتاح الصبى لهذا الرأى ، وقال فى نفسه : « يجب أن أحتفظ بهدوء أعصابى ، فقد أصبح واضحًا أن الغربان لا تمزح ، بل اختطفتنى ويحسن أن أفكر فى طريقة للتصرف معها » .

طارت الغربان لتواصل رحلتها إلى الجنوب الغربى . كان صباحًا مشرقًا . الشمس ساطعة ، والهدوء يسود الكون ، والطيور على أغصانها تغنى أحب أغانيها . وقف طائر السمنة فوق شجرة عالية،وقد تهدل جناحاه ، وانتفخت رقبته ، وأطلق ألحانه العذبة يغنى :

«ما أجملك . ما أجملك . يا أجمل شىء فى الوجود، ليس عندى ماهو أجمل منك » .

بعد أن انتهى من أغنيته ، أخذ يرددها ويكررها من جديد . سمع نلز غناءه وهو فوق الغابة . وحين سمعه يكررها ، أدرك أنه لا يعرف غيرها ؛ فوضع راحتيه حول فمه ، كأنها بوق ، ونادى :

«قديمة . . سمعناها من قبل . . قديمة . . سمعناها من قبل » . تضايق طائر السمنة ، وتلفت حواليه ، ثم تطلع إلى أعلى ، لعله يرى المنادى ، ثم قال : « من أنت؟من أنت ؟ من هذا الذى يسخر منى ؟ » .

أجاب الصبى : « رهبان الغربان يسخر من أغانيك » . استدار زعيم الغربان ، ونظر إلى الصبى ، وقال فى غضب :

«احذر يا تومى ، وإلاّ فقأت عينيك » .

قال الصبى فى نفسه : « أنا لا يهمنى كل هذا ، وإنما أردت أن أثبت لك أننى غير خائف منك »

واصلت الغربان طيرانها . وكانت الغابات والبحيرات منتشرة فى كل مكان على الأرض . واعتلت حمامة مطوقة غصنًا من أغصان شجر البتولا . . ووقف أمامها ذكر الحمام .

نفش ريشة ، ومال برأسه ، ورفع جسمه ، ثم خفضه ، حتى لامس زغب صدره غصن الشجرة ، وأخذ يحرك جسمه ويهدل :

« أنت ، أنت ، أنت أحب موجود فى كل الغابة . لا أحب أحدًا سواك أنت ، أنت ، أنت » .

حين سمع الصبى هديل ذكر الحمام ؛ لم يتمالك نفسه من التعليق بسخرية ، وصاح قائلا :

ـ « لا تصدقيه !! لا تصدقيه !! » .

هدل السيد ذكر الحمام ، وقال :

« من . . من هذا الذى يكذبنى ؟ . وتلفت ليرى هذا الذى يهزأ به» .

وأجاب الصبى :

ـ « رهبان الغربان يكذبك » .

مرة أخرى استدار (الإعصار) والتفت إلى الصبى ، وأمره بأن يخرس ، إلاّ أن الجبان (الربكة) الذى كان يحمل الصبى على ظهره قال :

ـ « اتركه يثرثر ، لعل الطيور تظن أن الغربان أصبحت طيورًا مرحة خفيفة الظل » .

قال (الإعصار) : « إنهم ليسوا حمقى ليتصوروا ذلك ، ولكن الفكرة أعجبته فى الوقت نفسه ، لأنه ترك الصبى بعد ذلك ينادى كما يشاء » .

استمرت الغربان فى طيرانها فوق الغابات ، ولكن كانت هناك بعض الكنائس والأكواخ . ووقعت عيونهم أحيانًا على مزرعة قديمة محصورة بين البحر والغابة ، لها أسوار ذات أبراج ، وتحيط بها أشجار الإسفندان

والتوت. واعتلى طائر الزرزور طاحونة هواء . . ورفع صوته بالغناء ليسمع زوجته الراقدة على البيض فى عشها .

أخذ يغنى : « لدينا أربع بيضات صغيرة جميلة . . عندنا أربع بيضات صغيرة جميلة مستديرة . . إننا نملك العش مليئًا ببيضٍ جميلٍ صغير » .

أخذ يردد أغنيته مرات ومرات ، والصبى يسمعها ، ثم ضم راحتيه حول فمه ، وصاح : « سيأكلهم الغراب النوحى . سيأكلهم الغراب النوحى » . رف طائر الزرزور بجناحيه فى قلق ، وقال : « من هذا الذى يحاول تخويفى ؟ » .

قال الصبى : « أسير الغربان يحاول تخويفك »

لم يحاول زعيم الغربان أن يسكته هذه المرة . . بل إنه هو وقطيعه ابتهجوا لهذه الثرثرة ، وهبوا فى صوت واحد تعبيرًا عن رضاهم .

لحظ الصبى أنهم كلما تعمقوا أكثر داخل اليابسة ، اتسعت البحيرات ، وكثرت الجزر والألسنة البحرية . ورأى ذكر بط يقف على شاطىء بحيرة يتملق أنثى البط .

قال ذكر البط فى تذلل : « سأكون مخلصًا لك يا حبيبى طول حياتى . سأخلص لك طول حياتى » .

صاح الصبى : « لن يدوم إخلاصك حتى نهاية الصيف » .

قال ذكر البط فى استياء : « من أنت ؟ » .

قال الصبى : « اسمى من سرقته الغربان » .

عندما حان وقت الغذاء ، حطت الغربان وسط أحد المراعى . ساروا

هنا وهناك ، واقتاتوا طعامهم ، دون أن يفكر أحدهم فى أن يعطى الصبى شيئًا يأكله . وجاء الغراب الجبان (الربكة)، حاملاً فرع شجرة به بعض الثمار البرية ، وقدمه لزعيم الغربان ، وقال له : «يا زعيمنا اسمح لى أن أهديك هذه الثمار لتأكلها . إنها طعام جيد يناسب الزعماء » .

ولكن (الإعصار) أشاح برأسه ، وضم منقاره ، وقال فى تأفف :

« هل تظننى آكل مثل هذا الطعام ؟ . . وطوح الثمار بعيدًا . . فسقطت بالقرب من الصبى ، الذى أسرع نحوها ، وأكل ما بها ، حتى شبع .

وبعد أن فرغت الغربان من طعامها ؛ بدأت تثرثر فى حديث مشترك . سأل أحدهم الزعيم : « ما رأيك يا إعصار ؟ فيم تفكر ؟ أراك صامتًا اليوم! » .

ـ « أفكر فى الماضى ، يوم أن كنا نعيش فى هذه الناحية ، ورأينا دجاجة معجبة جدًا بصاحبتها . . وأرادت ذات يوم أن تدخل على نفسها السرور. . فذهبت ووضعت بيضًا يملأ عشًا كاملاً ، ثم أخفته تحت سقف المخزن . طبعا تعجبت السيدة صاحبة البيت ، وتساءلت فى ذهول : (أين اختفت الدجاجة هذا الوقت الطويل ؟) . وظلت تبحث عنها ، ولم تجدها . .

هل تستطيع أن تخمن يا أبو منقار طويل من الذى عثر عليها وعلى البيض ؟» .

ـ « أظن أننى أستطيع يا إعصار أن أخمنه، ولكن بعد أن تحكى لى قصتك ، سأحكى لك أنا أيضًا قصة أخرى » .

ـ هل تذكر القطة الكبيرة السوداء التى كانت تعيش داخل الكنيسة ؟ . .

لقد استأت كثيرًا وتضايقت لأنهم اعتادوا أن يأخذوا منها أطفالها بعد الولادة ويفرقونهم . . مرة واحدة فقط استطاعت أن تنقذهم ، وذلك عندما أخفتهم خارج المبنى . كانت سعيدة جدّا بأطفاها .

أثارت الحواديت خيالهم واهتمامهم ، وغرقوا فى ثرثرتهم .

قال أحدهم : « ماهى قيمة اختطاف قطط وليدة ، وأى شىء فى هذا يدعو إلى الفخر ؟ . . لقد طاردت أنا بنفسى ذات مرة أرنبًا ضخمًا ، كنت وراءه من جحر إلى جحر ! » .

لم يكمل كلامه ، لأن غرابًا آخر تدخل فى الكلام وقاطعه . .

قد يكون مضحكًا أن تضايق دجاجة أو قطة ، ولكن الشىء المثير حقّا أن غرابًا استطاع أن يتصدى لإنسان من بنى البشر ! لقد سرقت ذات مرة ملعقة من الفضة !

رأى الصبى أن من الخير له أن يجلس ويستمع إلى ثرثرة الغربان ، ويشترك معهم فى الحديث .

قال الصبى : « أنصتوا إلىّ أيها الغربان . . أولى بكم أن تخجلوا من حديثكم عن خبثكم ودهائكم . . لقد عشت بين الإوز البرى ثلاثة أسابيع كاملة ، ولم أسمع منه ولم أر إلاّ كل خير . لابد أن رئيسكم غراب سىء الخلق والطباع ، وإلاّ لما سمح لكم بالسرقة والقتل على هذا النحو . يحسن أن تبدأوا حياة جديدة شريفة . واسمحوا لى أن أقول لكم صراحةً : إن بنى البشر ضاقوا ذرعًا بكم ، وتعبوا من خبثكم ، ويحاولون الآن بكل السبل استئصالكم ، وسوف تكون فى هذا نهايتكم » .

عندما سمع الإعصار وبقية الغربان هذا الكلام ، اشتد غيظهم ، حتى

إنهم هموا لينقضوا عليه ، ويمزقوه إربًا . . إلاّ أن الجبان (الربكة) ضحك ونعق وتصدى لهم .

قال ، وقد استبد به الخوف : « لا ، لا ، ماذا تقول الطاحونة لو مزقتم تومى توت قبل أن يصل إلى المكان سليمًا ليخرج النقود الفضية » .

قال الإعصار : « أنت أيها الجبان (الربكة) تخشى النساء دائمًا » .

وانتهى الأمر بأن تركوا جميعًا توميتوت فى سلام . وانطلقت الغربان بعد قليل لتواصل رحلتها . لم يكن الصبى حتى هذه اللحظة يتصور أن سمالاند فقيرة مثلما سمع عنها . حقًا إنها مليئة بالغابات ، وتعلوها الجبال ، ولكن الجزر والبحيرات التى يراها تحف بها أراض منزرعة ، ولم ير حتى الآن مناطق مهجورة ، ولكنه لحظ أنهم كلما تعمقوا إلى الداخل أكثر ، قلت القرى والأكواخ . . وبعد فترة ، رأى أنهم يطيرون فوق بَدَارٍ لا يوجد بها سوى مستنقعات وأراضٍ بور ، وتلال يغطيها نبات العرعر .

غربت الشمس ، وإن كان نور النهار لا يزال واضحًا ، عندما بلغت الغربان أرضًا بورًا شاسعة ، أرسل الإعصار غرابًا لينطلق فى المقدمة ، ويبلغ بأنه قد نجح فى مهمته . . وما إن شاع الخبر ، حتى انطلقت الطاحونة ومعها مئات الغربان فى موكب كبير لمقابلة الأبطال العائدين . وتعالى نعيق الغربان، حتى صم الآذان. وفى وسط هذا الضجيج ،قال الجبان (الربكة) للصبى :

« كنت ظريفا خفيف الدم مرحًا أثناء الرحلة . . وأنا معجب بك للغاية . لهذا أريد أن أهمس إليك بنصيحة : سيطلبون منك بعد الهبوط مباشرة ،

القيام بعمل بسيط ، قد يكون سهلاً جدّا عليك ، ولكن حذار من أن تنفذ لهم ما يطلبون » .

بعد أن همس الغراب الجبان (الربكة) بكلماته في أذن نلز ، هبط في قاع الحفرة الرملية . قفز الصبي من فوق ظهر الغراب ، وتدحرج على الأرض الرملية ، ثم استلقى على الرمل كأنه متعب لا يقوى على شيء . حومت الغربان حوله ، حتى كادت أجنحتها تصل إليه وتحرك الهواء من حوله كأنه عاصفة ، وتحثه على القيام ، ولكن الصبي لم ينظر إليهم .

قال الإعصار « يا تومى ... قم يا تومیتوت . . نطلب مساعدتك في أمر بسيط جدّا » .

لم يحرك الصبي ساكنًا ، وتظاهر بالنوم . . أمسكه الإعصار من ذراعه ، وجرجره على الرمل ، حتى وصل به عند الجرة الخزفية ، وقال :

« قم يا تومیتوت ... قم وافتح هذه الجرة » .

قال الصبي :

«دعوني أنام . . لماذا لا تتركوني أنام . . أنا متعب جدّا ، ولا أستطيع عمل شيء . . انتظروا للغد . . » .

قال الإعصار وهو يهزه بعنف : « افتح الجرة » .

« كيف يمكن لصبي صغير مثلي أن يفتح مثل هذه الجرة الضخمة . . إنها أكبر مني » .

ـ قال الإعصار بلهجة آمرة :

ـ « افتحها ، وإلاّ ستندم على ذلك » .

نهض الصبى، وترنح فوق الجرة . . تحسس المشبك ، ثم ألقى بذراعيه إلى جانبه ، وقال :

ـ « أنا عادة لست ضعيفًا إلى هذا الحد . إذا تركتمونى أنام حتى الصباح، سأكون قادرًا على فتح المشبك » .

نفد صبر الإعصار ، و اندفع نحو الصبى ، ووخزه بمنقاره فى ساقه . لم يعبأ الصبى بالألم ، وجذب ساقه بعيدًا عن منقار الغراب ، وابتعد عنه قليلاً ، واستل سكينه من غمدها ، ومد ذراعه ، وقد شهر السكينة فى وجه الغراب .

صاح الإعصار فى ثورة عارمة :

ـ « حذار ، وإلاَّ فالويل لك » .

استبدت الثورة بالغراب الإعصار ، حتى إنه لم يناور ليتفادى السكين واندفع نحو الصبى كالأعمى . ولسوء حظه أنه انقض مباشرة فوق السكين التى نفذت من عينه إلى داخل رأسه .

سحب الصبى السكين بسرعة ، ورفرف الإعصار بجناحيه مرتين ، ثم سقط على الأرض ميتًا .

صاحت الغربان التى شهدت الحادث عن قرب : « مات الإعصار . اغتال الغريب رئيسنا الأعصار » . وحدث هرج ومرج وضوضاء وصراخ . ناح بعضهم ، وولول وندب ، وطالب آخرون بالثأر . . هرعوا جميعًا ورفرفوا بأجنحتهم وهم يجرون ناحية الصبى ، وفى مقدمتهم الغراب الجبان (الربكة)، بيد أنه تصرف على عادته بصورة خاطئة . . اكتفى بأن بسط

جناحيه فوق الصبى ليمنع الآخرين من الاقتراب منه ، أو أن يمسه أحد بمنقاره .

أحس الصبى أن الأمور ساءت كثيرًا بالنسبة له . . عجز عن الهرب من الغربان ، ولم ير ملجأ يلوذ به ويختبيء فيه . ثم طافت بخاطره فكرة الجرة الخزفية . تشبث بالمشبك ، وجذبه بقوة ، وخلعه ، وقفز ليختبيء بداخلها، ولكن الجرة لا تصلح مخبأ ، لأنها مليئة حتى حافتها بعملات فضية صغيرة . . لم يستطع الصبى الابتعاد ، فبدأ يطوح بالعملات الفضية بعيدًا عنه .

كانت الغربان حتى هذه اللحظة تضرب بجناحيها الهواء من حوله ، وقد تجمعت واحتشدت لتنقره ، إلاّ أنه حين ألقى إليهم بالعملات الفضية ؛ تلهوا عنه فورًا ، ونسيوا ظمأهم للثأر ؛ وهرعوا ليجمعوا النقود .

ظل الصبى يلقى حفنات النقود ، والغربان تلتقطها جميعًا ، بما فيهم الطاحونة التى ثكلت زوجها . ولحظ الصبى أن كل غراب يلتقط قطعة فضية يحملها بمنقاره ويطير إلى عشه بأسرع ما يمكن ليخفيها .

بعد أن ألقى الصبى كل العملات الفضية ، وفرغت الجرة عن آخرها ، تطلع إلى أعلى ؛ فلم يجد غير غراب واحد فقط وسط الحفرة . . كان هو الغراب الجبان (الربكة) أبو ريشة بيضاء فى جناحه ، الذى حمل توميتوت على ظهره .

قال الغراب . . وقد بدت فى صوته رنة غريبة جديدة عليه :

« لقد أسديت لى خدمة جليلة للغاية ، لا تدرى بها أنت نفسك . . ولهذا . . سأنقذ حياتك . . تعالَ واجلس على ظهرى لأحملك إلى مكان

تختبىء فيه ، وتكون آمناً هذه الليلة . . وغدًا سأدبر لك الأمر لكى تعود إلى الإوز البرى » .

فى صباح اليوم التالى استيقظ الصبى ، وكان راقدًا على سرير . وعندها رأى أنه داخل بيت له أربعة جدران ، وسطح فوقه . . ظن أنه فى بيته .

تمتم يحدث نفسه وهو نصف نائم . . . « ترى هل ستأتى أمياالآن ومعها بعض الشاى؟ » ، ثم ذكر أنه فى كوخ مهجور فى منطقة الغربان ، وأن الغراب الجبان (الربكة أبا ريشة بيضاء) أتى به إلى هذا المكان الليلة البارحة .

كان الصبى يحس بألم شديد فى كل جسمه بعد رحلة الأمس ، ورأى أن من الأفضل له أن يظل ساكنًا بغير حراك إلى حين عودة الغراب الجبان (الربكة) ، الذى وعده بأنه سيعود وينقذه .

أزاح الستائر القطنية المرقطة التى تحيط بالسرير ليرى ما بداخل الكوخ . تذكر أنه لم ير من قبل كوخًا كهذا فى حياته . . الجدران كتل من الخشب لاغير ، ثم يبدأ السقف المنخفض والكوخ صغير حتى ظن أنه أقيم لأمثاله ، وليس لبشرٍ حقيقيين . . بيد أن المدفئة والمدخنة كبيرتان ، لم ير مثلهما فى الضخامة .

باب المدخل فى جدار فوقه جمالون بجانب المدفئة ، وهو شديد الضيق ، حتى يظنه من يراه أنه كوة أو شباك ضيق ، وليس بابًا . ووجد فى جدار آخر نافذة واسعة ذات ألواح زجاجية كثيرة ولم يجد داخل الكوخ أى أثاث يمكن تحريكه ، بل كله مثبت فى الأرض . . طاولة على أحد الجوانب ، ومنضدة

تحت النافذة مباشرة فى الجدار ، وكذلك بالنسبة للسرير الذى يرقد عليه ، والدولاب متعدد الألوان .

تعجب الصبى لحال الكوخ ، وتساءل بينه وبين نفسه عمن يكون صاحبه ولماذا هجره ؟ . . وبدا له وكأن من سكنوه سيعودون إليه بالضرورة . هاهو إبريق الشاى وأكوابه موجودة فوق المدفئة . . وبعض الخشب بداخلها مهيأ لإشعال النار فيه ، وعود الفرن وجاروف الخباز فى ركن الحجرة، وعجلة المغزل بجوار الطاولة ، ومجموعات الخيوط للغزل ، وشمعة، وعلبة الكبريت .

كل شيء يوحى بأن أصحاب الكوخ سيعودون يقينًا . . وهاهو أيضًا مفرش السرير مفروش فوق السرير ، وعلى الجدران معلقة شرائط من القماش ، ورسوم وزخارف لخيول وفرسان . . وتكررت رسوم الخيول والفرسان عدة مرات . ورأى الصبى على السقف شيئًا أثار انتباهه :

رغيفين من الخبز . . يبدو أنهما قديمان ، اشتد جفافهما . أمسك الصبى بعود الفرن ، وضرب رغيفا ، فسقطت منه كسرة صغيرة ، أكل منها بعضها، واحتفظ بالباقى فى حقيبته . ما أجمل طعام الخبز ـ مهما كان قديماً ـ بعد طول حرمان !

طاف ببصره داخل الكوخ ، ليستكشف كل ما به لعله يجد شيئًا آخر يفيده ، وقال فى نفسه : « أحسب أن بإمكانى أن آخذ ماأريد ، طالما أنه مباح لايملكه أحد ».

لكن أكثر الأشياء كبيرة الحجم ثقيلة الوزن ، وربما أخف الأشياء وزنًا كان عيدان الكبريت . . تسلق على المائدة . . وبينما هو واقف فوق الرف

يدس عيدان الكبريت فى حقيبته ، جاء الغراب أبو ريشة بيضاء من النافذة .

قال الغراب الجبان (الربكة) وهو يحط فوق المائدة : « هاأنذا جئت أخيراً . لم أكن لأستطيع الحضور قبل ذلك ، لأن الغربان انتخبت رئيسًا جديداً مكان الإعصار » . سأله الصبى : « من الذى اخترتموه ؟ » .

– « اخترنا زعيماً لن يسمح بالسرقة والنهب والظلم . . أُخترت أنا الذى كنت أُدعى قبل ذلك بالجبان (الربكة) » . قال نلز : « أحسنتم الاختيار» . . وهنأ الغراب على انتخابه .

قال أبو الريشة البيضاء : « شكرًا لتمنياتك الطيبة » . . ثم حكى للصبى عن حياته مع الإعصار والطاحونة .

وبينما كان الصبى ينصت إلى الحديث ، سمع صوتاً خارج النافذة . بدا له أنه صوت معروف ومألوف . .

سمع صوت الثعلب يسأل : « هل هو هنا ؟ » . .

أجاب صوت غراب : « إنه مختبىء هنا » .

صاح به الغراب أبو الريشة البيضاء : « حذار ياتوميتوت . . الطاحونة واقفة مع الثعلب ، وجاءت إلى هنا معه ليفترسك » . وقبل أن يتمكن من الهرب ، اندفع الثعلب سمر من خلال النافذة . . سقط إطار النافذة القديم المتهالك ، ووقف الثعلب متحفزًا فوق المنضدة ، وقتل على الفور الغراب أبا الريشة البيضاء ، قبل أن يتمكن من الهرب ، ثم قفز إلى الأرض ، وتلفت حواليه يبحث عن الصبى . حاول الصبى أن يتوارى وراء الجاروف ، ولكن

الثعلب لمحه ، وانحنى ليقفز . وأدرك الصبى أن الثعلب سيمسك به لا محالة ، وأن الحجرة ضيقة ، لايستطيع أن يناور بداخلها ، ولكن لم يكن نلز عاطلاً بل سارع وأخرج عود ثقاب من حقيبته وأشعله وقذف به الثعلب . وما إن أحاطت النار بالثعلب ، حتى استبد به هلع شديد مجنون . . لم يعد يفكر معه فى الصبى ، بل اندفع إلى خارج الكوخ .

لكن يبدو أن الصبى أنقذ نفسه من خطر ليقع فى خطر أشد! . . فقد امتدت النيران إلى السرير . فقفز الصبى ناحية النار يحاول إخمادها ، ولكنها انتشرت بسرعة . امتلأت الحجرة بالدخان ، ووقف الثعلب فى الخارج يرقب الأحداث .

صاح الثعلب : « حسنًا ياتوميتوت . . ترى ماذا اخترت الآن : هل تفضل الموت مشويًا أم تخرج لى هنا ؟ أنا عن نفسى ، أفضل طبعاً أن تخرج لى واستمتع بك طعامًا شهيًا . ولكن يعز على ألاّ تموت » .

أحس الصبى أن الثعلب على حق فيما يقول فإن النار انتشرت فى كل مكان كما اشتعلت فى السرير . وارتفع الدخان إلى السطح ، وبدأت النار تزحف من مكان إلى مكان . . قفز الصبى إلى المدفئة وحاول أن يفتح باب الفرن . وبينماهو يفعل ذلك ، سمع مفتاحًا يدور فى قفل الباب . . آه . . لابد أن هؤلاء بشرٌ جاءوا إلى الكوخ لسبب ما . وإزاء الخطر الرهيب الذى يحدق به ، لم يخف ، بل ابتهج لقدوم هؤلاء البشر .

انفتح الباب فوقعت عيناه على طفلين يقفان قبالته . لم ينتظر الصبى ، بل اندفع خارجًا . لم يجروء على الابتعاد ، إذ عرف أن الثعلب ينتظره فى مكان

ما قريبًا من الكوخ ، لذلك رأى أن من الأفضل له أن يبقى قريبًا من الطفلين . استدار إليهما ، ولم تكد عيناه تراهما ، حتى جرى ، وألقى بنفسه عليهما وهو يبكى :

- « آه . . . طاب يومكما » .

إنهما الصديقان اللذان حدثاه عن سمالاند .

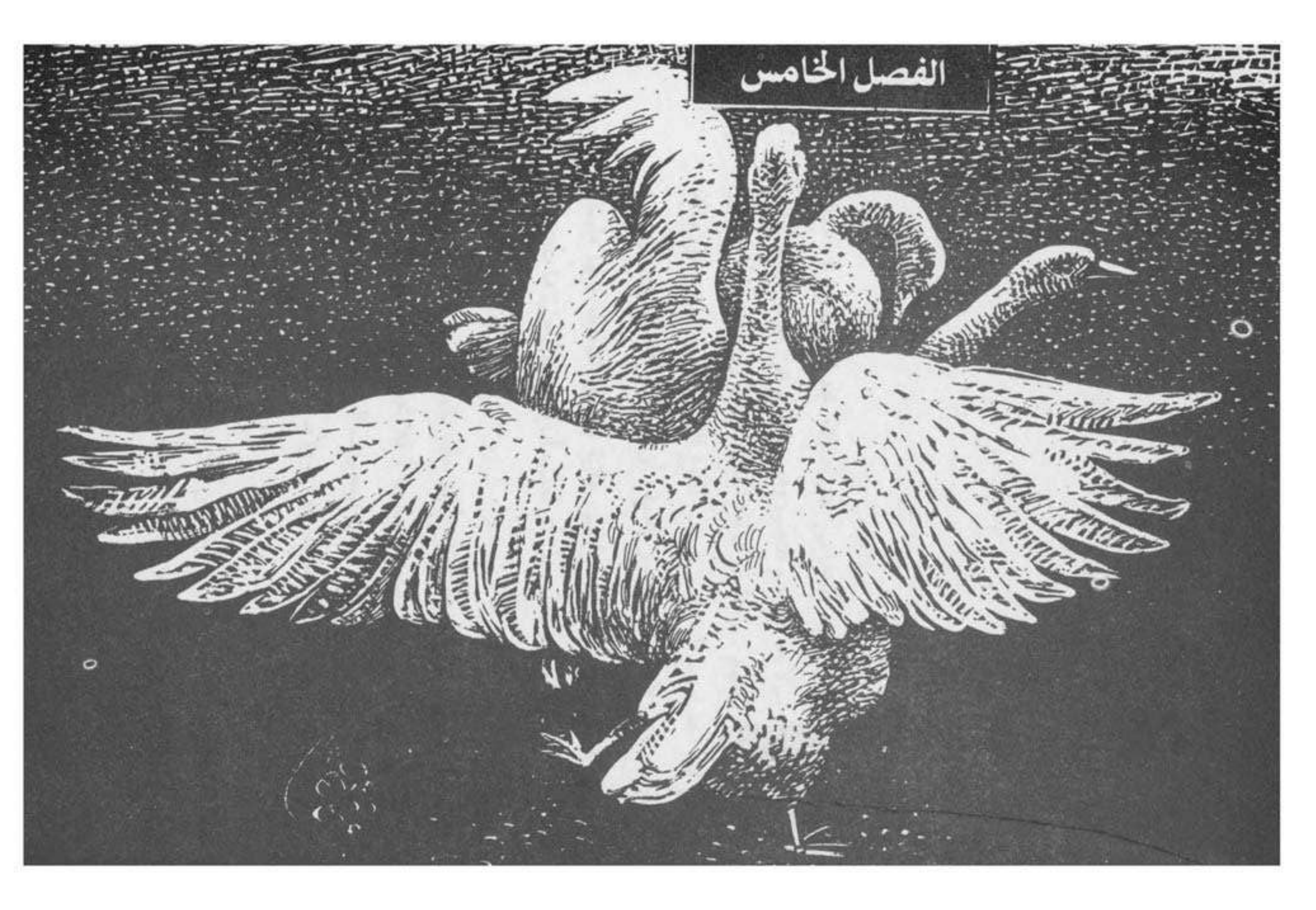
نسى الصبى كل شىء حين وقع بصره عليهما . اختفت من ذاكرته الغربان ، والكوخ المشتعل بالنار ، والثعلب . وتذكر حين كان يرعى قطيعًا من الإوز، وسار بجانبه فى الحقل هذان الطفلان يرعيان إوزهما . .

لكن الطفلين حين رأيا هذا الكائن الصغير الضئيل قادمًا نحوهما ، وقد بسط ذراعيه ليحتضنهما ، تراجعا إلى الوراء ، وأمسك كلٌّ منهما بيد الآخر من شدة الخوف .

لحظ الصبى فزعهما ، فثاب إلى رشده ، وتذكر أن ليس هناك ماهو أسوأ من أن يراه هذان الصبيان ، ويعرفان أنه مسحور . أحس بالخجل والحزن ، لأنه لم يرجع إلى طبيعته بشرًا سويًا ، واستدار ليهرب بعيدًا إلاّ أنه لايدرى إلى أين؟ . ولكن كانت هناك مفاجأة سارة تنتظر الصبى ، إذ لمحت عيناه جسمًا أبيض يقبل عليه . . ويالها من مفاجأة ! . . إنه ذكر الإوز الأبيض ، الذى ما إن رأى الصبى يعدو حتى ظن أن أعداءً أشرارًا يطاردونه ؛ فأسرع ذكر الإوز نحوه وحمله بسرعة فوق ظهره ، وطار بعيدًا فى الهواء .

* * *


مكتبة
تليجرام
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب


الفصل الخامس


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

5

سافر ثلاثة أشخاص عبر منطقة مجدبة مهجورة فى شمال سمالاند أنهكهم التعب وهم يبحثون عن مأوى يقضون فيه ليلتهم . والحقيقة أن نوع الذى يأملون فى الحصول عليه لكى يريحوا فيه أجسامهم المرهقة ، هو من النوع الذى يمكن العثور على مثله بسهولة ، لأنهم لايطمعون فى سررٍ ناعمة، أو حجراتٍ ذات فرش وثيرة .

قال أحدهم : « لو أن قمة الجبل عالية والطرق الموصلة إليها ملساء شديدة الانحدار بحيث يتعذر على أى ثعلب أن يتسلقها لاخترناها مأوى لنا لننام فيه » .

قال الثانى : « آه لو ذاب ثلج أحد هذه المستنقعات ، وأصبح الماء والوحل حائلاً يحول دون وصول الثعالب ، فلا تجرؤ على الوصول إليه » . وقال الثالث : «لو ذاب ثلج إحدى البحيرات الواسعة التى عبرنا فوقها ، فإن الثعلب لن يجرؤ على الاقتراب منها ، ولأصبحت بذلك أفضل مكان نلتمس فيه النوم والراحة » .

زاد الأمر سوءًا بعد أن غربت الشمس وغالب النعاس اثنين ، بحيث كاد كل منهما يسقط على الأرض من شدة التعب ، وفرط الحاجة إلى النوم . أمّا

الثالث ، فقد استطاع أن يظل يقظًا ، ويطرد النوم من عينيه ولكنه كان يزداد قلقا كلما اقترب الليل . وقال فى نفسه :

« ياله من حظ عاثر . لقد أتينا إلى أرض لاتزال بحيراتها ومستنقعاتها متجمدة ، مما يسهل للثعلب أن يلهو ويمرح حيث يشاء لقد ذاب الثلج فى أماكن أخرى كثيرة ، ولكن يبدو أننا هنا فى أكثر مناطق سمالاند برودة ، والتى لم يبلغها الربيع بعد . لست أدرى كيف أدبر مكانا ملائماً لنا للنوم؟ إننا مالم نجد مأوى آمنًا سنجد الثعلب سمر فوق رؤوسنا قبل الصباح » .

جال ببصره فى كل النواحى ، ولكن لم ير مكانًا يصلح مأوى لهم . كانت ليلة شديدة الظلمة ، قارصة البرد ، والسماء ملبدة ، والرذاذ يتساقط . . وازداد المكان حولهم وحشة .

قد يبدو غريبًا حقًا عزوف المسافرين حتى عن السؤال عن مأوى يأوون إليه فى وقت الحاجة الماسة لذلك ! لقد مروا فى طريقهم بعديد من الكنائس ولم يطرقوا باب إحداها ورأوا عديدًا من الأكواخ متناثرة فى أنحاء الغابة ، والتى يهرع إليها كل الفقراء ممن يطوفون بهذه الأماكن ولكنهم لم يعبأوا بأى مكان منها . ويكاد المرء يقول إنهم يستحقون كل مايقاسونه من متاعب وآلام طالما إنهم لم يلتمسوا المساعدة من أماكن كثيرة كان يمكن أن يلجأوا إليها .

لكن بعد أن اشتدت عتمة الليل ، وخبا كل ضوء فى السماء ، وكاد النوم ينتصر على الاثنين اللذين يصارعانه فى يأس ، فأصبحا يسيران نصف نائمين . . هنا وقعت عيونهم على بيت فى مزرعة ، يفصل بينهم وبينه طريق طويل . . يبدو البيت مهجورًا لايسكنه أحد ، إذ لايتصاعد دخان

من المدخنة ، ولايلمح ضوء من النافذة ، ولاترى ظلاً لإنسان يتحرك هنا أو هناك ، عندما أبصر ثالثهم اليقظ البيت ، قال فى نفسه : « ليكن مايكون . . فلابد أن نذهب إلى هذا المكان ، ونبيت فيه ، ولن نجد ماهو أفضل منه » .

بعد فترة قصيرة ، كان الثلاثة داخل فناء البيت ، استغرق اثنان منهم فى النوم فور دخولهما ، بينما تلفت الثالث حوله فى شغف ، يبحث عن مكان مسقوف . لم تكن مزرعة صغيرة بل واسعة فضلا عن البيت والحظيرة وعددٍ من المبانى الملحق بها حظائر ومخازن . . بدت المزرعة - على ضخامتها - بائسة موحشة مهدمة . . أسوار البيوت كالحة اللون ، تعلوها الطحالب ، وتوشك أن تنهار . والسقوف مليئة بالجحور التى تراها فاغرة أفواهها . . والأبواب مخلوعة ، أو معلقة ، وتوشك أن تنفصل عن مكانها . . بدا واضحًا أن أحدًا لم يكلف نفسه مشقة دق مسمار ، أو إصلاح جدار منذ زمن طويل .

خلال هذه الفترة استطاع الثالث اليقظ أن يعرف مكان حظيرة البقر . . أيقظ رفيقيه النائمين ، وقادهما إلى باب الحظيرة . ولحسن حظهم ، كان الباب مشبوكًا بسقاطة يسهل رفعها إذا جذب حبلا مدلى إلى الأرض . صدرت عن الثالث تنهيدة عميقة ، كمن تخفف من عبء ثقيل ،ولاذ بمكان آمن بعد طول عذاب . . ولكنه حين فتح الباب الثقيل أصدر صريرًا حادًا سمعته بقرة بالداخل ؛ فصدر عنها خوار شديد قالت فيه :

- « آه . . أخيرًا أتيت ياسيدتى . . ظننت أنك لن تحضرى الليلة لتقدمى لى طعام العشاء» .

توقف الصديق الثالث اليقظ عند الباب ، وقد استبد به الفزع حين أدرك أن الحظيرة ليست خاوية ، ولكنه لحظ لاتوجد إلاّ بقرة واحدة وثلاث دجاجات ؛ فاسترد شجاعته وقال :

« نحن ثلاثة مسافرين بؤساء ، نبحث عن مأوى لايهاجمنا فيه ثعلب ، ولا يصطادنا إنسان . . ترى هل يصلح هذا المكان كما ترين ؟ » . قالت البقرة : « لا أظنه يصلح لشيء . فالجدران ضعيفة ، وإن لم يخترقها ثعلب حتى الآن ، ولا يعيش أحد هنا سوى فلاحة عجوز ، لاتقوى على صيد أى شيء . ولكن قل لى : من أنتم ؟» ولَوَتْ مربطها لتنظر إلى الوافدين الجدد .

- « أنا نلز الذى سحرته الجنية قزمًا صغيرًا ومعى ذكر إوز أبيض مستأنس هو ركوبتى التى أركبها ، وإوزة برية رمادية » .

قالت البقرة : « لم يدخل هذا المكان من قبل ضيوف مثلكم ، لهم هذه الصفات النادرة . إننى أرحب بكم ، وإن كان هذا من حق سيدتى التى ستأتى الآن لتقدم لى عشائى » .

قاد الصبى الإوزتين إلى داخل الحظيرة الواسعة وأجلسهما واستسلما للنوم ، أمّا البقرة التى لم تأكل عشاءها فلم تقف ساكنة ، بل كانت دائبة الحركة ، تهز جبينها ، وتدق بأ قدامها الأرض تشكو من الجوع .

لم يغمض للصبى جفن . وظل راقدًا فى مكانه ، كل أحداث الأيام الأخيرة تدور فى رأسه ، كأنها شريط سينمائى حى . تذكر صديقيه اللذين تشاجر معهما وأحرق كوخهما ، وكيف التقى بهما مصادفة . وقال فى نفسه : «لابد أن هذا الكوخ بيتهما القديم ، لأنه سمع وصفه منهما ذات يوم ، عندما عادا إليه ليجدا النار مشتعلة فيه . وأحس بأسف شديد لما حدث ،

وما سببه لهما . وعاهد نفسه على أن يعوضهما عن خسارتهما ، إذا عاد سيرته الأولى بشرًا سويًا .

انتقلت أفكاره إلى الغربان ، وتذكر الغراب الجبان (الربكة) وكيف أنقذ حياته ، ثم لقى مصرعه بعد انتخابه رئيسًا للغربان . . وحزن الصبى ، وفاضت عيناه بالدمع .

يالها من أيام صعبة قاسية عاشها الصبى ، صادف فيها أهوالاً عظيمة كادت تزهق روحه ، ولكن على أية حال . . فقد حالفه الحظ السعيد حين عثر عليه ذكر الإوز الأبيض .

وحكى له ذكر الإوز الأبيض أنه بعد أن اكتشف الإوز البرى اختفاءه توميتوت أخذ يسأل كل حيوانات الغابة عنه وعرف أن سربًا من الغربان اختطفه ، ولكنه عرف ذلك بعد أن غابت الغربان عن الأنظار ولم يعرف أحد اتجاهها . وأصدرت آكا زعيمة الإوز أمرها بالبحث عن الصبى بأسرع مايمكن ، حيث انطلق الإوز مثنى مثنى فى اتجاهات مختلفة للبحث عنه ، وحددت لهم مكانًا للقاء يلتقون فيه بعد يومين سواء عثروا عليه أم لا . . وأعطت الإوز تعليماتها ونصائحها ووصفت لهم الطرق وكيف يعودون إلى مكانٍ محدد وذكرت لهم اسم هذا المكان وهو (تابرج) . .

وانطلق ذكر الإوز الأبيض مع إوزة برية للبحث عن تومى توت حسب تعليمات آكا . كان ذكر الإوز الأبيض شديد القلق حزينًا وسمع أثناء طيرانه طائر السمنة الذى اعتلى شجرة يبكى ويولول ، لأن شخصًا من جماعة الغربان قد سخر منه . تحدث ذكر الإوز معه ، وسأله عن الاتجاه الذى سارت فيه الغربان بأسيرهم ، ثم قابل بعد ذلك الحمامة المطوقة ، والزرزور،

وذكر البط ، وكانوا جميعًا ينوحون ويشكون من أن مجرمًا أثيمًا أفسد عليهم غناءهم وأن اسمه (أسير الغربان) ، أو (رهينة الغربان) وهكذا استطاع ذكر الإوز الأبيض أن يقتفى أثرك توميتوت .

بعد أن نجح ذكر الإوز الأبيض ، والإوزة البرية فى العثور على توميتوت ، اتجهوا جميعًا إلى مكان اللقاء المحدد ، ولكن الطريق طويل ، والظلمة شديدة ، مما يصعب معه رؤية المكان .

دس الصبى جسمه فى القش ليستدفىء وقال فى نفسه : « لو وصلنا إلى هناك غداً ، فسوف تنتهى يقينًا كل متاعبنا . ظلت البقرة طوال الوقت ترفس وتثور ، توقفت فجأة ، وتحدثت إلى الصبى قائلة : « شىء سيىء بالنسبة لى . لا أحد يرعانى جيدًا ، ويسهر على راحتى . لم يقدم لى عشائى، ولا أجد سريرًا أنام عليه جاءت سيدتى قبل الغروب لتنظف المكان ، ولكنها أحست بوطأة المرض ، فعادت إلى بيتها فورًا وتركتنى ولم ترجع بعد» . .

قال الصبى : « يؤسفنى أننى صغير ، ضئيل ، فاقد الحيلة ، ولاأظن أننى أقدر على مساعدتك » .

قالت البقرة : « لاتظن أننى سأصدق أنك ضعيف عاجز لأنك صغير، فكل الأقزام المسحورين الذين سمعت عنهم كانوا أقوياء أشداء حتى إنهم يستطيعون جر عربة تبن ، أو قتل بقرة بلكمة واحدة » .

لم يتمالك الصبى نفسه من الاستغراق فى الضحك لكلام البقرة ، وقال لها : « لعلهم أقزام مسحورة من نوع آخر غيرى ولكننى سأفك رباطك وأفتح لك الباب حتى تخرجى وتشربى من إحدى البرك فى الخارج ، وسأحاول التسلق لألقى لك ببعض التبن » .

قالت البقرة : « هذه مساعدة لابأس بها » . . نفذ الصبى كل ماوعد به . . ثم قال فى نفسه : « الآن أستطيع أن أنام » . ولكنه لم يكد يدس نفسه فى سريره حتى عادت تتحدث إليه من جديد .

قالت له : « هل لى أن أطلب منك خدمة أخرى » .

قال الصبى : « أنا على استعداد ، إذا كنت أستطيع أن أقدمها لك » .

قالت : « أرجو أن تذهب إلى الكوخ المقابل لنا تمامًا ، وتسأل عن سيدتى ، لكى أطمئن عليها . أخشى أن يكون قد أصابها مكروه » .

قال الصبى : « لا ، لاأستطيع ذلك . لا أجرؤ على الظهور أمام بشر » .

قالت البقرة : « لاتخش امرأة عجوز مريضة . على أية حال ، لن تدخل الكوخ ، وإنما اسأل عنها وأنت واقف بالباب ، أو انظر من بين شق الباب». قال الصبى : « إذا كان كل ماتطلبينه هو أن أنظر فقط من بين شق الباب ، فلامانع » .

فتح الصبى باب الحظيرة وخرج . . وكان الليل مظلمًا موحشًا يثير الخوف . . توارى القمر ، والنجوم خلف السحاب . واشتدت الريح ، وتساقط المطر كأنه سيل منهمر وزاد الأمر سوءًا حين رأى سبع بومات جالسات صفًا واحدًا بجوار جدار الكوخ بحيث كان سماع نعيقها يملأ القلب رعبًا ، ولكن ماضاعف من خوفه ، احتمال أن تراه واحدة منهن ، فسوف تكون فى ذلك نهايته .

قال الصبى لنفسه وهو فى الطريق : «واحسرتاه على من يكون صغيرًا ضئيلا » . إنه لأمر يدعو للرثاء وكان على حق فيما قال لأن الريح طوحت به

مرتين أمامها ، فألقت به مرة فى مُستنقع عميق ، وكاد يغرق!

تسلق درجتين من درجات السلم ، ثم زحف بسرعة فوق العتبة ووصل إلى المدخل . كان الباب مغلقًا ، ولكنه وجد فرجة يمكن أن يدخل منها ويخرج .

لم يكد يلقى نظرة بالداخل حتى ترنح فى مكانه وارتد إلى الوراء وأشاح بوجهه بعيدًا . . امرأة عجوز ذات شعر كستنائى ممددة على الأرض . إنها لاتتحرك ولا تتأوه، ووجهها أبيض فى لون الشمع . تبدو وكأن قمرًا خفيًا باهت الضوء يلقى بضوئه على وجهها . تذكر الصبى وجه جده حين مات ، وكيف كان له هذا اللون الأبيض الغريب ، وأدرك أن المرأة العجوز الممددة على الأرض لابد ميتة . لعل الموت دهمها فجأة ، فلم تستطع حتى أن تلقى بنفسها على السرير.

حين أحس أنه يقف وحده مع جثة ميت وسط عتمة الليل ، انتابه خوف شديد ؛ فقفز فوق درج السلم ، واندفع عائدًا إلى حظيرة البقرة .

حكى للبقرة كل مارأى . وأصاب البقرةَ هم وغم ، وتوقفت عن الأكل، وقالت : « وهكذا ماتت سيدتى . . . إذن سينتهى كل شىء بالنسبة لى أيضًا قريبًا جدًا » .

قال الصبى يواسيها :

« لاتحزنى . . ستجدين دائمًا من يرعاك » .

قالت البقرة :

« أنت لاتعرف أننى بقرة عجوز . . بلغت من العمر ضعف عمر البقرة

العادية التى يذبحونها . . إننى لا أعبأ بالحياة الآن بعد أن ماتت سيدتى وراعيتى».

صمتت البقرة فترة ، ولحظ الصبى أنها لم تنم ، ولم تأكل . . ومضى بعض الوقت ، ثم عاودت الحديث ، وسألته :

-« هل كانت ممددة على الأرض بدون فراش ؟ ».

قال الصبى : « نعم كانت كذلك » .

واصلت البقرة حديثها قائلة : « كانت عادتها أن تخرج وتأتى إلى الحظيرة، وتتحدث إلىَّ عن كل مشكلاتها . . حدثتنى فى الأيام الأخيرة عن مخاوفها ، وكانت تخشى الموت وحيدة ، دون أن يكون معها أحد يضم ذراعيها إلى صدرها بعدالموت .

تذكر الصبى جده حين مات ، وكيف كانت أمه حريصة جدًا على وضع كل شىء حسب القواعد والنظام ، وأدرك أن هذه أمور لابد من اتباعها وتنفيذها ، ولكنه من ناحية أخرى . . . أحس أنه لا يجرؤ على الذهاب إلى بيت فى ليلة حالكة السواد كهذه ، تذكره بالأشباح . لم يقل الصبى لا ، ولكنه أيضا لم يخْطُ خطوة واحدة نحو الباب وظلت البقرة العجوز صامتة لحظة ، وكأنها تنتظر منه إجابة ، ولكن حينما وجدت الصبى صامتًا لم يرد ، لم تكرر هى الأخرى طلبها ، بل شرعت تحدثه عن سيدتها .

كانت لديها حكايات كثيرة لتقصها عليه ، ولكنها بدأت تحدثه أولاً عن أطفالها الذين ربتهم ، ونشأوا وترعرعوا فى ظل رعايتها . . قالت البقرة : «كان أطفالها يأتون إلى الحظيرة كل يوم ، وفى الصيف يسوقون الماشية إلى

المرعى . . كانوا جميعًا ممتازين ، مجدين ، مرحين ، سعداء . وكنت أعرف كل محاسنهم . .

أمّا عن المزرعة فلم تكن قاحلة مثلما هى الآن ، بل كانت شاسعة . . فضلاً عن أن المزرعة كانت تشيع فيها الفرحة والبهجة ، سواءٌ فى كوخ سيدتى ، أم فى حظائر الماشية . واعتادت السيدة أن تدخل باب الحظيرة وهى تترنم وتغنى ، فتحنى الماشية رؤوسها فرحًا وسعادةً بسماع صوتها .

لكن عندما مات سيدى ، كان الأطفال صغارًا عاجزين عن المساعدة ، واضطرت سيدتى أن تتولى هى مسئولية المزرعة . وإذا حل المساء ، جاءت إلى الحظيرة لتحلب اللبن . ولكن كنت أراها أحيانًا كسيفة البال منهكة القوى ، وتنخرط فى البكاء ، ولا تلبث أن تجفف دموعها وتستعيد بهجتها وتقول لنفسها :

(لايهم ، فالأيام الطيبة الجميلة ستعود ثانية حين يكبر أبنائى) .

بعد أن كبر الأبناء ، استبد بهم سلوك غريب ، فقد عزفوا عن البيت ورحلوا إلى بلد غريب . وهكذا لم تتلق الأم أى مساعدة منهم . تزوج اثنان من أبنائها قبل الرحيل ، وخلفوا أطفالهم وراءهم فى البيت القديم . ويلاحق الأطفال جدتهم السيدة العجوز فى الحظيرة مثلما فعل أبواهم . . ويرعون البقر ، وهم على خلق حميد . .

فى المساء إذا اشتد التعب بسيدتى ، فقد يغلبها النوم وهى تحلب اللبن ، وتستيقظ بعد فترة ، وتستعيد شجاعتها بالتفكير فيهم . .

تنفض عنها النوم ، وتقول : (سأنعم بأيام طيبة جميلة عندما يكبرون) . ولكن عندما كبر الأطفال رحلوا بعيدًا ، ولحقوا بأبويهم ، ولم يعد أحد ،

وكذلك لم يبق منهم هنا أجد ، حيث تركوا السيدة العجوز وحيدة فى المزرعة . ولعلها لم تسألهم يومًا أن يبقوا بجوارها .

كانت سيدتى العجوز تقف أحيانًا بجانب مربط البقرة (أى بجانبى) ، وتتحدث إليها ، وكأن معها من تشكو إليه : (هل تظنين يا رودلينا أن من حقى أن أطلب منهم البقاء معى ، فى حين أن الظروف مواتية لهم للخروج إلى العالم والاستمتاع بمباهج الحياة ؟ . . إنهم لن يجدوا هنا فى سمالاند غير الفقر) . .

لكن حين رحل عنها آخر أحفادها ، أحست وكأن كل شىء بالنسبة لها قد انتهى ، وأن العالم بات فراغًا وخواءً من حولها .

فجأة انحنى ظهرها ، وابيض شعرها . . وتعثرت مشيتها وبدت وكأنها غير قادرة على الحركة . توقفت عن العمل ، ولم تعبأ برعاية المزرعة ، بل تركت كل شىء للدمار والخراب . عزفت عن إصلاح بيتها ، وباعت البقر والثيران ، وتخلت عن كل شىء ، ولم تبق إلاّ على البقرة العجوز التى تتحدث الآن إليك يا توميتوت . أبقت عليها لتعيش معها ، لأنها حظيت برعاية كل الأبناء والأحفاد

كان بوسعها أن تتخذ لنفسها خادمات وفلاحات ليعملن فى خدمتها ، ويساعدنها فى عملها ، إلاّ أنها لم تكن تتحمل رؤية غرباء حولها ، بعد أن رحل عنها أبناؤها وأحفادها . لعلها رأت أن من الأفضل لها أن تسلم مزرعتها للخراب ، طالما أن أبناءها لن يعودوا إليها بعد أن ترحل عن الدنيا .

لم تعبأ بما آل إليه حالها من الفقر ، فقد زهدت فى كل شىء ولم تعد ترى قيمة لكل ماكانت تملكه بين يديها ، بيد أنها كانت تخشى أن يعرف أبناءها عن شظف حياتها وقسوتها .

كانت تتنهد حين تتعثر داخل الحظيرة ، وتقول :

(ليتهم لايعرفون شيئًا عن حالى هذا . . ليتهم لايعرفون شيئا) .

وكان الأبناء يكتبون إليها ويلحون عليها فى أن تلحق بهم ، ولكنها كانت غاضبة منها .

قالت ذات مرة : « قد يبدو سخيفًا أننى أمقت تلك الأرض التى جادت عليهم بخيراتها وكانت طيبة معهم بيد أننى لاأريد أن أراها » .

لم تكن تفكر فى شىء غير أبنائها ، وهذه البقرة (التى هى أنا) ، وإذا حل الصيف ساقتنى سيدتى إلى المرعى لاقتات على أعشاب المستنقع وتجلس النهار على حافة المستنقع ، ويداها فى حجرها ، وتقول أحيانًا وهى فى طريق عودتها إلى البيت :

(هاأنت ترين يارود لينا لو كانت الحقول هنا واسعة خصبة غنية ، بدلاً من تلك المستنقعات ، لما كان أبنائى بحاجة إلى أن يرحلوا عن هنا) .

كانت تنظر فى غضب شديد إلى تلك المستنقعات الشاسعة ، واعتادت أن تجلس أحيانًا تندب حظها على هذه المستنقعات ، وتلقى عليها باللوم ، لأنها هى السبب فى أن تركها أبناؤها .

رأيتها بالأمس - وهى ليلتها الأخيرة - ترتجف ، خائرة القوى أكثر من أى يوم مضى . إنها لم تقو حتى على حلب اللبن . مالت برأسها ، واتكأت على المزود ، ثم شرعت تتحدث عن غريبين جاءا ليزورانها ، وسألاها إن كان بالإمكان أن يشتريا الأرض . قالا : إنهما يعتزمان نزح المياه من المستنقع ، وسيبذران الحبّ لاستنباته . ولكن كلامهما جعلها تشعر بضيق وسعادة فى آنٍ واحد .

قالت ذات مرة وهى تتحدث إلىّ : (هل تسمعيننى يارودلينا ؟ . هل تسمعيننى ؟... قالوا يمكن استنبات الحبوب فى المستنقع . لهذا . . سأكتب الآن رسالة إلى أبنائى ليعودوا . لم يعد هناك داعٍ لهجرة البيت إذ أصبح بإمكانهم الحصول على خبزهم هنا معى فى البيت).

هذا هو ما ذهبت لتفعله فى كوخها » . . .

لم يسمع الصبى من كلام البقرة العجوز أكثر من ذلك . . فقد نهض من مكانه، وفتح باب الحظيرة ، وعبر الفناء ، وذهب إلى الجسد المسجى للفلاحة العجوز ، الذى كان يخشاه منذ قليل .

لم يكن الكوخ فقيرًا فى أثاثه كما كان يتوقع ، بل رآه يحتوى على أثاث من النوع الذى نراه عادة عند من لهم أقارب فى الولايات المتحدة الأمريكية . . فى ركن من الحجرة كرسى هزاز ، وعلى المنضدة مفرش من المخمل المطرز .

على السرير ملاءة جميلة ، وفوق الجدران لوحات وصور للأبناء والأحفاد الذين رحلوا ، وعلى المكتب زهرية وشمعدان .

بحث الصبى عن كبريت ، وأضاء الشمع ، لا لأنه يريد مزيدًا من الضوء بل لأنه اعتقد أن ما يفعله تكريم للميت . وتقدم نحوها ، وأسبل جفنيها ، وضم ذراعيها إلى صدرها ، ورفع بضع شعرات بيضاء كانت تدلت فوق وجهها .

لم يعد يشعر بالخوف ، بل انتابه حزن عميق للظروف التى أرغمتها على أن تعيش وحدها فى مثل هذه السن ، وهى عجوز ضعيفة ، وعانت من آلام الوحدة والحنين . . فليكن هو رفيقها على الأقل هذه الليلة . . يقف إلى جانبها ، ويسهر على جسدها المسجى .

التقط الكتاب المقدس ، وجلس قبالتها ليقرأ بعض آياته فى ترنيمة خافتة ، ولكنه توقف لحظة فى أثناء القراءة ، لأنه بدأ يفكر فى أبيه وأمه . تصور . . . . ! ! . . . إلى هذا القدر يشتد حنين الأبوين إلى أبنائهم ؟ . . هذا مالم يكن يعرفه ، ولا يتخيله . هل تبدو الحياة بالنسبة لهما متهية وخاوية إذا رحل عنهما أبناؤهما ؟ ترى هل استبد الشوق والحنين بأبيه وأمه مثلما حدث مع هذه المرأة العجوز .

ابتهج لهذا الخاطر ، وإن لم يصدقه . إنه لم يكن أبدًا من النوع الذى يشتاق إليه الآخرون .

لكن ربما يصلح حاله ، ويكون أفضل مما كان .

جال ببصره ، يتطلع إلى صور الأبناء الذين رحلوا . إنهم رجال ونساء كبار ، أقوياء ، أشداء ، تبدو عليهم أمارات الجد . . هذه صورة عرائس فى ثياب عرس شفافة طويلة ، وهذه صور بعض السادة فى ملابس أنيقة ، وتلك صور لأطفال لهم شعر مموج ، وقد ارتدوا ملابس بيضاء جميلة . . وخيل إليه وكأن عيونهم جميعًا تحدق فى الفراغ ، ولا يريدون أن يروا شيئًا .

نظر الصبى إلى الصور المعلقة على الجدران ، وقال : « ما أبأسكم . . . لقد ماتت أمكم . . . لقد ماتت أمكم . . . لن تعوضوها ، لأنكم تركتموها ورحلتم بعيدًا عنها ولكن أمى على قيد الحياة » .

صمت لحظة ، وأطرق برأسه ، وابتسم وقال : « أمى حية . . إنها على قيد الحياة . . أبى وأمى كلاهما على قيد الحياة » .

ظل نلز يقظًا طوال الليل تقريبًا . وقبل الصباح بقليل استغرق فى نوم عميق وحلم بأبيه وأمه . . لم يتعرف عليهما بسهولة . . ابيض شعرهما ،

وتغضن الوجهان ، وبدت عليهما الشيخوخة . سألهما فى دهشة : « كيف حدث هذا ؟» قالا له : شاب الشعر ، وغلبتنا الشيخوخة ، بسبب الشوق والحنين إليك ». تأثر نلز لكلامهما وتعجب فقد كان يظن دائمًا أنهما سيفرحان لو تخلصا منه .

استيقظ الصبى عندما أقبل الصبح بطقس جميل ، وجو صاف رقيق . أكل كسرة خبز ، كان قد وجدها فى الحجرة ، ثم قدم الإفطار للإوزتين والبقرة ، وفتح باب الحظيرة ، حتى ترعى البقرة فى أقرب مزرعة ، وقال فى نفسه : «حين تخرج البقرة لترعى وحدها ، سيفهم الجيران دون شك أن مكروهًا أصاب سيدتها . وتوقع أن يهرع الجيران عندئذٍ إلى المزرعة المهجورة ، ويعرفوا نهاية السيدة العجوز .. ويرون جسدها المسجى ، ويقومون بدفنها» .

حلقت الإوزتان فى الفضاء ، ومعهما الصبى ، وارتفعا فى عنان السماء . ولمحت عيونهم على البعد جبلاً عاليًا شديد الانحدار ، وأدركوا أن قمة هذا الجبل هى المكان الذى تواعدوا على اللقاء عنده . كانت الزعيمة آكا تعتلى قمة الجبل ، ومعها رفيقاتها فى انتظارهم . . وعندما رأى الإوز رفيقتيه قد عادتا بعد أن نجحتا فى إنقاذ توميتوت ، انطلقت قأقآت الفرح عالية ، وارتفعت صيحات البهجة ، ورفت الأجنحة فى الهواء كأنها رقصة جماعية .

غطت الغابات سطح الجبل ، وإن كانت قمته جرداء ، ويستطيع من يعتلى قمة الجبل أن يجول ببصره فى كل الاتجاهات . . وإذا تطلع المرء على امتداد البصر شرقًا أو غربًا أو جنوبًا فلن يرى غير أراضٍ شاسعة ، تغطيها أشجار الصنوبر ، أو مستنقعات معشوشبة ، أو بحيراتٌ متجمدة . . ترى

هنا جبالاً رائعة الحسن والبهاء ، ووديانًا خضراء كالسندس الناعم ، وأنهارًا جارية ، كأنها تسرع فى لهفة للوصول إلى البحيرة الكبيرة التى تمتد هناك رائقة صافية ، تتألق ساطعة ، كأن مابها ليس ماءً ، بل نورًا فيه زرقة وضاءة .

أسبغت هذه البحيرة جمالها على كل المنطقة ، إذ تخالها تشع نورًا أزرق يفترش الأرض كلها واكتست الجبال والتلال والأسطح بلون سماوى خفيف صافٍ ، كأنه يهدهد العين ، ويريح النظر . وقال الصبى : « لوكانت فى السماء بلاد ، فلن تكون إلاّ بهذا اللون !» ، وطاف بخاطره أنه الآن فى الجنة .

انطلق الإوز ليواصل رحلته ، وطار فى اتجاه الوادى الأزرق ، أحس كأنه فى يوم عطلة يقتضى الفرح والمرح . صاح ، وقأقأ ، وأثار صخبًا وجلبةً تصم الآذان .

تصادف أن كان هذا هو أول أيام الربيع الجميلة ، فقد كان الربيع حتى الآن أمطارًا وعواصف وبرق ، ولكن اليوم ـ وعلى حين فجأة ـ اعتدل الطقس، واشتد حنين الناس إلى دفء الصيف ، وخضرة الأشجار ، وإنجاز ما عليهم من مهام . وعندما حلق الإوز عاليًا فوق الأرض ذات الطبيعة الساحرة التى تبتسم فى تلقائية وبهجة ، ترك كل الناس ما فى أيديهم ليمتعوا عيونهم بالنظر إلى الإوز .

كان أول من رأى الإوز البرى فى هذا اليوم هم عمال المناجم الذين يستخرجون الخام . عندما سمعوا قأقأة الإوز تركوا عملهم لحظة ، وتطلعوا إلى السماء ، وصاح أحدهم بالطير : « إلى أين أنتم ذاهبون ؟ » .

لم يفهم الإوز حديث الرجل ، ولكن الصبى مال على ظهر الإوزة ، وأجاب قائلاً : « إلى بلدٍ ليس فيه طرق ولا مطرقة !» .

وعندما سمع عمال المنجم هذه الكلمات ، خيل إليهم أن أمنيتهم التى يحنون إليها هي التى جعلتهم يسمعون قأقأة الإوز ، كأنها كلام بشر . . وصاحوا جميعًا .

« خذونا معكم !! . خذونا معكم !!» .

صاح الصبى : « ليس هذا العام . . . ليس هذا العام ! » .

تتبع الإوز مجرى النهر ، وكلما مروا بمكان أحدثوا نفس الضجيج والصخب . رأى الإوز تحته مصانع الورق . . كان الوقت وقت الغذاء ، وسار العمال فى طابور طويل ، كأنه نهر من البشر يتدفق نحو البوابة . وعندما سمع العمال صوت الإوز، توقفوا لحظة لينصتوا إليه . وصاح العمال: « إلى أين أنتم ذاهبون ؟ إلى أين أنتم ذاهبون ؟ » . لم يفهم الإوز شيئًا من حديث العمال ، وتولى الصبى عنهم الإجابة :

« إلى هناك ، حيث لا توجد آلات أو مكنات » . عندما سمع العمال الرد، ظنوا أن أمنيتهم هم التى اشتاقوا إليها هى التى جعلت قأقأة الإوزتين تبدو لهم وكأنها صوت بشر ، وقالوا : « خذونا معكم . . خذونا معكم!».

أجاب الصبى : « لا . . ليس فى هذه السنة . . ليس فى هذه السنة !» .

طار الإوز بعد ذلك فوق مصنع للكبريت . . ضخم مثل : القلعة ، وترتفع مداخنه عالية فى السماء ، والفناء خالٍ لا أحد فيه ، ولكن النساء العاملات جلسن داخل قاعة كبيرة يملأن العلب بالكبريت . فتحت العاملات النافذة ليتمتعن بالطقس الجميل ، ووصل إليهن نداء عبر النافذة . . انحنت أقربهن على النافذة ، وفى يدها علبة كبريت ، وصاحت بالإوز:

« إلى أين أنتم ذاهبون ؟ . . إلى أين أنتم ذاهبون ؟ » .

قال الصبى : « إلى بلدٍ لاتحتاج إلى النور أو الكبريت! » . ظنت الفتاة أن ماسمعته قأقأة إوز . . ولكن تبين لها أنها ميزت بعض الكلمات ، وفهمتها ، ولهذاصاحت ردًا على ماسمعته :

-« خذونى معكم ! » .

أجاب الصبى : « ليس فى هذا العام . . ليس فى هذا العام !» .

واصل الإوز البرى طيرانه فوق المدينة التى تشبه الشريط الطويل الضيق . . وتصرف بنفس الطريقة مثلما فعل فى المناطق الأخرى ، ولكن المدينة كانت خاوية ليس فيها أحد يجيب على الإوز ، وقال الصبى فى نفسه : «ليس من المتوقع أن يخرج أهل المدينة إلى الطرقات ينادون الإوز » .

امتدت الرحلة ، وعبر الإوز فوق شاطىء طويل ، ورأى مصحة للعلاج. خرج بعض المرضى إلى الشرفات ليستنشقوا هواء الربيع ، وبينما هم واقفون سمعوا نداء الإوز . سأل أحدهم بصوت واهن ضعيف يكاد لايسمع : « إلى أين أنتم ذاهبون ؟». أجاب الصبى : « إلى الأرض التى لاتعرف الأسى أو المرض ! » . . وصاح المريض فى لهفة :

- « خذونا معكم ! » .

رد الصبى : « ليس فى هذه السنة . . ليس فى هذه السنة ! » .

وصل الإوز البرى بعد ذلك إلى مدينة هوسك فارنا . إنها تقع وسط وادٍ تحيط به الجبال ذات الأسطح شديدة الانحدار ، ولكنها أيضًا رائعة الجمال. ورأى الإوز نهرًا يتدفق بقوة فوق المرتفعات فى صورة مساقط ضيقة. وامتدت على السفوح محال ومصانع كثيرة . وتناثرت فوق قاع الوادى بيوت العمال ،

تحف بها الحدائق . وكان فى وسط الوادى مدرسة ، ما إن حلق الإوز البرى فوقها ، حتى دق الجرس ، وانطلقت حشود التلاميذ فى صفوف متراصة وملأت الملعب . صاح الأطفال عندما سمعوا نداء الإوز :

- « إلى أين أنتم ذاهبون ؟ إلى أين أنتم ذاهبون ؟ » .

أجاب الصبى : « إلى بلدٍ ليس فيه كتب ولا دروس ! » .

صرخوا جميعًا : « خذونا معكم . . خذونا معكم » .

أجاب الصبى : « لا، ليس هذا العام . . . ليس هذا العام ، بل العام القادم ! » .

بحيرة طاقرن بحيرة واسعة جميلة ، تقع وسط سهل منبسط فسيح ، ولابد أنها كانت أوسع من ذلك فى الأزمنة القديمة ، ولكن الناس ظنوا أنها تعلو سهلاً خصبًا لذلك . . حاولوا نزح مياهها ليزرعوا قاعها . . ولكنهم فشلوا فى نزح كل البحيرة ، وبقى منها هذا الجزء ، وأدى هذا إلى أن أصبحت البحيرة ضحلة . . قليلة الماء ، فلا يزيد أعمق مكان فيها عن مترين . . وتغطى سواحلها الأعشاب والوحل ، كما تبرز وسط البحيرة جزر من الطين .

هناك مِنَ الكائنات مَنْ يحب الوقوف بقدميه فى الماء ، إذا ما استطاع أن يحتفظ بجسمه ورأسه فى الهواء . . ولا كما أن تجد عيدان البوص لا تجد مكانًا تنبت فيه أفضل من سواحل البحيرة الضحلة . . وحول جزرها الطينية تراه ينبت هنا قويًا طويل القامة ، حتى إنه يزيد فى ارتفاعه عن قامة الإنسان ، ويتكاثف ويتشابك ، حتى ليصعب أن تقود قاربًا فى الأماكن التى يكثر

فيها . ويمثل سياجًا يحيط بالبحيرة كلها ، بحيث يصعب الدخول إليها إلاّ من مواضع محددة ، استأصل الناس العيدان التى نبتت فيها .

إذا كانت عيدان البوص تسد الطريق على الناس ، إلاّ أنها فى مقابل ذلك . . تفيدهم كمأوى وحماية تقيهم من أشياء كثيرة . ويوجد وسط عيدان البوص الكثير من السدود الصغيرة والقنوات التى تحتوى على مياه خضراء آسنة تنبت فيها طحالب وأعشاب فيها بيض البعوض والسمك والديدان ، فتتكاثر بكميات هائلة . وتوجد كذلك على طول شواطىء تلك السدود والقنوات الصغيرة ، والكثير من الأماكن الخافية عن الأنظار ، وتلجأ إليها طيور البحر لتضع بيضها وتربى صغارها ، دون خوف عليها من جوع أو عدو يفترسها .

تسكن بين عيدان البوص أعداد لا حصر لها من الطيور ، وتلجأ إليها كل عام أضعاف هذه الأعداد ، وتتخذها ملاذًا آمنًا . وأول من سكنها البط البرى ، ولاتزال آلاف منه تعيش هناك ، ولكن لم تعد هى وحدها التى تختص بالبحيرة ، إذ يشاركها فيها طيور البجع ، والغواص ، والمغرة ، وآكل السمك ، وبط المستنقعات ، وطيور أخرى غيرها كثيرة .

بحيرة طاقرن أضخم وأفضل بحيرة للطيور فى طول البلاد وعرضها . وتعتبر الطيور نفسها محظوظة ، لأن لها مثل هذا الملتجأ . ولكن الطيور لاتعرف على وجه اليقين إلى متى ستظل تنعم بهذه البحيرة . . وبما فيها من عيدان البوص والوحل ، لأن البشر لاينسون أبدًا أن البحيرة ممتدة فوق مساحة واسعة من الأرض الخصبة الجيدة وتردد على ألسنتهم بين الحين والآخر اقتراح يدعو إلى نزح الماء ، أو تجفيفها . ولو نفذ البشر اقتراحهم ، لاضطرت آلاف الطيور المائية إلى هجرة هذا المكان .

وبينما كان نلز مسافرًا مع الإوز البرى ، كان يعيش على البحيرة ذكر بط اسمه جارو . كان لايزال صغيرًا لم يعش غير صيف واحد وخريف واحد وشتاء واحد ، وهذا هو أول ربيع له . . لقد عاد من جنوب إفريقيا ، ووصل إلى البحيرة فى وقت لايزال الثلج يغطيها ، وهو شىء مناسب له ومحبب إليه .

ذات مساء وبينما كان يلعب مع زملائه من شباب البط البرى لعبة السباق ، وهم يجرون إلى الأمام وإلى الخلف على سطح البحيرة ، أطلق صياد قذيفتين من بندقيته ، أصابته واحدة منهما وجرحته فى صدره ، وقال ذكر البط لنفسه : « إننى سأموت لامحالة ، ولكننى سأحرم هذا الصياد منى ، ولن يأخذنى إلاّ بعد أن أهوى إلى الماء ضعيفًا وقد فقدت كل قوتى» . . ولهذا . . واصل الطيران بقدر مايستطيع . لم يكن يدرى فى أى اتجاه يطير ، ولكن مايهمه هو أن يناضل لكى يطير بعيدًا . وبعد أن خارت قواه ، ولم يعد قادرًا على الطيران ، كان قد تجاوز البحيرة ، وطار مسافة قصيرة فوق الأرض . سقط ذكر البط مغشيًا عليه أمام مدخل مزرعة كبيرة من المزارع الممتدة على طول شاطىء البحيرة .

تصادف أن مر عامل زراعى من هذا المكان ،ورأى جارو ملقى على الأرض . أمسك به العامل ورفعه من على الأرض ، ولكن جارو لم يكن يريد شيئًا سوى أن يموت فى سلام ، ولهذا . . استجمع كل قوته ، ونقر إصبع المزارع ، حتى يفلت من يده ، ولكن جارو لم ينجح فى إطلاق سراح نفسه ، بل أدرك الفلاح أن الطائر لايزال حيًا . حطه برفق فى كوخه ، وقدمه لزوجته وهى سيدة شابة ذات وجه فيه عطف وحنان .

أمسكت جارو ، وربتت على ظهره ، ومسحت الدم الذى يحيط بريش

رقبته ؟ وأخذت تتطلع إليه باهتمام ، وأعجبت بجماله ، وبرأسه ذى اللون الأخضر الغامق المتألق ، وطوق رقبته الأبيض .. وريش ظهره البنى الضارب إلى الحمرة ، والبقع الزرقاء فى ريش جناحيه . حزنت المرأة للجرح الذى أصاب جارو ، وقالت فى نفسها : « مثل هذا الطائر الجميل لا يستحق الموت » . وأسرعت بإحضار سلة ، وجهزتها ببعض القش والخيوط ، ووضعت الطائر فى داخلها .

ظل ذكر البط جارو يرف بجناحيه ، ويحاول جاهدًا أن يحرر نفسه من هذا الأسر ، ولكنه أدرك أن الناس هنا لا تريد له شرًا ، ولن يقتلوه ، ولهذا .. سكن واستقر فى مكانه راضيًا . وبدا واضحا أنه منهك خائر القوى بسبب الألم والدم الذى نزفه .. وحملت السيدة السلة ، لتضعها بالقرب من المدفئة ، وقد كان جارو غارقًا فى النوم .

بعد قليل استيقظ جارو على من يهزه برفق .. فتح عينيه ، ولكن رأى ما أفزعه وأفقده الوعى .. آه ، لقد ضاع وانتهى .. فقد رأى أمامه من هو أخطر من البشر ، وأشدهم شراسة فى افتراس الطيور .. إنه كلب طويل الشعر ، يداور حوله بأنفه يتشممه ..

تذكر الفزع الشديد الذى أصابه فى الصيف الماضى ، وقتما كان لايزال فرخًا صغيرًا أصفر الزغب . لقد اعتاد أن يسمع بين حين وآخر أصوات تحذير تتردد من عيدان البوص .. :

« قيصر آتٍ ... قيصر آتٍ .. ».

تذكر نفسه حين أبصر الكلب المرقط يخوض بأقدامه بين العيدان ،

فاغرًا فمه ، وبرزت أنيابه القاسية الجارحة . لقد تمنى الموت ، بدلاً من أن يرى نفسه وجهًا لوجه أمام الكلب قيصر .

واشتد حزنه وفزعه حين انتهت به المقادير ، وسقط فى داخل بيت قيصر الذى يعيش فيه ، وجاء ليقف فوقه يتشممه .

نبح الكلب : « من أنت ؟ . من أين جئت ؟ . . من الذى جاء بك إلى البيت ؟ أليس مكانك بين عيدان البوص فى البحيرة ؟ » .

حاول بصعوبة شديدة أن يستجمع شجاعته ليرد :

ـ « لا تغضب منى ياقيصر . . أرجو ألاّ يضايقك وجودى فى البيت . . إنها ليست غلطتى . أصابنى جرح نتيجة قذيفة . . الناس هم الذين وضعونى هنا فى هذه السلة » .

قال قيصر : « هاو . . الناس هم الذين وضعوك هنا . . إذن ، فهم يعتزمون علاجك ، ولو أنى أرى أن من الحكمة أن يذبحوك ويأكلوك ، مادمت بين أيديهم » . انتهى الكلب قيصر من كلامه ، ثم رقد لينام أمام المدفأة . وما إن أدرك ذكر البط جارو زوال الخطر ، حتى هدأت نفسه ، واستغرق فى النوم من جديد . وقضى على هذه الحال أيامًا لا يفعل شيئًا سوى أن يأكل وينام .

ذات صباح أحس ذكر البط جارو أن حالته الصحية على مايرام ، وخطا إلى خارج السلة ، ونزل إلى أرض الغرفة ، ولكنه لم يذهب بعيدًا . . ودخل الكلب قيصر ، ففتح فمه عن آخره ، وأمسك بذكر البط بين أسنانه . ظن جارو أن قيصر سيعضه ، حتى يرديه قتيلاً ، ولكن قيصر حمله بين أسنانه برفق ، وأعاده إلى السلة . وبعد هذه الحادثة ، أصبح

جارو يثق فى قيصر ، حتى إنه حين خرج من السلة ليتمشى مرة أخرى ، ذهب إلى الكلب ، ورقد بجانبه . . وهكذا أصبحا صديقين حميمين ، واعتاد ذكر البط جارو أن يخرج كل يوم من سلته ليرقد عدة ساعات بين مخالب الكلب قيصر .

لكن جارو كان يحب سيدته أكثر من حبه للكلب قيصر . . لم يكن يشعر نحوها بذرة من الخوف ، بل كان يمسح رأسه فى يدها إذا جاءت لتطعمه ، وإذا خرجت من الكوخ ، تنهد فى حسرة وأسى ، وإذا عادت ، صاح مرحبًا بها بلغته الخاصة . قاسى جارو بعد ذلك معنى الخوف من البشر ، ومن الكلاب على السواء ، وظن أنهم جميعًا كائنات ودودة ، رفيقة ، حانية ؛ فأحبهم دون استثناء ، وتمنى أن يقوى عوده ، ويشفى تمامًا ، ليطير إلى البحيرة ، ويحكى لزملائه من البط أن أعداءهم ليسوا من الخطورة كما يظنون ، وأنه لا حاجة للخوف منهم .

لحظ أن البشر والكلب قيصر لهم عيون هادئة وديعة ، يبتهج المرء حين ينظر إليها . والشخص الوحيد فى البيت الذى يعزف عن النظر إلى عينيه ، هو قط البيت بسبس . حقًا إنه لم يسبب له أى أذى ، ولكنه أيضًا لم يشعر بأى ثقة نحوه ، بل اعتاد أن يتشاجر معه ، لأنه يحب البشر .

قال له ذات يوم القط بسبس : « هل تظن أنهم يحمونك ويدافعون عنك ، لأنهم مغرمون بك . لا . . انتظر حتى تسمن . . فسوف يلوون عنقك ، ويقطعون رقبتك . اسألنى أنا ، فأنا أعرفهم جيدًا » .

وجارو مثل كل الطيور ، له قلب ودود عطوف . لهذا . . فقد اكتأب اكتآبًا شديدًا عند سماعه لهذا الكلام . لم يتصور أن سيدته ستواتيها الرغبة

يومًا ما فى أن تلوى عنقه ، وتفصل رأسه عن جسده . هل يمكن له أن يصدق مثل هذا عن ابنها الطفل الرضيع الذى يجلس ساعات بجوار قفصه ؟ .

بدا إليه أنه وطفلها يتمتعان بنفس القدر من الحب . .

ذات يوم . . وبينما كان جارو وقيصر راقدين كعادتهما أمام المدفأة ، جلس القط بسبس ، وبدأ يغيظ ذكر البط ، وقال له :

« لست أدرى يا جارو ماذا سيفعل البط البرى السنة القادمة بعد تجفيف البحيرة وزراعتها ! » .

صاح جارو، بعد أن قفز مذهولاً فى فزع :

ـ « ماذا تقول يا بسبس ؟ » .

أجاب القط :

« إننى أنسى دائمًا ياجارو أنك لا تفهم حديث البشر مثل قيصر ومثلى أنا ، وإلاّ فإنك سمعت بالضرورة عن الرجال الذين زاروا الكوخ بالأمس . . وقالوا إنهم سينزحون الماء من البحيرة ، وسوف يزرعون القاع فى العام القادم بعد أن يجف . . ولهذا أتساءل أين سيذهب البط البرى ؟ » .

عندما سمع جارو هذا الكلام ، هاج واغتاظ ، وبدأ يصدر فحيحًا مثل فحيح الثعبان . . ثم صاح فى وجه القط قائلاً :

« أنت وضيع مثل طائر الغرة . إن ما يعنيك هو أن تستثيرنى وتحرضنى على البشر . لا أظنهم سيفعلون ماتقول . . إنهم لابد أن يعرفوا أن البحيرة ملك للبط البرى . . لماذا يشردون آلاف الطيور ، ويجلبون لهم البؤس

والتعاسة ؟ أنا واثق من أنك تقول لى هذا الكلام لتغيظنى . . أتمنى أن ينتقم منك النسر جورج ، وينهش جسمك ، وأتمنى أن تنتف سيدتى شعر شاربك » .

لكن غضب جارو لم يكف ليسكت القط ، بل استطرد القط فى حديثه ، وقال :

« تظن أننى أكذب . . إذن اسأل قيصر . لقد كان هو الآخر فى البيت بالأمس . والكلب قيصر صادق لا يكذب » .

ونادى جارو على الكلب قيصر ليشركه فى الحديث :

« ياقيصر . . أنت تفهم حديث البشر أكثر من القط بسبس . . ترى هل سمعت كلامهم جيدًا بالأمس ؟ . . قل لى ماذا يحدث لو أن الناس نزحوا البحيرة ، وجففوا قاعها وحولوه إلى حقول للزراعة ؟ يقول القط : إن هذا ما سوف يحدث ، وإنه لن يكون هناك طعام للبط ، ولا مكان لوضع البيض فيه ، وسوف تختفى عيدان البوص ، بل إنه قال : إن البط سيضطر إلى الرحيل ، وهجرة البلاد ، والبحث عن مأوى آخر . وأنا أريد أن أسمع رأيك ياقيصر ، وأرجو منك أن تؤكد لى أن القط لم يسمع الكلام ، ولم يفهمه جيدًا » .

لعل أغرب شىء هو سلوك الكلب أثناء المحادثة التى دارت بين القط وذكر البط . ظل يقظًا مفتوح العينين طول الوقت ، ولكن حينما استدار جارو ناحيته ، بدأ يلهث ، ووضع أنفه الطويل فوق قدميه الأماميتين ، وتظاهر بالنوم ، وإن فتح إحدى عينيه قليلاً ليرقب ما يدور حوله .

ابتسم القط ابتسامة العارف ، وهو ينظر إلى الكلب ، وقال لجارو :

«أحسب أن قيصر لا يعبأ بالرد عليك . . إنه هو وكل الكلاب لا يمكن أبدًا أن يعترفوا بأن البشر يمكن أن يخطئوا ، ولكن ثق فى ، واعتمد على كلامى . وسأوضح لك لماذا يريدون تجفيف البحيرة . . إنهم لم يحاولوا من قبل تجفيفها ، لأنهم كانوا يستفيدون منكم ، ولكن غزت البحيرة الآن طيور أخرى كثيرة لا نفع منها للإنسان ، والناس لا تريد ترك البحيرة لحساب هذه الطيور » .

لم يكلف جارو نفسه عناء الرد على القط ، ولكنه رفع رأسه ، وصاح فى أذن الكلب قيصر :

« يا قيصر . . أنت تعرف جيدًا أن البحيرة زاخرة بآلاف البط الذى يغطى سماءها كالسحاب . وأريد أن أسمع منك كلمة واحدة تؤكد لى أن البشر لا يعتزمون تشريد كل هذه الآلاف » .

قفز قيصر فجأة ناحية القط ، مما جعله يقفز هو الآخر من أمامه لينجو بنفسه . وهاج الكلب فى نباحٍ عالٍ :

« سأعلمك كيف تسكت وتخرس حين أريد أن أنام . طبعًا أعرف أن هناك كلام عن نزح ماء البحيرة ، وزرع قاعها . وهذه مسألة لم أقيمها جيدًا، إذ ماذا سيحدث لو بقيت البحيرة بورًا ؟ إنك حمار إذ تطيل التفكير فى شىء كهذا . بأى شىء سأتسلى أنا وأنت إذا خلت البحيرة من الطيور؟» .

بعد يومين أصبح جارو صحيحًا معافى ، قادرًا على الطيران فى أنحاء المنزل ، واعتادت سيدته أن تدلله ، وتحنو عليه كثيرًا ، كما اعتاد ابنها أن يجرى إلى الفناء ، ويقطف بعض أوراق الحشائش ، ويقدمها إليه ليأكلها

من يديه ، وكلما ربتت عليه سيدته ودللته ، قال جارو في نفسه : « لا ، على الرغم من أننى قوى قادر على الطيران فى أى وقت إلى البحيرة ، إلا أننى لا أفكر فى الابتعاد عن البشر » . لم يكن لديه أى اعتراض على البقاء معهم طول حياته .

فوجىء جارو ذات صباح أن أقبلت سيدته ، وطوقت جسمه بحبل ، بحيث يمنعه من استخدام جناحيه ، ثم أعطته للفلاح الذى كان واقفًا فى الفناء . . ووضعه الفلاح تحت إبطه وأحاطه بذراعه ، وسار به إلى البحيرة .

ذاب الثلج خلال الفترة التى كان فيها جارو مريضًا ، ولا تزال أوراق الخريف الجافة القديمة تغطى الشواطىء والجزر الصغيرة ، وإن ضربت النباتات الجديدة بجذورها فى الأرض ، وظهرت براعم النبات الخضراء على السطح ، وعادت الآن أكثر الطيور المهاجرة إلى وطنها . وأطل الكروان بمنقاره المعقوف من بين عيدان البوص ، وسبح طائر الغواص فوق سطح الماء ، وقد تزين عنقه بياقة من الريش الجديد ، وأخذ طائر الشنقب يجمع القش ليبنى عشه .

نزل الفلاح إلى قارب صغير ، ووضع ذكر البط جارو فى القاع ، وبدأ يحرك المجدافين متجهًا بالقارب إلى داخل البحيرة . . لم يتوقع جارو شرًا ، فقد ألف البشر ، ولم يعد يتوقع منهم إلا الخير فقط . نظر جارو إلى الكلب قيصر الذى صحبهم فى الرحلة ، وقال له : « إنه يشعر بالامتنان والبهجة ، لأن المزارع اصطحبه معه فى رحلته إلى البحيرة ، ولكنه لا يظن أن هناك مبررًا لكى يراقبه ويضعه تحت حراسة مشددة ، فهو لا يفكر فى الهرب أو الطيران» . ولكن قيصر لم يرد على هذا الكلام . . فقد كان صامتًا تمامًا هذا الصباح .

لكن شيئًا غريبًا أثار انتباه جارو ، وهو أن المزارع يحمل معه بندقية . . ولم يدر بفكره ، ولم يصدق نفسه أن إنسانا طيبًا مثل هذا الرجل الذى عاشره فى الكوخ يضمر فى نفسه نية إطلاق النار على الطير . هذا . . فضلاً عن أن قيصر قال له : « إن الناس لا تصيد فى مثل هذا الوقت من السنة » .

لقد قال له صراحة : « الصيد محرم فى هذ الوقت ، وإن كان هذا الأمر لا يعنينى بطبيعة الحال » .

صعد المزارع من القارب إلى جزيرة يحيط بها سياج من عيدان البوص . وبعد أن خرج ، صنع كومة من العيدان ، ورقد خلفها . سمح المزارع لذكر البط جارو أن يتجول قريبًا منه والحبل ممسك بجناحيه ، وأحد طرفيه مربوط فى القارب بخيط طويل .

فجأة أبصر جارو بعض البط الصغير الذى كان يتسابق معه فيما مضى ذهابًا وجيئةً على سطح البحيرة . كانوا بعيدين عنه ، فأطلق جارو صيحتين يناديهم . . فقد اشتد شوقه إليهم .

استجاب البط لندائه ، وأقبل فى سرب كبير جميل . . وقبل أن يهبط إلى جواره ، بدأ جارو يحكى له عن إنقاذ البشر له ، وعطفهم الشديد عليه . وبينما كان يقأقىء يحكى مكارم أخلاق البشر ، دوى صوت طلقتين من خلفه ، ورأى ثلاث بطات تهوى إلى البحيرة وسط عيدان البوص ، وقد فارقت الحياة ، وقفز الكلب قيصر ليمسك بها .

فهم جارو الخدعة . لقد أنقذه البشر ، لكى يستخدمونه طعما يخدعون به إخوته . . وهاهم نجحوا فى حيلتهم ، ثلاث بطات ماتت بسببه . أحس

بالخجل يكاد يقتله . لقد جلب على نفسه العار ، بل إنه تخيل الكلب قيصر ينظر إليه فى ازدراء واحتقار ، ولذلك . . فإنه حين عاد إلى البيت ، لم يجرؤ على النوم أو الرقاد بجانب الكلب .

فى صباح اليوم التالى حمل المزارع ذكر البط جارو ، وذهب به إلى البحيرة . رأى هذه المرة بعض البط ، ولكنه حين رآهم يطيرون نحوه ، صاح بأعلى صوته :

« ابعدوا . . ابعدوا . . احذروا . . طيروا فى اتجاه آخر بعيدًا عن هنا . هناك صياد يختفى وراء الخص ... أنا طعم لخديعتكم » .

ومنعهم بالفعل من الاقتراب من مرمى النيران .

لم يضع جارو وقتًا فى البحث عن عشب يأكله ، على الرغم من جوعه ، بل كان كل همه مراقبة رفاقه وتحذيرهم . . فكان يطلق صيحات التحذير كلما أبصر طائرًا يقترب من المكان ، بل إنه حذر أيضًا طائر الغواص ، على الرغم من كراهية البط له ، لأنه يجمع حشوده ، ويحتل مخابىء البط . ولكن جارو لم يرد أن يواجه أى طائر كارثة الموت ، أو يكون هو سببًا فى أى ضرر أو أذى لطائر آخر . . وبفضل يقظة جارو عاد المزارع إلى البيت دون أن يطلق طلقة واحدة .

على الرغم من كل هذا الجهد بدا الكلب قيصر مستاءً أكثر من اليوم السابق . وعندما حل الليل حمل جارو بين فكيه ، ووضعه أمام المدفأة لينام بين قدميه الأماميتين .

لكن جارو لم يعد راضيًا عن بقائه فى البيت ، وغلب عليه إحساس الحزن والأسى . . كان قلبه يتمزق كلما تذكر أن البشر لم يحملوا له حبًا

حقيقيًا . . كان يتألم إذا جاءت سيدته لتدلله ، أو أقبل الصبى الصغير ليربت عليه، كان يدس منقاره تحت جناحه ويتظاهر بالنوم .

واصل جارو مهمته لعدة أيام فى إطلاق صيحات التحذير ، حتى عرفته كل طيور البحيرة . وحدث ذات صباح ، وبينما كان ينادى محذرًا كعادته : «حذار ياطيور. ـلا تقربوا هذا المكان . .لست إلاّ طعمًا لخديعتكم . .» أبصر جارو عش طائر الغواص يطفو على سطح الماء ، ويتقدم نحوه . لم يكن فيما رآه شيء غريب يلفت الأنظار . إنه عش من بقايا العام الماضى، وهو يعرف أن أعشاش هذا الطير تتحرك بسهولة على سطح الماء ؛ لأنها مبنية على هيئة قارب ، ويحدث كثيرًا أن تطفو ،ظل جارو جامدًا فى مكانه يحدق فى العش ، لأنه رآه يتحرك فى اتجاه الجزيرة التى يقف عليها مباشرة ، وكأن شخصًا يوجه مساره فوق سطح الماء .

عندما اقترب العش أكثر ، رأى جارو كائنًا بشريًا ضئيل الحجم ـ إنه أصغر إنسان رآه فى حياته ـ يجلس داخل العش ويجدف بعصاتين صغيرتين . وسمع هذا الكائن البشرى يناديه :

« اقترب من الماء بقدر ما تستطيع يا جارو ، واستعد للطيران . . ستحرر الآن فورًا » .

بعد لحظات رسا العش قرب الأرض ، ولكن الملاح لم يتركه، بل ظل قابعًا بين الأغصان والعش .

ظل جارو فى مكانه لا يتحرك . . فقد شله الخوف ، إذ كان يخشى أن يكتشف المزارع حقيقة من جاء لنجدته .

وبينما وقف جارو يفكر ، أبصر سربًا من الإوز البرى يطير ناحيته . .

تخلى جارو عن التفكير ، وعاد إلى مهمته ، ليحذر الإوز بصرخاته العالية ، ولكن الإوز البرى ـ على الرغم من صيحات جارو ـ ظل يحوم ذهابًا وجيئةً فوق البحيرة . . حقًا لقد حرص الإوز على التحليق عاليًا ، ليكون بعيدًا عن مرمى القذائف . . وكان المزارع لايزال مختفيًا وراء الخص، يمنى نفسه بإطلاق النار على بعضه ! . وقبل أن يطلق النار ، كان الكائن الصغير قد خرج إلى اليابسة ، واستل سكينًا صغيرة ، وقطع الحبل الذى يربط جناحى جارو .

صاح هذا الكائن وهو يجرى عائدًا إلى العش ليجدف ويبعد عن المكان :

« الآن يمكنك أن تطير يا جارو . . طِـرْ قبل أن يحشو الرجل بندقيته ثانية» .

كان الصياد مثبتًا عينيه على الإوز ، فلم يلحظ ما حدث مع جارو ، وأنه أصبح طليقًا ، إلاّ أن الكلب قيصر تابع بدقة وحرص كل ما حدث ، ولم يكد جارو يهم ليبسط جناحيه ليطير ، حتى كان قيصر قد انقض عليه ، وأطبق فكه فى رقبته .

صرخ جارو من شدة الألم يستغيث ، فى حين قال الصبى الذى أطلق سراحه للكلب :

« إذا كنت حقًا جديرًا بعلامات الشهامة والشرف التى تبدو عليك ، فإنك ترفض يقينًا أن ترغم طائرًا على البقاء هنا ، وتسبب المتاعب لآخرين» .

عندما سمع قيصر هذا الكلام ، كشر وعبس ، ثم تغير وجهه وابتسم ، ورفع شفته العليا إلى أعلى ، وأسقط جارو من بين فكيه ، وقال له :

« طِـرْ يا جارو ... أنت يقينًا طائر طيب وديع ، لايحق لأحد أن

يستخدمك طعماً ليخدع غيرك . إننى لا أريد الإبقاء عليك لهذا الغرض، بل إننى سأشعر بالوحدة فى البيت بدونك » .

حقًا كانت الوحدة قاسية فى الكوخ بدون جارو. أحس الكلب والقط بالملل وطول الوقت بعد أن افتقداه لكى يتشاجرا معه . وأحست المرأة بوحشة بعد أن فقدت ذكر البط الأنيس الوديع الذى يقأقىء سعادةوبهجة ويقبل عليها ويصطدم بقدميها كلما دخلت البيت ، ولكن الذى آلمته الوحشة حقًا ، واشتد شوقة إلى جارو، هو الصبى الصغير بيرولا. . إنه لم يتجاوز الثالثة من العمر ، وهوالطفل الوحيد فى البيت . فلم يكن له من أنيس أو رفيق يلعب معه غير جارو. وعندما سمع أن جارو رجع إلى البحيرة مع أصدقائه وأقرانه ، لم يقتنع بهذا الكلام وظل يفكر فى وسيلة لاستعادته .

اعتاد بيرولا أن يتحدث طويلاً مع جارو حين كان راقدًا فى سلته . وكان الطفل على يقين من أن ذكر البط يفهم حديثه . . توسل لأمه وألح عليها لتصحبه إلى البحيرة ، فلعله يرى جارو ويقنعه بالعودةإلى البيت ، ولكن الأم لم تستجب له وظل الصبى يدبر أمره ويعد خطته على هذا الأساس .

خرج بيرولا إلى الفناء ليلعب هناك فى اليوم التالى لاختفاء جارو . . لعب وحده كعادته من قبل ، فى حين رقد قيصر فى الشرفة . واعتادت الأم كلما خرج طفلها أن تقول للكلب قيصر:

« ضع عينيك على بيرولا ياقيصر ، وانتبه إليه » .

لو أن الأمور سارت كما كانت دون تغيير ، لأطاع قيصر سيدته ، وعنى بحراسة الطفل ، حتى لايصيبه أى مكروه ، أو يغيب ، ولكنه اليوم ليس كعادته . . فقدعرف أن المزارعين عقدوا عدة مؤتمرات ، ناقشوا فيها تجفيف

البحيرة، وأن رأيهم استقر على إنجاز مشروعهم . . ومعنى هذا . . كما رأى قيصر مهمومًا مغمومًا لهذه الأفكار ، مما شغله عن مراقبة الطفل بيرولا .

أحس الطفل أنه وحده فى الفناء دون رقيب ، وأدرك أن هذه هى اللحظة المناسبة للذهاب إلى البحيرة ، ومقابلة جارو ، والتحدث معه . . فتح باب البيت ، وسار فى طريقه صوب البحيرة على طول الشاطئ . . مشى بخطوات وئيدة على مهل إلى أن ابتعد عن البيت ، فأسرع فى خطوه ، ثم جرى . كان يخشى أن يراه أى شخص آخر فيناديه ويطلب منه العودة . . إنه لايريد عمل أى شىء ضار، أو أن يرتكب غلطًا بل يريد فقط أن يقنع جارو بالعودة إلى البيت ، وأحس فى داخل نفسه أن أهل البيت لايقرونه على رأيه .

عندما وصل بيرولا إلى طرف البحيرة ، نادى على جارو مرات ومرات ، ثم وقف فترة صامتًا ينتظر ولكن دون أن يظهر له جارو . . رأى طيورًا عديدة تشبه جارو ، ولكنها كانت تطير بعيدًا عنه دون أن تلحظه . وعرف أن جارو ليس من بينها . وبعد أن طال انتظاره ولم يحضر جارو ، ظن الصبى أن أفضل وأيسر وسيلة للعثور عليه هى الدخول إلى البحيرة . . رأى عددًا من القوارب والمراكب الصغيرة ولكنها جميعًا مربوطة بحبال إلى الشاطئ . جال بيرولا ببصره . . ولم يعبأ بكل هذه العقبات وقفز إلى داخل القارب . اكتشف أنه ضعيف ، لا يقوى على استخدام المجاديف ، إلاّ أنه بدلاً من ذلك . . جلس وسط القارب يحركه ويهزه بجسمه. وتحرك القارب وسط الماء ، وبدأ بيرولا ينادى على جارو. ولكن القارب القديم حين وصل الى مكان ارتفع فيه منسوب الماء ، لم يعد يحتمل الهزات التى يهزها الصبى له ، فبدأت الشقوق تتفتح والماء ينفذ إلى داخله . . لم يعبأ بيرولا بكل هذا . . .

جلس فوق طاولة صغيرة عند مقدم المركب ، وهو ينادى كل طائر يمر به : « لماذا لم يظهر جارو ؟!» .

أخيرًا لمح جارو الطفل بيرولا . . سمع شخصًا يناديه بالاسم الذى حمله وهو يعيش بين البشر ، وفهم أن صديقه الطفل خرج للبحث عنه فى البحيرة . . أحس جارو بسعادة غامرة حين أدرك أن واحدًا من بنى البشر يحبه حبًا حقيقيًا .

هبط بسرعة ناحية الصبى ، وجلس بجانبه ، وأسلم له نفسه ليربت على ريشه . كانا سعيدين غاية السعادة بهذا اللقاء . ولكن جارو لحظ فجأة حالة القارب الذى امتلأ بالماء ويوشك على الغرق . حاول جارو أن يحذر بيرولا ، وقال له : « أنت لاتعرف الطيران ولاالسباحة ، ولهذا . . يجب أن تخرج سريعًا إلى اليابسة » ، إلاّ أن بيرولا لم يفهمه ، ولم ينتظر جارو لحظة واحدة بل طار على الفور يطلب النجدة .

عاد جارو بعد قليل حاملاً فوق ظهره شيئًا صغيرًا ، أصغر من بيرولا نفسه بكثير جدًا . وعلى الفور طلب هذا الكائن الصغير من الطفل بيرولا أن يجذب عمودًا أسطوانيًا كان موجودًا فى قاع المركب ، وأن يحاول توجيهه صوب عيدان القصب . . أطاع بيرولا الأمر وتعاون هو والكائن الصغير على توجيه القارب ، وبعد عدة ضربات ، وصلا إلى جزيرة صغيرة تحيط بها عيدان البوص . ولم يكد يخرج بيرولا من القارب . ويضع قدميه على الأرض حتى بدأ القارب فى الغرق ، وأخذ طريقه إلى القاع . عندما رأى بيرولا ذلك . . أدرك أن أباه وأمه سيغضبان جدًا منه . كاد يبكى ، لولا أن رأى شيئًا آخر شغله عن البكاء إذ أبصر سربًا من طيور رمادية كبيرة حطت فوق

الجزيرة . اصطحبه القزم ، وذهب معه إليهم ، وقال له أسماءهم ، ثم تحدث إليهم . سعد بيرولا بذلك المنظر المسلى الغريب ، نسى كل شىء آخر ، وفى هذه الأثناء اكتشف أهل المزرعة اختفاء بيرولا ، وبدأوا فى البحث عنه . . بحثوا عنه فى الطرقات وفى الآبار وفى كل جحر داخل المزرعة ، ثم خرجوا إلى الطرق العامة ، وذهبوا إلى المزارع المجاورة ، لعله ضل طريقه إلى هناك . وأخيرًا ، ذهبوا إلى البحيرة وأطالوا البحث عنه ولكن دون جدوى . . . لم يعثروا له على أثر.

فهم الكلب قيصر أن الفلاحين يبحثون ، ولكنه لم يبذل من جانبه جهدًا لمساعدتهم ، ولم يحاول أن يدلهم على الطريق الصحيح ، بل على العكس من ذلك . . فقد بقى فى مكانه ساكنًا ، كأن الأمر لايعنيه .

وأخيرًا وبعد أن انقضى أكثر النهار ، وعثر بعض الفلاحين على آثار أقدام بيرولا بالقرب من قارب مربوط بحبل عند الشاطىء . وهنا أدرك الناس أن القارب القديم الملىء بالشقوق غير موجود على الشاطىء . وتغيرت صوة الموقف تمامًا ، وأحسوا بهول الكارثة .

على الفور ، نزل بعض الفلاحين إلى عدد من القوارب ليبحثوا عن الطفل . استعملوا مجاديفهم وأطالوا النظر هنا وهناك ، حتى اقترب المساء دون أن يعثروا على أثر له فى الماء .

أقبل الليل ، ولم تستطع الأم العودة إلى البيت ، بل ظلت تروح وتجىء فوق الشاطىء . اقتنع الجميع بأن الطفل مات غرقًا ، إلاّ الأم التى أبت أن تصدق هذا الظن ، حيث واصلت البحث عنه فى كل مكان ، على الرغم من عتمة الليل . . بحثت عنه بين عيدان البوص والأعشاب ، وخاضت فى

الوحل ، غير عابئة بما قد يصيبها من بلل أو وسخ . ويبلغ بها اليأس غايته وأحست بقلبها يعتصره الألم داخل صدرها . لم تبك بل ضمت راحتيها حول شفتيها ، وهل لاتفتأ تنادى طفلها بنبرة حادة نافذة.

سمعت حولها نداءات البجع ، والبط ، والكروان . ظنت أنهم يتبعونها ، ينوحون ويولولون معها أيضًا . وقالت فى نفسها : « لابد أنهم فى ورطة أو يعانون كارثة ، طالما أنهم ينوحون مثلى » .

ثم عادت وتذكرت أنها لم تسمع سوى شكاية طيور . . لا ، لا، هؤلاء بغير هموم .. والغريب أن الطيور لم تهدأ حتى بعد الغروب ، وسمعت الأم كل هذه الحشود من الطيور التى لاحصر لها ترسل الصيحة تلو الصيحة تنوح وتبكى . . . طيور كثيرة اقتفت أثرها وسارت وراءها حيثما ذهبت . وأقبل غيرها يرف بأجنحته فى الهواء وامتلأت الدنيا أنينًا ونواحًا وعويلاً .

إلاّ أن الألم المبرح الذى تعانيه فتح قلبها ، وزاده شفافية وحبًا . وخيل إليها أنها ليست بعيدة عن كل الكائنات الحية الأخرى - كما يظن الناس عادة - وأدركت مالم تدركه من قبل عن حياة الطيور ومعاناتها . عرفت أن لها همومها الدائمة ، وحنينها الشديد إلى وطنها وأطفالها . . هذه الطيور مثلها ، ليس هناك فارق كبير بينها وبينهم ، مثلما كانت تظن من قبل . وبدأت تفكر فيما سوف يصيب آلاف البجع والطيور الأخرى حين يفقدون جميعًا وطنهم هنا فى البحيرة وقالت فى نفسها : « سيكون الأمر شديد القسوة عليهم فى أن يربوا أبناءهم بعد ذلك » .

وقفت جامدة تتأمل هذا الوضع حقًا . . جميل أن ننجز هذا العمل الرائع، ونحول البحيرة إلى حقول ومروج ، ولكن لتكن بحيرة أخرى غير هذه . . بحيرة ليست مأوى ووطنًا لآلاف المخلوقات .

تذكرت القرار الذى سيصدر غدًا لتجفيف البحيرة ، وتساءلت فيما بينها وبين نفسها : « لعل طفلاً ضاع منى لهذا السبب . . وضاع اليوم على وجه التحديد ! » .

ترى هل أراد اللّه أن يفتح الحزن قلبها ، ويزيل عنه غشاوته قبل فوات الأوان، والإقدام على هذا العمل القاسى ؟

هرولت إلى بيتها ، وبدأت تحدث زوجها عن كل مادار بخلدها . حدثته عن البحيرة وعن الطيور وقالت : « إن هذه إرادة اللّه ، وحكمة تدبيره لشئون خلقه » . وسرعان ماوجدت زوجها يشاركها الرأى .

إنهم يملكون مساحة شاسعة ، واذا مانفذ قرار تجفيف البحيرة ، فإن مثل هذه المساحة ستكون من نصيبهم ، وتتضاعف ملكيتهم . وهذا هو السبب فى لهفتهم على إنجاز المشروع أكثر من غيرهم . . لقد شغلتهم هموم النفقات والتكلفة ، وساورهما القلق والخوف فيما لو فشل المشروع . ويعترف والد بيرولا فى قرارة نفسه أنه هو الذى يضغط ويلح لتنفيذ المشروع . لقد استخدم كل مايملك من حجج وبراعة فى الحديث ، وقدرة على الإقناع، حتى يترك لابنه بعد وفاته مزرعة تعادل ضعف المزرعة التى يملكها حاليًا .

وقف الأب مطرقًا مهمومًا ، يفكر ويتساءل . . : « ترى هل إرادة اللّه وراء حادث اختفاء ابنه فى هذا اليوم بالذات ؟! » . . . وقبل تنفيذ القرار وقبل أن تفتح زوجته فمها لتتحدث إليه ببضع كلمات بادرها بقوله :

« لعلها إرادة اللّه ، تأبى علينا أن نتدخل فى تدبيره للأمور » . سأتحدث فى هذا الموضوع غدًا مع الآخرين ، وأحسب أننا سنتفق على أن يبقى الوضع

كما هو . وبينما كان الأب يتحدث إلى زوجته ، كان الكلب قيصر راقدًا أمام المدفأة . رفع رأسه وأنصت إلى الحديث باهتمام شديد . وعندما استمع إلى القرار الذى انتهى إليه الزوج ، نهض من مكانه وسار نحو سيدته ، وأمسك بطرف ثوبها ، وقادها ناحية الباب .

قالت وهى تجذب ثوبها من بين أسنانه : « لكن هل تعلم ياقيصر أين بيرولا؟ » .

نبح قيصر نباحًا كله فرح وبهجة ، وألقى بنفسه على الباب . . فتحت السيدة الباب ، واندفع قيصر نحو البحيرة . أيقنت السيدة أنه يعرف مكان بيرولا ، فهرولت وراءه ، وما إن وصلت إلى شاطىء البحيرة ، وقيصر أمامها ، حتى سمعت صياح طفل . . إنه بيرولا .

قضى بيرولا أجمل أيام حياته فى صحبة تومى والطيور . . ولكنه بدأ يبكى ، لأنه أحس بالجوع ، وخاف ظلمة الليل ، وابتهج حين وجد أمه وأباه وقيصر قد جاءوا إليه .

ذات ليلة ، وبينما كان نلز نائمًا فوق الجزيرة ، استيقظ على صوت مجاديف تضرب فى الماء لم يكد يفتح عينيه ، حتى سقط عليهما ضوء مبهر ، جعلهما يطرفان .

أول الأمر . . لم يستطع أن يميز ذلك الشىء الذى يومض بضوئه المبهر هنا فوق سطح البحيرة ، ولكن سرعان مارأى قاربًا فوق مقدمته شعلة مضيئة ، يقترب من مكان تجمع عيدان البوص . وانعكس ضوء الشعلة الأحمر بوضوح على صفحة الماء المعتمة . ويبدو أن الضوء الساطع أغرى السمك ، لأن نلز رأى حول مكان الضوء فى الأعماق بقعًا سوداء تتحرك ، وتغير أماكنها باستمرار.

كان فى القارب رجلان عجوزان . . جلس أحدهما فى الوسط يستعمل المجدافين ، ووقف الآخر ممسكًا بيده رمحًا فى طرفه سن مدبب . وبدا واضحًا أن الرجل العجوز الممسك بالمجدافين صياد رقيق الحال، نحيل الجسم ، ذابل الجلد ، لوحته الشمس ، رثّ الثياب ، وأن من يراه يوقن بأنه اعتاد على كل الأجواء . . عليه علامات السكينة والرضا .

قال الفلاح : « قف الآن . . » . . وكان ذلك عندما أصبحا قبالة الجزيرة التى يرقد فوقها الصبى ، ثم غمس رمحه بقوة وسرعة فى الماء ، وسحبه إلى الخارج ، وقد تعلق به ثعبان سمك طويل .

قال وهو يسلّك ثعبان السمك من الرمح :

- « انظر . . إنه شىء له قيمة كبيرة . أحسب أننا حققنا الكثير بذلك، ويمكننا العودة » .

ولكن زميله لم يرفع المجدافين ، بل ظل جالسًا يتلفت حواليه : « وقال . . المنظر هذه الليلة على البحيرة ساحرٌ وجميل » . .

وحقًا ما قال . . البحيرة ساكنة ، وسطح الماء كأنه حصير ناعم مبسوط، لايعكر صفوه شىء سوى خط يتركه القارب وراءه يدل على حركته . بدا هذا الخط وكأنه ممر ذهبى يتألق فى ضوء الشعلة ، وكانت السماء صافية ، مزدحمة بالنجوم المتلألئة ، وتوارت الشطآن خلف أجزاء البوص ، فيما عدا ناحية الغرب . وارتفع شاهقًا على البعد جبل ، تراه داكناً مهيبًا فى جلال ، يقسم السماء إلى ثلاثة أركان .

أشاح الرجل الآخر بوجهه ليبعد الضوء عن عينيه ، وتفحص صديقه ، وقال له :

- « نعم المكان هنا رائع الجمال ، ولكن أفضل مايميز هذه المنطقة ليس جمالها» . . سأل الرجل الممسك بالمجدافين :

- « ماهو ذلك إذن الذى يفضل الجمال ؟» .

- « إن هذه المنطقة كانت دائماً موضع إجلال وتكريم » .

- « قد يكون هذا صحيحًا » .

- « وسوف يستمر هذا الوضع دائمًا كما أعرف » .

عاد الرجل الجالس أمام المجدافين إلى التساؤل .

- « ولكن كيف يمكن لإنسان أن يعرف هذا عن المستقبل ؟» .

تمدد المزارع فى مكانه ، واحتضن رمحه ، وقال :

« هناك قصة قديمة تناقلتها أجيال أسرتى أبًا عن جد . وتنبئنا هذه القصة عما سيحدث لهذه المقاطعة» .

قال صديقه الممسك بالمجدافين فى لهفة : « إذًا يمكنك أن تحكيها لى » .

- « نحن لانحكيها لأى إنسان أو لكل إنسان ، ولكننى لاأريد أن أحتفظ بها سرًا ، وأكتمها عن صديق قديم لى » .

استمر فى حديثه . . وإن كنت تحس فى نبرة صوته أنه يتحدث عن شىء سمعه من آخرين ، ويحفظه عن ظهر قلب ، قال : « هنا . . ومنذ سنوات طويلة جدًا جدًا كانت تعيش سيدة تتمتع بالقدرة على اكتشاف المستقبل ، وتحدث الناس عما سيصادفهم فى حياتهم المقبلة ، وتتحدث عن المستقبل بدقة ويقين ، كأنه قد حدث فعلاً . واشتهرت هذه السيدة ، وذاع صيتها ،

وأصبح الناس يفدون إليها من بعيد ومن قريب ليعرفوا ما يخبئه لهم المستقبل من خير أو من شر .

ذات يوم ، وبينما كانت هذه السيدة جالسة فى حجرتها أمام مغزلها ـ كعادتها فى سالف الأيام - أقبل عليها فلاح فقير ، فدخل الحجرة وجلس على مقعد بجوارها .

بعد فترة صمت ، قال الفلاح : « إنى أعجب ياسيدتى العزيزة . . لماذا تجلسين هكذا، وفيم تفكرين ؟! » .

أجابت السيدة . «أنا جالسة أتأمل أمورًا سامية وقدسية » .

قال الفلاح : « لعله من غير الملائم أن أسألك عن شيء يثقل قلبى » .

- « لا أظن شيئًا يثقل قلبك غير حصاد حقلك ، وأملك فى الحصول على المزيد من الحبوب ، ولكننى اعتدت تلقى رسائل من البابا رئيس الكنيسة الأعظم ، لأحدثه عن الأسرار التى يضمرها الغيب » .

قال الفلاح : « ولكن هذه كلهاأمور ليس من السهل الإجابة عليها . . ولقد سمعت أيضًا أن كل من أتى إلى هنا رحل وهو غير راضٍ عما سمعه» . . عندما قال الفلاح هذه الجملة الأخيرة ، عضت السيدة على شفتها وارتفعت فى جلستها على المقعد إلى أعلى ، وقالت :

- « إذاً هذا هو ماسمعته عنى . لك أن تسألنى عن مستقبل حياتك ، وسوف ترى . . هل سأجيبك الإجابة التى ترضيك أم لا ؟! » .

لم يتردد الفلاح بعد هذا أن يكشف لها عن ضميره ومقصده ، وقال : إنه جاء يسأل عن مصير بلده مستقبلاً ، فليس هناك ماهو أعز على نفسه من

بلده . وأحس أنه سيكون سعيدًا راضيًا طول حياته وعن يوم مماته إذا ماحصل على إجابة شافية ورد مقنع .

قالت السيدة الحكيمة : « أوه ، هل هذا هو كل ماتريد أن تعرفه . إذن أحسب أنك ستكون راضيًا ، وذلك لأننى وأنا جالسة هنا فى مكانى ، أستطيع أن أقول لك إن مصير بلدك سيكون على النحو التالى : ستملك بلدك دائمًا ماتفتخربه على غيرها من البلدان » .

قال الفلاح : « نعم ، هذه إجابة طيبة ياسيدتى العزيزة ، بيد أننى سأطمئن بالاً وأهدأ نفسًا إذا عرفت كيف سيتيسر هذا الشىء الذى تفتخر به بلدى على غيرها » . . أجابت السيدة « ولماذا لن يكون ميسورًا ؟ ألاتعرف أن بلدك تملك شهرة واسعة منذ القدم ؟إن كل بقعة فى بلدك تضم آثارًا تشهد على عظمتها ومجدها ، وتملك من عناصر الفن والجمال مايتحدث عنه الركبان » .

قال الفلاح : « قد يكون هذا صحيحًا ، بيد أننى رجل عجوز ، وأعرف أن عقول الناس وآراءها قابلة للتغيير ، وأخشى أن يأتى زمان ينكر الناس فيه هذا المجد الغابر أويقصرون عن الإضافة والتجديد» . قالت السيدة : «قد تكون على صواب فيما تقول ، ولكن لاداعى لأن تتشكك فى النبوءة» . قال الفلاح : إنه سعيد برأيها ، ولكنه يعرف أيضًا أن كل شىء إلى زوال ، ويتساءل عما يحفظ لبلده مجدها عاليًا على الدوام ، ولاتأتى عليه عوادى الزمان .

قالت السيدة : « ليس من السهل إقناعك ، ولكننى أرى المستقبل أمامى ، وأستطيع أن أخبرك بأنه قبل أن تفقد بلدك جمالها ، ستقام قلعة

حصينة ستكون أعجوبة عصرها ، وسوف يحج إلى بلدك الملوك والحكام ليشهدوا بدائعها» .

قال الفلاح : « كل هذا جميل ويسعدنى أن أسمعه ولكننى - كما قلت - رجل عجوز وأعرف كيف تتحول كل هذه الأمجاد . . ماذا يحدث بعد أن تصبح هذه القلعة أطلالاً ؟ . . ما الشىء الجديد الذى سيجذب الناس إلى بلدى بعدها ؟ » .

قالت السيدة : « إن ماتطلب معرفته ليس بالشىء الهين اليسير ؟ ولكننى أرى فى المستقبل البعيد حركة دائبة ونشاطًا كثيرًا فى بلدك ، وأرى أن بلدك ستتجدد دائمًا ويعلو شأنها ، لأنها تملك الكثير» .

لم ينكر الفلاح سروره بهذا الكلام ، ولكنه سألها عما سيكون لو ساءت الأمور على نحو خاطىء ، ولم تجد بلده ماتفاخر به غيرها .

قالت السيدة : « أنت طموح ، لاترضى بالشىء القريب والبسيط لكننى أرى على البعد أراضى بلدك ، وقد غطتها المروج ، وعمرت الشواطىء فوق أراضيها مبانٍ شاهقة رائعة . .

أراها وكأنها قد ازدانت بحلة المجد الأصيل ، وضمت بين جوانبها مايشد إليها أنظار الحجيج » .

ألح الفلاح فى سؤاله : « ولكن ماذا لو جاء زمان يتنكر فيه الناس لكل هذا المجد القديم ؟» .

قالت السيدة : « أنت لاتريد أن تشعر بقسوة الأحداث ، ومرارة الزمان . . إننى أرى ينابيع الصحة تفيض فى كل مكان » .

قال الفلاح : « جميل جدّا أن أعرف هذا ، ولكن ماذا لو جاء زمان بحث الناس فيه عن الصحة من ينابيع أخرى غريبة » .

أجابت السيدة : « لاتحمل همّا ، ولا تشغل البال بهذا مادام الناس يعملون فى دأب ، فلا خوف ، ولاداعى للقلق . . العمل هو وحده الذى يجلب الثناء على كل لسان » .

لكن الفلاح ظل ذاهل العينين ، على الرغم من كل هذا .

وأخيرًا قالت السيدة ، وقد نفد صبرها :

-« إننى أسمع تدفق المياه فى الحقول ، وهدير عجلات المصانع والكل فى عملٍ دائب » .

قال الفلاح : « نعم ؟ نعم كل هذا جميل أن أعرفه ، ولكن كل شىء إلى زوال وأخشى أن يطوى النسيان كل هذا» .

إزاء هذا العناد وإصرار الفلاح على عدم الاقتناع نفد صبر السيدة تمامًا ، وقالت له :

- « تقول إن كل شىء هالك ، ولكننى أذكر دائمًا اسم شىء يظل دائمًا هو دون تغير . أعنى أنه سيظل على هذه الأرض حتى آخر الزمان . . فلاحون لهم ما لك من غطرسة وعناد! » .

لم تكد السيدة تفرغ من كلامها ، حتى نهض الفلاح من مكانه سعيدًا راضيًا ، وشكرها على هذه الإجابة الطيبة .

قالت السيدة : « أدركت الآن كيف تنظر إلى الأمور » .

وقال الفلاح : « حسن ، إننى ياسيدتى العزيزة أنظر إلى الأمور على هذا النحو . إن كل مايبنيه وينجزه الملوك ورجال الدين والأمراء والتجار لايدوم ،

إلاّ لسنوات قصار . . ولكن حينما تقولين لى : إن بلدى سيكون عامرًا بمن يعملون فى جد ودأب من الفلاحين أوغيرهم ، فإننى أعرف أنه سيكون بالإمكان الحفاظ على المجد القديم . . ذلك لأن من يحنون ظهورهم على التربة خلال عملهم الخالد ، ومن يعكفون فى صدق لإنتاج خيراتها ، ومن يمنحونها الحب وجهدهم المبدع الخلاق هم وحدهم القادرون على صون سمعة البلد وشرفه . . ومن زمنٍ إلى آخر . . ومن جيلٍ إلى جيل . . فيضمنون لها البقاء والخلود » .

ركب نلز على ظهر ذكر الإوز الأبيض . . وانطلقا معًا فى الهواء . . رأى السهل الزراعى يمتد تحته . وشرع يعد الكنائس البيضاء التى تطل بأبراجها العالية على الحدائق الغناء المحيطة بها . لم يمض وقت طويل ، حتى بلغ الخمسين ، ثم اختلط عليه العد ، فلم يعد قادرًا على مواصلة عملية الحصر.

كانت كل المزارع تقريبًا مكونة من بيوت ذات طابقين ، وجدرانها مدهونة بطلاء أبيض ، وتبدو من الارتفاع الشاهق ذات منظر مهيب استحوذ على إعجاب الصبى . وقال فى نفسه : «لا أظن أن هناك فلاحين على هذه الأرض ، فعينى لم تبصر واحدًا منهم حتى الآن » .

على الفور صاح الإوز البرى :

« الفلاحون هنا يعيشون حياة السادة . . الفلاحون هنا يعيشون حياة السادة» .

اختفى الثلج والجليد من فوق السهول . وبدأ الربيع يعمل عمله .

سأل الصبى بعد فترة : « ما هذه الكائنات التى أراها تزحف فوق الحقول؟» . أجاب الإوز البرى : « محاريث وثيران . . . محاريث وثيران » .

كانت الثيران تسير ببطء شديد فوق الحقول ، حتى ليخيل إلى من يراه أنها ساكنة لاتتحرك . وصاح الإوز مناديًا :

« لن تصلوا إلى هناك قبل العام القادم ! . . لن تصلوا إلى هناك قبل العام القادم !! » .

لكن الثيران كانت قادرة على مواجهة السخرية ، فرفع كل منها خطمه إلى أعلى وخار قائلاً : –

« نحن ننتج فى الساعة الواحدة أكثر مما تنتجوه أنتم طوال حياتكم » .

فى أماكن محدودة ، المحاريث تجرها خيول . . رآها نلز تسير بسرعة ونشاط أكثر من الثيران ، ولكن الإوز أصر على إغاظة الخيول أيضًا ، فصاح بهم :

« ألا تخجلون حين تعملون عمل الثيران ! » . وصهلت الخيل : « وأنتم تخجلون لأنكم تقومون بعمل الإنسان الكسلان » .

وبينما كانت الخيل والثيران تعمل فى الحقول ، خرج كبش الحظيرة يتهادى فى الفناء . بدا غاضبًا حساسًا لأنهم جزوا شعره منذ لحظات . . فشرع يجرى وراء الصبية الصغار ويطارد كلب الراعى ثم يهدأ حينًا ويعود إلى مشيته الأولى متكبرًا منتفخًا وكأنه هو أمير هذا المكان . حوم الإوز البرى فوقه وصاحوا به لإغاظته :

–« ياكبش . . . ياكبش . . ماذا فعلت بصوفك ؟» .

صمت الكبش لحظة ، ثم أصدر صوتًا عاليًا يرد به على الإوز ، فقال :

– « أرسلته إلى مصنع الصوف لكساء البشر . . » .

وسألته إوزة :

« ياكبش . . ياكبش وماذا فعلت بقرنيك ؟ » ، ولكن الكبش لم يكن له قرنان ، وهو أمر يحزنه كثيرًا ، ويعتبر أكبر إساءة له أن يسأله أحد عن قرنيه . اندفع يجرى وينطح الهواء فى غضب وهياج .

رأى الإوز على الطريق رجلاً يسوق قطيعًا من الخنازير ، لم يتجاوز عمرها خمسة أسابيع كان الرجل يسوقها ليبيعها فى سوق البلدة . أخذت الخنازير تجرى أمامه لاتعبأ بشىء ، وكلما تفرقت عادت وتجمعت مع بعضها ثانية ، كأنها تجد فى هذا حماية لها .

قالت الخنازير الصغيرة « جئنا توّا من عند أبينا وأمنا . . تُرى ما الذى سيحدث لنا؟ » .

صمت الإوز ، فلم يُرِدْ إغاظة مثل هذه المخلوقات الصغيرة . لم يشعر الإوز البرى بسعادة غامرة مثل تلك السعادة التى غمرته وهو يحلق فوق بلد منبسطة ليس فيها جبال ولا وهاد . ولهذا . . لم يسرع فى طيرانه ، بل أبطأ يحوم فوق هذه المزرعة وفوق تلك ويطلق النكات والدعابات مع الحيوانات الأليفة. وبينما كان نلز يطير فوق السهل المنبسط ، تصادف أن طافت بخاطره أسطورة سمعها منذ زمان طويل . . إنه لايذكرها بدقة ، ولكنه يذكر أنها تحكى عن شىء أشبه بالتنورة (الجيب)، نصفها مصنوع من مخمل منسوج مع خيوط الذهب ،والنصف الآخر من قماش رمادى ، صناعة منزلية ، ولكن صاحبة التنورة زيَّنت النصف المنسوج بالمنزل بكميات من الجواهر والأحجار الكريمة ، بحيث تبدو أكثر ثراءً وبهاءً من القماش الذهبى .

تذكر هذا القماش المنزلى وهو يتطلع من عليائه إلى السهل لأنه أرض منبسطة فسيحة وتقع محصورة بين جبلين تغطيهما الغابات ، أحدهما إلى الشمال ، والآخر إلى الجنوب . ورأى الجبلين اللذين تغطيهما الغابات يكسوهما لون أزرق محبب إلى النفس ، يتألق مع نور الصباح ، وكأنه مكسو بغلالة من ذهب . ولم يكن السهل الذى يبدو عاريًا شتاءً أجمل منظراً أوبهاءً من النسيج المنزلى .

لكن لابد أن الناس حفِيُّون بالسهل ، لأنه كريم عطوف سخى ، ولذلك . . حاولوا المبالغة فى تزيينه . فقد تخيل نلز وهو يطل من عليائه أن المدن والمزارع والكنائس والمصانع والقلاع ومحطات السكك الحديدية المتناثرة فوق السهل تشبه حُليًا صغيرة متناثرة . . إنها تتألق مثل الجواهر . ورأى الطرق وقضبان السكك الحديدية اللامعة ، والقنوات المائية الزرقاء تمتد كلها بين الأحياء ، كأنها خيوط لتطريز لوحة كبيرة ، وبدت الحدائق أشبه بدبابيس زينة (بروش) صغيرة . لم تكن هناك نمطية أو تكرار، بل كان هناك عرض فيه عظمة وجلال يشد إليه الأنظار.

ترك الإوز البرى هذه المنطقة ، وواصل سفره نحو الشرق على طول القنال . . فقد كانت هى الأخرى تتأهب للصيف . أصلح الناس ضفتى القنال وبوابتها . تراهم يعملون هنا وهناك بهمة ونشاط ليستقبلوا الصيف . وامتدت عدوى العمل الدؤوب النشط إلى المدن ، فترى البنائين والنقاشين يقفون فوق السقالات ليزيتوا الجدران الخارجية ، بينما عكفت الخادمات على تنظيف الشبابيك . وهناك عند الخليج ترى عمال البحر يغسلون القوارب والسفن التجاربة ويزينونها لاستقبال الصيف .

ترك الإوز البرى السهل ، وواصل طيرانه ، حتى بلغ بعد فترة طريقًا

قديمًا جبليًا ، يتلوى بين الصخور ويمتد تحت جدران الجبل . وفجأة أطلق الصبى صيحة . . فقد كان جالسًا فوق ظهر الإوزة ، وباعد بين رجليه ، ثم بدأ يهزهما ، فسقطت واحدة من حذائيه وهوت إلى الأرض .

صاح الصبى : « عزيزى ذكر الإوز . لقد سقط حذائى » . هبط ذكر الإوز نحو الأرض ، فرأى الصبى طفلين يسيران على الطريق ، عثرا على حذائه والتقطاه من على الأرض .

عاد الصبى يصرخ بشدة : « عزيزى ذكر الإوز . . طِرْ وحلق عاليًا ثانية. لقد تأخرنا ، وهبطنا بعد فوات الأوان . . لن أحصل على حذائى ثانية » .

كانت راعية الإوز وأخوها يمسكان بحذاء خشبى سقط عليهما من السماء. تأملتها البنت الصغيرة ، ثم قالت :

« هل تتذكر يا أخى يوم أن كنا فى مدينة أوفيد وسمعنا أن الناس رأوا قزمًا مسحورًا يلبس سروالاً جلديًا وفى قدميه حذاء خشبى ؟ وهل تذكر يوم حدثتنا بنت ،وقالت إنها رأت غزالاً مسحورًا، له حذاء خشبى ، وطار على ظهر إوزة ؟ ، وهل تذكر يوم عدنا إلى كوخنا على البحر ورأينا عفريتًا يرتدى نفس الزى حدثتك عنه وركب ظهر إوزة ، وطار بعيدًا ؟! . . لعله هو ذلك الذى طار فوقنا الآن مع الإوزة وسقط حذاؤه الخشبى .

قال أخوها : « نعم ، ربما كان هذا صحيحًا » .

أمسكا الحذاء الخشبى ، وقلّباه يمينًا وشمالاً ، وتفحصاه بدقة ، إذ نادرًا مايعثر طفل على شىء كهذا .

قالت البنت راعية الإوز لأخيها : « انتظر ، انتظر . . » .

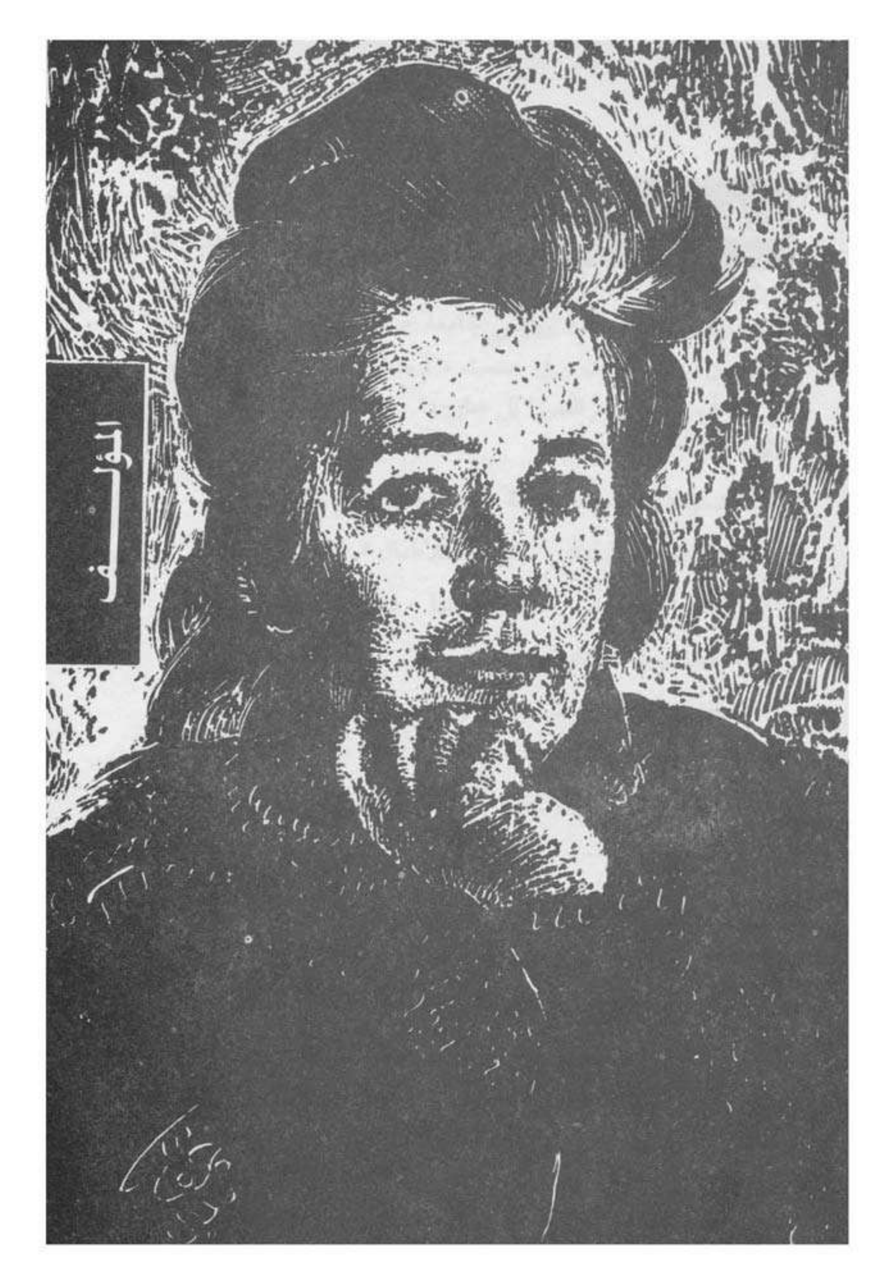
هناك مكتوب على أحد الجانبين :

« لماذا حقًا ؟! هاهى ، ولكنها حروف صغيرة جدًا » .

- دعنى أنظر إليها . . إنها . . إنها تقول :

« نلز من غرب السويد . . هذا أعجب شىء صادفته فى حياتى ! » .

* * *


المؤلف

مغامرات نلز .. وسلمى لاجرلوف

عندما انتهى الفيلم، وأضيئت أنوار دار العرض الصيفية ، تبادلت النظرات مع صديقى د. عبد العزيز المقالح ـ الشاعر اليمنى الكبير ، ورئيس جامعة صنعاء ـ وبقينا في مقعدينا مشدوهين لبعض الوقت ، فى صمت ، لم نتحرك ، ولم نتبادل الكلمات ، إلا بعد أن انطلق رواد السينما إلى خارجها . . همس ونحن نستعد لمغادرة المكان :

ـ « شكرًا لأنك أتحت لى فرصة مشاهدة هذا الفيلم الرائع » .

قلت : « ماكان ليفوتنى ، ككاتب للأطفال » .

ـ « لقد زرنا السويد ، وطفنا بأرجائها ، دون أن نتحرك ! » .

ـ « وقمنا برحلة فى تاريخها » . .

أضاف : « وذقنا جانبًا من حلاوة أدبها وفنها . . هل روايتها (نلز) هذه مترجمة إلى العربية ؟ » .

أجبت : « لا ، مع الأسف . . لقد قرأتها ، وقرأت عنها منذ فترة باللغة الإنجليزية » . .

عقّب : « هى بكل المقاييس عمل فذ! » . .

* * *

مازلت أذكر هذا الحوار ، رغم أنه قد مر عليه ما يزيد على ربع القرن ، ظلت خلاله هذه الرواية الفريدة بلا ترجمة عربية ، إلى أن تصدى لها صديقى الكاتب والمترجم والفيلسوف « شوقى جلال » ، وسألنى أن أراجعها ، ولم يكن ذلك من باب عدم الاطمئنان إلى دقة الترجمة ، فذلك

أمر مفروغ منه ، فهو رجل أمين ودقيق ، لكنه كان حريصًا على أن تكون كلماتها وعباراتها داخل قاموس الأطفال اللغوى ، فهو يريدها أن تصل إليهم كاملةً غير منقوصة .. لكن قلمى لم يتدخل إلاّ فى تغيير بضع كلمات، وتبسيط بعض العبارات، لا أكثر .. فإن الرجل سلس الأسلوب، تنساب جمله رقراقة ، كأنها مياه فضية ، فى جدول عذب. وقد خرج العمل من بين يديه قطعة فنية بديعة .. وإن تأخر نشرها مايزيد على السنوات العشر ، لأن يدًا أثيمة ، تستحق قطعها ، أخفت هذا النص الجميل ، بل سرقته ، لتحجبه عن القراء الكبار والصغار ، ونجحنا فى العثور ـ مصادفة ـ على نسخة أخرى ، كانت بمثابة إنقاذ للعمل من الضياع ..

* * *

صاحبة هذه الرواية هى الكاتبة السويدية ذائعة الصيت (سلمى لاجرلوف) ، وقد طافت شهرتها الآفاق بعد حصولها على جائزة نوبل العالمية فى الآداب عام ١٩٠٩م .. وكانت أول سيدة تحصل على هذه الجائزة المرموقة .. كما كانت أول سويدية تفوز بها ، على الرغم من أن السويد هى التى تمنحها لمستحقيها .. وللحكاية ـ كما يقولون ـ حكاية! .. :

وضعت سلمى لاجرلوف الرسالة أمامها ، بعد أن قرأتها ، وجلست تفكر .. وقالت لنفسها : « الحقيقة أنها فكرة معقولة ، تستحق النظر إليها باهتمام كبير » ..

كان ذلك فى سنة ١٩٠٣م ، وسلمى فى ذلك الوقت كاتبة محبوبة فى بلادها (السويد) .. كانت ضعيفة صحيًا ، وكان بها عرج ، لازمها منذ

طفولتها ، ولم يحل ذلك بينها وبين أن تكتب قصصها وحكاياتها للصحف والمجلات . . إلى أن جاءتها تلك الرسالة . . ترى : ماذا بها ؟

كانت الرسالة من الاتحاد الوطني للمدرسين فى السويد ، وتقول :

« نحن فى حاجة ماسة إلى كتاب مدرسى يستمتع الأطفال بقراءته فى حجرات الدراسة ، أو فى فصولهم ، ليثير اهتمامهم بجغرافية بلادهم ، كى يعرفوها أكثر ، ويحبوها » . .

والجغرافيا من المواد التى لايرتاح إليها الأطفال ،على الرغم من حبهم للرحلات التى هى فى حقيقتها جغرافيا حية ، لكن المادة التى يدرسونها لاتلقى منهم نفس الإقبال والحب .

ومضت سلمى تقرأ : « نرجو أن يكون الكتاب مثيرًا لاهتمام أطفال بلادنا، ليس بالجغرافيا فقط ، وإنما أيضًا بتاريخها العريق ، ملفتًا أنظارهم لماضيها ، ولحكاياتها الشعبية ، وأساطيرها » .

وأخيرًا . . أشارت الرسالة إلى ثقة اتحاد المدرسين السويدى فى قيامها بالمهمة الصعبة ، التى ستخدم بها أطفال بلدها بانتمائهم إليها ، وربط كل منهم بالآخر برباط وثيق .

همست سلمى تحدث نفسها :« آه لو استطعت أن أؤلف كتابًا مثل هذا، يمكن أن يكون وسيلة أقص بها للأطفال كل ما سمعته فى طفولتى ، ليستمتعوا به كما استمتعت . . هناك حكايات قصها علىّ أبى فى حقوله فى شمال السويد . . وحكايات سمعتها من جدتى العجوز ، وأيضًا من الفتاة التى كانت ترعى الأبقار ، والسيدة التى كانت تنظف البيت . . حكايات سمعتها من كثير من الناس لم أنسها قط ، بل ظلت عالقة بذهنى، فقد

كنت أحب الاستماع إلى الناس وهم يروونها على مسامعى. والحق، أننى أحلم أن أضع فى الكتاب كل حبى لبلدى ووطنى، وولائى له، وانتمائى إليه . . كل مشاعرى وأمانىَّ الطيبة له بالازدهار والنجاح » .

وكادت سلمى أن تصرخ : « سأقول للدنيا كلها : إلى أى حد بلادى جميلة وساحرة ورائعة : بلادى جميلة ببحيراتها ، وأنهارها ، وشلالاتها . . بمزارعها وشواطئها » .

وتحمست سلمى لاجرلوف للفكرة ، وكان عليها أن ترد على الرسالة ، وقالت فى ردها . . إنها ستحاول .

استمرت سلمى ثلاث سنوات بعد ذلك تدرس بلادها السويد ، وصحيح أنها تعرفها جيدًا . . لكنها الآن فى حاجة إلى معرفة كل التفاصيل . يجب أن يكون كل شىء يتعلق بموضوع الكتاب تحت يدها قبل أن تكتب حرفاً واحدًا . . قرأت فى الجغرافيا . . زارت المدن والقرى . . قرأت فى التاريخ . . تاريخ بلادها ، وقرأت عن حيوانات بلادها ، وطيورها ، وعن أشجارها ، ونباتاتها ، ودرست العادات والتقاليد ، والفن الشعبى ، ولم تترك شيئًا عن بلادها إلاَّ ودرسته .

وأخيرًا جلست لتكتب : « يحكى فى يوم من الأيام أن كان هناك صبى صغير فى حجم عقلة الإصبع . وذات يوم فتح باب الكوخ ، وخرج منه وهو يدق الأرض بقبقابه الخشبى . . قابلته حيوانات الحظيرة صارخة فى وجهه . . وقالت له إنها لا ترتاح إليه ولا تحبه ، بسبب طريقته فى معاملتها . . وفهم الصبى الصغير كل كلمة قالتها الحيوانات . . شىء عجيب ، كيف حدث هذا ؟

كانت هذه هى البداية ، واستمرث تكتب ، وتكتب ، وتكتب . .

وهكذا خرج إلى الوجود كتاب سلمى لاجرلوف « مغامرات نلز هلجرسون المدهش » ، وبعثت به إلى الناشر ، وجلست تنتظر فى قلق . . وتلقت برقية من الناشر يقول إنه سوف يزورها . . عند ذلك تصورت أن كتابها لم ينجح ، وتوقعت أن يقول لها إنها كاتبة كبيرة للكبار ، ولكنها ربما لا تستطيع أن تكتب للأطفال . . وعندما وصل الناشر كانت المفاجأة : «كتابك (رحلات نيلز هلجرسون العجيبة) جميل، وسيطبع منه نصف مليون نسخة » . . همست سلمى لنفسها :

ـ « سامحه اللّه ، لماذا لم يقل كلمة أو إشارة لرأيه هذا فى البرقية ؟ » . وفى عام ١٩٠٧م ظهر الكتاب . . كان شيئًا رائعًا ، إذ أقبل عليه الأطفال فى لهفة وفرح . . كان واضحًا أنه يرضى كل ميولهم ، وأنه يمتعهم ، ويسليهم ، ويعلمهم ، ويثقفهم . . وانهالت عليها رسائل الإعجاب والتقدير من الأطفال والمعلمين والآباء . . وجاءتها عروض بترجمة القصة إلى كثير من لغات العالم . . إن الدنيا كلها سوف تقرأ كتاب سلمى لاجرلوف الجميل . . وكسبت من وراء ذلك المال والشهرة .

ونلز هو عقلة الإصبع الذى امتطى إوزة ، وطار بها فوق كل أرض السويد . . هذه القصة التى لو بدأ طفل فى قراءتها لن يتركها إلاّ بعد أن ينتهى منها . . سيستمتع بها لدرجة تفوق الوصف ، على الرغم من أنها فى الأصل مدرسية ، وكانت مكتوبة لأطفال مدارس السويد ، ليقرأوها ويؤدوا الامتحان فيها ، إلاّ أنهم على الرغم من ذلك أحبوها لدرجة مذهلة ، ولايوجد طفل فى السويد ، إلاّ وقرأها مرتين وثلاثًا فى إجازته الصيفية ، ولايوجد طفل هناك إلاّ ورسم مناظرها من خياله بعد أن قرأها . .

كان هذا هو الكتاب المطلوب بالضبط ، وكان يعنى سلمى بالدرجة الأولى أن تعرف رأى الأطفال فيه ، وتلقت آلاف الرسائل . . يسألها فيها الأطفال . . ثم ماذا ؟ وماذا حدث بعد ذلك لنلز ؟ . . من فضلك اكتبى عن نلز كثيرًا ، كثيرًا جدًا . . نحن أحببناه .

والغريب والطريف معًا أن الكتاب ذاته قد أصبح موحيًا بالكتابة عنه ، إذ أنه مثير للخيال ، مؤثر إلى أبعد حدود التأثير . . إلى حد أن الكاتب الفرنسى « ل . بورلياجايه » قص الرواية فى شكل فنى بالغ الجمال والروعة . . وإنى لأجدها مناسبة هامة لأن تتصور هذا العمل الكامل ، وتقدم له وتعرف به . .

* * *

قصة : (سلمى) .. الرائعة !

قرب القطب الشمالى فى بلاد السويد الضاحكة الخضراء الجميلة ، كانت تعيش أسرة لاجرلوف . وكان للأسرة إوزة رمادية اسمها « برناش » ، وكانت تحب أصحابها ، وتخص بحبها ابنتهم العذبة اللطيفة « سلمى » .

وبرناش ، بكل الطرق والوسائل تحاول أن تكون مفيدة . . فتراها فى مختلف أوقات النهار إما صائحة وراء الغرباء المتطفلين تهددهم ، وقد شرعت منقارها ، وأرسلت منه مثل : صفير الثعبان ، وهى تطارد الكلاب الضالة التى تتحرش بباب المطبخ .

وأخيرًا . . فهى عندما تتأخر سلمى فى القيام من النوم ، تخاف أن يفوتها ميعاد المدرسة ، فتسرع لتقف تحت شباكها ، وتطلق الصيحة تلو الصيحة ، إلى أن يفيق المنبه من غفلته ، فيهتز جرسه ، ويأخذ فى الرنين المتواصل ؛ حتى تصحو سلمى .

ولكن برناش المسكينة، رغم كل الخدمات التى تؤديها لأسرة لاجرلوف، لم تكن لتروق لهم . . كانوا يتناسون طيبة قلبها ، ولا يذكرون إلاّ صوتها المرتفع ، ويصفونه بالضجيج ، ويبدون استياءهم من هذا الازعاج فى كل مناسبة .

وكانت سلمى ـ فى خفية من العيون ـ تمنح الإوزة شيئا من الفطائر والحلوى ، فتهش لها برناش ، وتجدها أشهى وأطعم من لحم القواقع .

وفى يوم من الأيام ، وبينما كانت سلمى فى المدرسة ، قبضت أمها على برناش المسكينة ، وبدأت تخلع ريشها ، واختارت إحدى عشرة ريشة من الريش الكبير ، ووضعتها جانبًا ، لكى تستخدمها سلمى فى كتابة واجباتها. ثم جمعت الزغب (أى الريش الصغير) لتنتفع به فى حشو الوسائد، وتركت الريش الباقى مكومًا فى وسط الفناء . وبعد ذلك . . غابت لتحضر سكينًا كبيرًا . . وأغمى على برناش ، لكن بعد لحظات قليلة بدأت تفيق . ولفحها تيار الهواء ، فاستيقظت، وما إن فتحت عينيها حتى وعت حالها ، وأدركت المصير الذى ينتظرها ؛ فتماسكت ، ولم تعطس ، رغم شدة البرد ، ولم تئن ، رغم الألم . . وتأكد لها خلو المطبخ من السيدة وخادمتها ؛ فولت هاربة ، وأخذت تجرى وراء ريشها ، تجرى ، تجرى ، حتى وجدت نفسها فى الريف .

وعادت سلمى من المدرسة ، ولم تجد برناش فى البيت ؛ فبكت بكاء مرًّا .

وزعموا لسلمى أن الذئب قد أكلها .

كانت الإوزة تقول فى نفسها :

«سلمى كانت تعلم أنهم سيذبحوننى ، ولم تخبرنى بالأمر قبل وقوعه » .

وكانت برناش ترتعد من البرد ، ولا تعلم متى ينتهي بؤسها ، ولا كيف تتخلص من الورطة التي ألمت بها .

ولمحت على البعد سربًا من الإوز المستأنس ، يتمرغ في ترعة صغيرة عند مدخل القرية ، فاقتربت منه وقالت :

« يا أخواتي ، أنا بدون ثياب ، وعريانة كما ترينني ، ولكنني سمعت من بني آدم مثلاً يقول : إذا كلٌّ منا أعطى فتلة ؛ اكتسى الرجل العريان . مارأيكن يا أخواتي ؟ ألا يمكن لهذا المثل أن ينطبق على الإوز أيضًا ؟ » .

ولكن أين الطيبة من الإوزات الأليفة ، التي امتلأت بطونها ، وكاد يصيبها الكساح من كثرة الطعام ، أين منها الطيبة والإحساس بالأخوة؟

لقد هجمن على برناش ، وأعملن فيها المنقار عضًا و تجريحًا :

« الوقحة ! المتبجحة ! العريانة ! . لقد خلعت كل ثيابها . . كيف نعلم الآن إن كنت من الإوز ، أم البط ، أم الدجاج الهندي ؟ . . اغربي عن وجوهنا بسرعة ، حتى لايراك أبناؤنا » .

وغابت الشمس وراء جبال النرويج ، ولا ثوب على برناش المسكينة ، إلاّ الظلام ، فذهبت إلى بركة قريبة ، وحشرت نفسها بين أعواد النباتات ، حتى غلبها النوم .

* * *

وفي الوقت نفسه كانت هناك مشكلة أخرى تجري حوادثها ، وكان الليل يظللها . . لقد أحس الليل في قميصه الأسود الكبير بشيء ما ، يقلق راحته ، ويمنعه من النوم . شيء ضئيل دقيق ، لا يهمد ، ولا يخمد ،

ولايطاق . شىء يروح ويجىء ، ويعود ويختفى ، ويتلفت ، ويصعد وينزل، ويناور ويحاور ، ويتحرك ويقف ، ويستحيل على الليل أن يمسك به .

واستولى الغضب على الليل ، فانتصب واقفًا ، وخلع قميصه الأسود الكبير .

وأخذ الليل ينفض قميصه . . فسقط منه القطار السريع وهو ينهب الأرض بين استوكهولم ومدن السويد . وسقطت منه أمطار من الخفافيش ، وعشرات من الثعالب ، وسبعة لصوص ، وسبعة من رجال الشرطة ، وأربعة آلاف كلب ينبحون فى وجه القمر ، ومصنع كبريت ، ومسرح لم يتم تقديم العروض عليه بعد ، وسرب من الإوز البرى ، كان يطير فوق السحاب ، وثلاثة قوارب فى أعلى البحار . . ولم يكن شىء من هذا هو الذى يضايق الليل ويسلبه النعاس .

لقد كان هناك فأر من مدينة البندقية يقرض بندقة ، وقفشه الليل من ذيله ، وطوح به فى الهواء ، فجرى الفأر مذعورًا ، واختفى فى جحره .

وعادت السكينة إلى قلب الليل ، بعد أن تخلص من المعذب الشنيع ، فارتدى قميصه من جديد ، ثم تمدد، وراح فى النوم .

* * *

كان سرب من الإوز البرى ـ كما سبق أن قلنا ـ قد تدحرج من القميص الأسود الكبير الذى نفضه الليل ، عندما عكر الفأر صفو مزاجه .

ووقعت الإوزات فى الموقع نفسه الذى انتهت إليه برناش المسكينة .

واكتشفنها فى جانب من البركة راقدة بين أعواد النباتات ، وهى ترتعد من البرد ، وسألنها عن حالها ، فقالت :

« لقد نتفوا ريشى وكادوا يذبحوننى . وحتى صديقتى سلمى لم تدافع عنى . وأنا عريانة كما ترون ، ولكننى أعرف مثلا من أمثال البشر يقول : (إذا كل منا أعطى فتلة ؛ اكتسى الرجل العريان . . ما رأيكن ؟ ألا يمكن لهذا المثل أن ينطبق على الإوز أيضا ؟ » .

أجاب الإوز البرى :

« نحن سمعنا بهذا المثل قبل أن تسمعى به ، ومن حسن حظك أننا قد نزلنا بجوارك . نحن دولاب من الملابس يهبط عليك من السماء » .

وكان السرب يتكون من مائتى إوزة ، وأعطت كل واحدة منهن ريشة لبرناش ، التى أصبحت ترتدى ثوب إوزة برية . وكان الثوب كأنه قد فصل عليها تفصيلا .

وعندما لاح الفجر ، وصَفَت السماء ، نهضت الإوزات المهاجرات من البركة ليتابعن رحلتهن إلى الجنوب .

كانت برناش قد انتظرت بين أعواد النباتات ، حيث اختبأت لتغطى عريها ، حتى ينبت لها ثوب جديد . ولو قدر أن يتم ذلك ، ونبت لها ثوب إوزة مستأنسة ، لما فكرت فى الانتقام ، ولكن برناش قد أصبحت إوزة برية فتية تهوى العراك ، وتستطيع أن تخترق السحاب ، وأن تعلو فوقه ، وكانت تعلم أنها ستمر عند عودتها على بيت لاجرلوف .

وبعد أن قلبت الأمور فى مخيلتها ، قالت برناش لأخواتها :

« كل ما أريده هو أن تخجل سلمى من قسوتها . دعونى أتصرف بمفردى. سأنتظرها عند خروجها من المدرسة ، وأستوقفها لكى أوجعها بالكلام القاسى ، وقد أعض إصبعها . كاك كاك . لسوف ترى كيف أعاقبها على خيانتها ، وكيف يكون تأديبى لها » .

واستأذنت برناش من أخواتها ، وطارت حتى شارفت بلدة سلمى قبل الظهر ، وحطت فى الطريق الذى تعود منه بنات المدرسة ، واختبأت خلف سياج من اللبلاب وانتظرت . ورأت البنات مقبلات . . ولم تكن بينهن سلمى . . وكن يتحدثن بصوت مرتفع ، وكانت سلمى موضوع الحديث . . وطرقت كلماتهن آذان برناش ، التى راحت تنصت بكل جارحة فيها . .

ـ « سلمى ! سلمى التى كنا نظنها بليدة ، تصبح الأولى على الفصل كله ! ! » .

ـ « وخطها جميل . . أليس كذلك يا لوزيرا ؟ » .

ـ « نعم الخط جميل ، ولكن أجمل منه المعانى والصور ! . . إن وصفها للإوزة التى ابتلعها الذئب قد أبكى الفصل كله ! ».

ـ « هى لا تزال تبكيها حتى اليوم ، ولا يعزيها شىء عن فقدها» . .

ـ انها لا تنساها أبدًا . . هذه الفرخة ! » .

ـ « لا تقولى فرخة يا أوتيليا ، وتأدبى . . فقد كانت إوزة . . بل ولابد أنها إوزة رائعة . . هل أذكركن متى بدأت سلمى تدهشنا ؟ . . لقد كان ذلك عندما أخذت تكتب بالريشات التى بقيت من برناش ، قبل أن يلتهمها الذئب ! » .

وسارت البنات فى طريقهن ، ولم تعد أصواتهن تصل إلى برناش ،

ولكنها كانت قد سمعت مافيه الكفاية . وتهدج صوتها وهى تحدث نفسها :

« ابتلعها الذئب ! . . التهمها الذئب . . هذه قصة من اختراع السادة آل لاجرلوف ! . لقد خدعوا سلمى ، لقد خدعوها ، وقد بكت لموتى . . وأصبحت تلميذة مجتهدة ، وتقدمت على فصلها ، والفضل لريشى ! . . آه ! آه ! كاك ، كاك ، يافرحة قلبى ! يا حبيبتى ياسلمى . .

هل أخبرها بأن الذئب لم يأكلنى ، وبأن أهلها قد كذبوا عليها ؟ . .

أحسن طريقة أن أحدثها ، دون أن أكشف عن شخصيتى ... »

وكانت سلمى تعدو فى الطريق لتلحق بصديقاتها . . ولكى تخفى اضطرابها ، أسرعت برناش فى التصرف ، وقفزت من مخبئها ، وألقت التحية على الفتاة :

« صباح الخير ياسلمى . . لا تخافى . . أنا إوزة برية ، لا تريد لك إلاّ الخير ، كل الخير . . وقد سمعت أنك أصبحت تلميذة متفوقة ، وأنت تكتبين بالريش الذى تركته لك إوزة أليفة . . فهل هذا صحيح ؟ » .

وأجابت سلمى مندهشة ، وقد اكتسى وجهها بحمرة خفيفة :

« نعم ! لقد تركت لى برناش العزيزة إحدى عشرة ريشة ، وبفضلها أصبحت يدى وكأنها تجرى على الورق بكل ما أريد أن أقوله » .

وقالت الإوزة البرية :

« هذا جميل ! ولسوف أعطيك ريشة أخرى . . الريشة الثانية عشرة . ريشة كانت مجدافًا فى بحر السحاب ، وفى السماء الزرقاء ، وفى قلب

العواصف ، وقد طارت وسبحت فوق كل بلاد العالم . وهذه الريشة الثانية عشرة ستقود يدك الصغيرة منذ اليوم بأجرأ مما فعلت الأخريات » . وانتزعت برناش من جناحها ريشة كبيرة ، وأهدتها لسلمى . .

وقبل أن تشكرها سلمى ، كانت الإوزة البرية قد طارت . .

كانت برناش تضرب فى السحاب من شدة التأثر والانفعال . .

وأنتم تعرفون الباقى . .

فى كل موسم تذهب فيه الطيور المهاجرة أو ترجع ، كانت سلمى تسمع من فوق بيتها صيحة إوزة برية . . وكأن الصيحة تحية مبحوحة ، وسلام حنون . . وكأن الصيحة نداء . . نداء لسلمى بأن تعمل ، وبأن تأتى أشياء عظيمة جميلة ، كلما خطت على الورقة البيضاء بالريشة الثانية عشرة . .

وقد لبت سلمى النداء ، وبالريشة التى أهدتها إليها برناش كتبت حكايات رائعة لكل الأطفال فى كل أنحاء العالم . . أحدثهن (رحلة نلز هلجرسون العجيبة) وأسطورة (جوستابيرلج) ، وحصلت على جائزة نوبل عام ١٩٠٩م .

وزارت سلمى لاجرلوف مصر ، وطافت بالمدن والقرى ، وشاهدت الآثار ، ولا شك أنها قد تخيلت نلز هلجرسون يطير عاليًا فوق الأهرام ومعابد الأقصر . .

وبعد عودتها ، تلقت رسالة من الجامعة ، التى لم تتح لها قط فرصة الالتحاق بها ، وكانت الرسالة تحمل مفاجأة ضخمة . . فقد تقرر منحها الدكتوراه الفخرية ، تقديرًا لها على كتاباتها . .

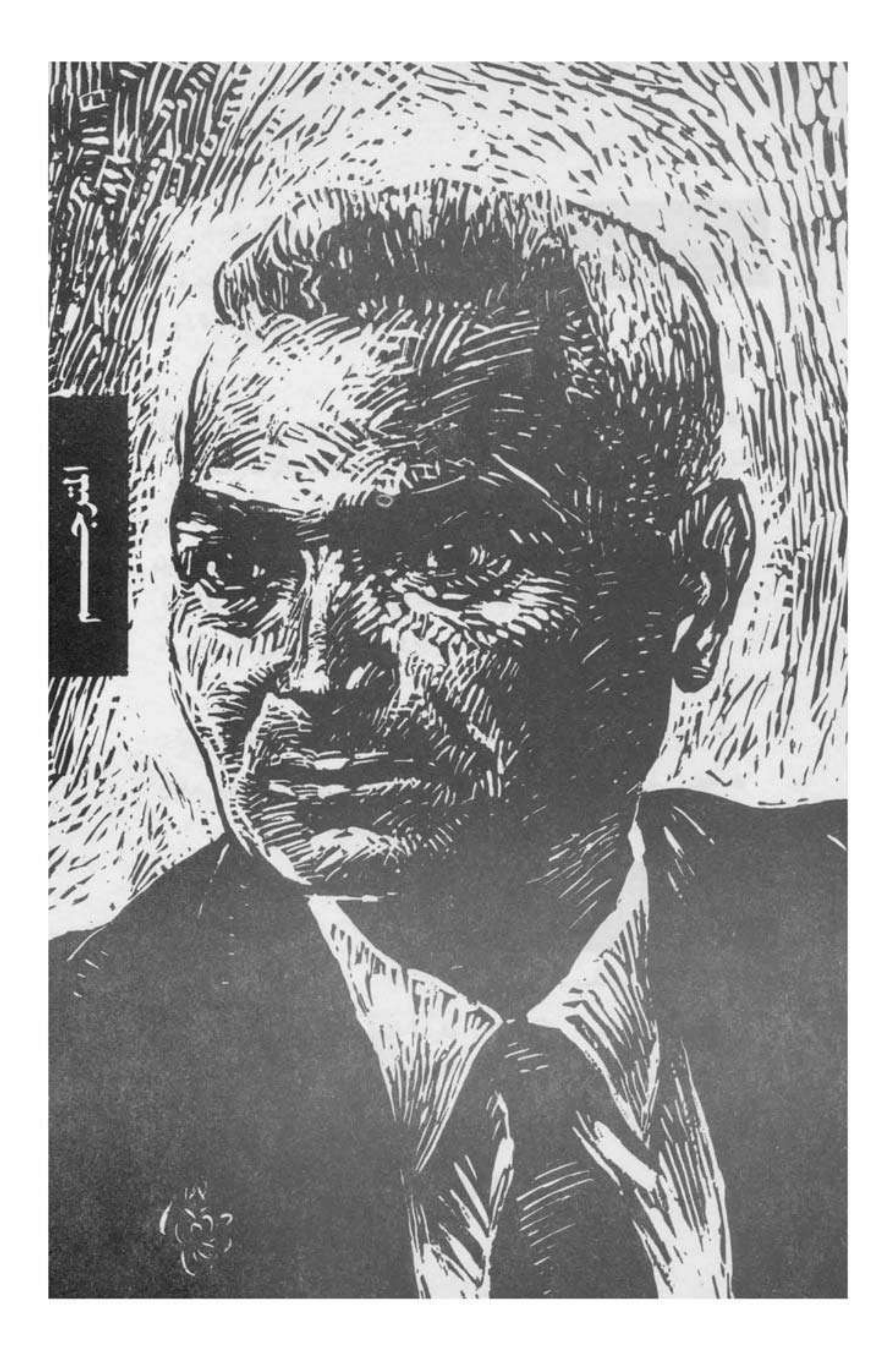
ورحلت سلمى لاجرلوف عن دنيانا إبان الحرب العالمية الثانية . . فى عام ١٩٤٠م بالتحديد . .

وعندما كانت تحتفل بعيد ميلادها الواحد والثمانين ، كانت كل السويد معها ، ووجهت إلى الشعب رسالة من خلال الإذاعة . . قالت فيها : «شكرا يارفاق الطريق . أنتم تريدون أن تودعونى وتقولوا لى إن ماكتبته سيبقى للأجيال بعد رحيلى ، لذلك أشكر وطنى وشعبى على كل شىء» .

وفى ربيع عام ١٩٤٠م رحلت عن الحياة . .

وبعد عامين من رحيلها فتحت السويد مزرعتها وحديقتها للجماهير، تنفيذًا لوصيتها . . لقد صار البيت متحفًا ، يزوره الناس ، ليروا كيف عاشت هذه الكاتبة العظيمة تعرج فى سيرها ، لكنها انطلقت كالشهاب نحو النجاح والمجد والخلود ، وحققت بخيالها الرائع وبجهدها العظيم مجدًا نسى الناس معه شللها وعرجها !

عبد التواب يوسف


المترجم

المترجـــم

* شوقى جلال محمد .

* تخرج فى جامعة القاهرة ـ فلسفةوعلم نفس ١٩٥٥م .

* كاتب ومترجم ، متفرغ .

* له ٢٥ كتابًا مترجما . . منها (المسيح يطلب من جديد) ، (تشكيل العقل الحديث) ، (بنية الثورات العلمية) ، والأصوات والإشارات . .

* من مؤلفاته : نهاية الماركسية . . . التراث والتاريخ (نظرة ثانية) ، الحضارة المصرية : صراع الأسطورة والتاريخ ، على طريق توماس كون (رؤية نقدية لفلسفة تاريخ العلم فى حياتنا فى ضوء توماس كون) ، العقل الأمريكى يفكر (تطور مفهوم الحرية الفردية فى الفكر الفلسفى الأمريكى ، ودوره فى الدول النامية) .

*كتب عديدًا من المقالات والدراسات فى المجلات الثقافية المتخصصة .

* عضو لجنة قاموس علم النفس ، والمجلس الأعلى للثقافة خلال الستينيات ، وعضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

مقـدم الكتاب

* عبد التواب يوسف .

* تخرج فى جامعة القاهرة ، دارسًا العلوم السياسية ، متجاوزًا البكالوريوس إلى الماجستير .

* كاتب للأطفال ، وباحث فى ثقافتهم وأدبهم .

- جائزة اليونسكو العالمية (باريس) ١٩٧٥م .
- جائزة الملك فيصل العالمية فى الآداب (الرياض) ١٩٩١م .
- جائزة الدولة فى أدب الأطفال ١٩٧٥م .
- جائزة اتحاد الإذاعات العربية الذهبية (بغداد) ١٩٧٩م .
- جائزة العطاء الذهبى (القاهرة) ١٩٨٠ م .
- جائزة الدولة فى ثقافة الأطفال ١٩٨١م .
- جائزة منظمة الثقافة العربية (تونس) ١٩٩١ م .

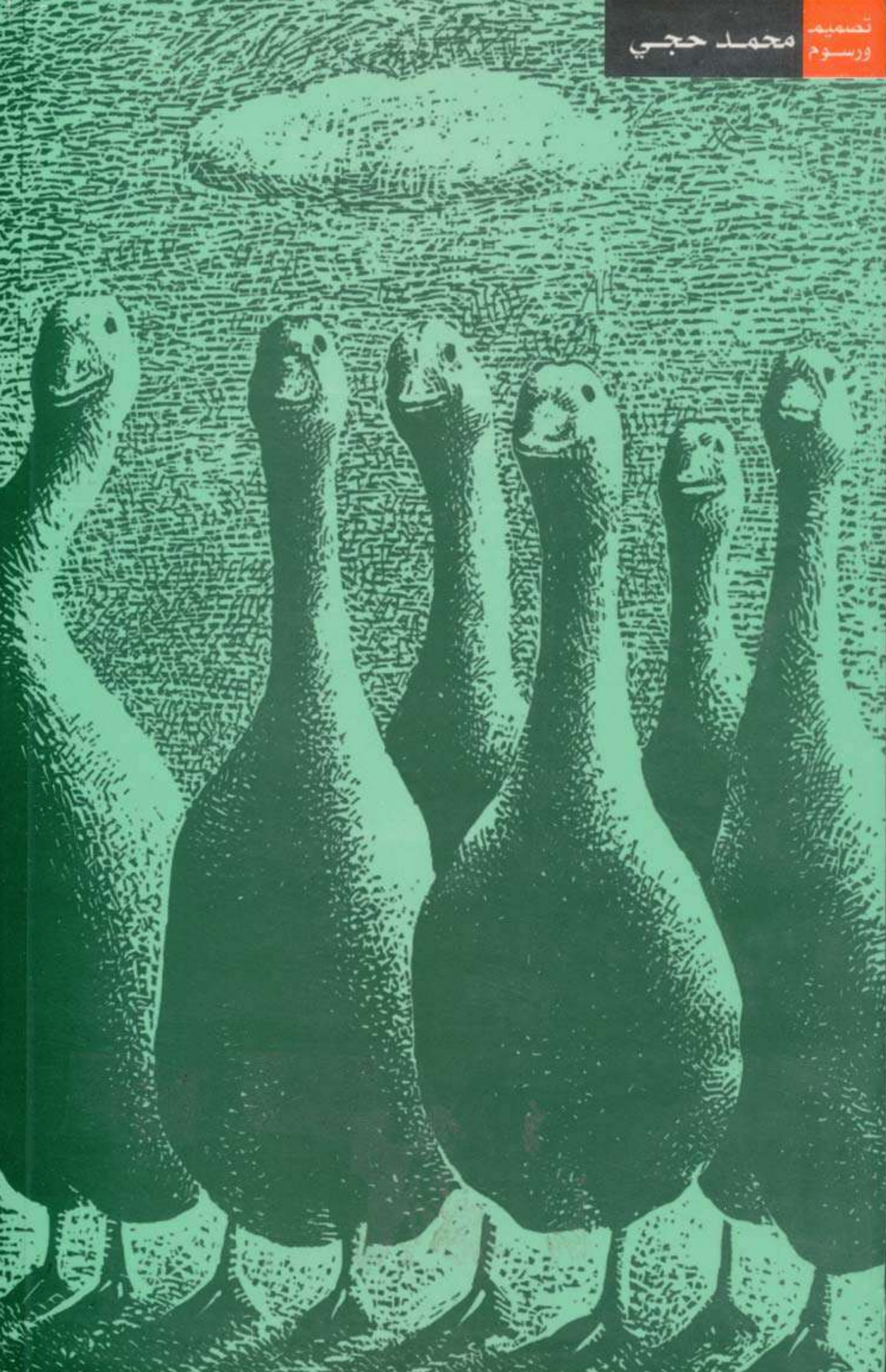
* يصل عدد عناوين كتبه للأطفال إلى ٣٠٠ عنوان .

* له كتب للكبار ، يزيد عددها على عشرين كتابا .

* عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وعضو لجنة ثقافة الأطفال بالمجلس الأعلى للثقافة ، ولجنة الدراما بالإذاعة .

* له آلاف البرامج الإذاعية والتليفزيونية للكبار والأطفال .

* * *


تصميم
ورسوم
محمد حجي